المجلس الأعلى للثقافة

غرام الفراعنة

فيوليت فانويك



ترجمة:
فاطمة عبد الله محمود

مراجعة:
محمود ماهر طه

المشروع القومي للترجمة

153

المشروع القومى للترجمة

غـــرام الفراعنـــة

تأليف : فـيـولين فـانويك

ترجمة : فاطمة عبد الله محمود

مراجعة : محـمـود مـاهر طه

تقـــديم : أنيس منصـــور

المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٠

VIOLAINE VANOYEKE

LES HISTOIRES
D'AMOUR
DES PHARAONS

MicheL LAFON

103, boulevard Murat - 75016 Paris

إهــــــداء

إهــداء إلى ...

... من أثرى عالم الثقافة والفكر العربى بكتاباته الواقعية الرفيعة المستوى . وله كل الفضل علىّ فى إصدارى لهذا الكتاب ، فهو أول من قرأه باللغة الفرنسية بإحدى مكتبات باريس .....

وفى عاموده الرائع « مواقف » بجريدة الأهرام ، تحدث عنه بإسهاب وإعجاب شديد ، ضمن قراءاته العديدة للكتب الفرنسية والإنجليزية عن حضارتنا المصرية العريقة ... الكاتب والمفكر الكبير « أستاذ » هذا الجيل وكل جيل ... أنيس منصور .

فاطمة عبد الله محمود

تقديم

إذا كان الفرنسيون لا يزهقون من الكتابة عن نابليون فهم أيضاً لا يزهقون من الكتابة عن الفراعنة . فالفرنسيون عندهم يقين بأن شامبليون الذى فك طلاسم اللغة الفرعونية هو أيضاً الذى كشف لنا وللدنيا الحضارة المصرية القديمة ، وأهداها إلى فرنسا ولنا .. فقد كنا ننظر إلى الأهرام وأبى الهول والكرنك .. كنا ننظر ولا نعرف ما المعنى ، ما الحكمة ؟ ما العظمة ؟ حتى جاء شباب الحملة الفرنسية يتقدمهم أعظم شباب زمانه نابليون (٥٢ سنة) . ففرنسا لذلك تنظر إلى مصر على أنها من اكتشافها ..

ولم يكن غريبا عندما ذهب إليها تابوت الملك رمسيس الثانى يطلب العلاج أن أطلقوا له ٢١ طلقة كأنه أحد ملوك فرنسا .

فالكتب الموجودة فى مكتبات باريس عن مصر الفرعونية رائعة علم وحب وإعجاب لا حدود له . أن أستاذه واحدة مشغولة بالحضارات القديمة أسمها " فيولين فانويك " قد أصدرت الجزء الأول من أحد عشر كتابا عن (غراميات الفراعنة) .

وأما الجزء الأول فعنوانه (*قصص الحب عند الفراعنة*) وقد اختارت غرام نفرتيتى لاخناتون وولع نفرتارى برمسيس الثانى ، وهيام تايى برمسيس الثالث .. ثم جنون قيصر بكليوباترة .. وهوس أنطونيو بكليوباترة ثم انتحارها فى النهاية .

وفى الصفحة الأولى من كتابها هذا جاءت هذه الأبيات لعاشقة فرعونية تقول :

" إنى مجنونة بك لدرجة أننى نسيت أن أصفف شعرى لكى ألقاك فى أجمل صورة .. لا يهم .. إننى الآن لك على طول " .

تقول فيولين إنها قد اتخذت مادة هذه الكتب من البرديات والنقوش وأنها فى مراجعة النصوص ومقارنتها بعضها ببعض ..

ولكنها كوفئت على ذلك بأرق المشاعر الإنسانية .. وأعمق أعماق المرأة الفرعونية .. فالمرأة هى هى فى كل العصور مهما أخفت مشاعرها ، والرجل

هو الرجل سواء كان جالسا على العرش أو راكعا أمامه .. أنه يحب المرأة (الأنثى) .. كما أن المرأة تحب الزوج (الرجل) .. وقد انبهرت فيولين بالتعبيرات الرقيقة والكلمات المهذبة فى الحب .. انسات اليوم أجرأ من " نفرتارى " و " نفرتيتى " و " تايبى " ألوف المرات .. ولو سمعت فتيات اليوم كلمة (أخى) عندما تقولها المرأة لحبيبها لأغرقت الفتيات فى الضحك..

مساكين أنهم لا يعرفن الحب كيف يسمو ويرقى ويضىء ويظل فى غاية الأدب والنبل .

وإذا كانت مصر هبة النيل ، فإن مصر الفرعونية هبة فرنسا .

أنيس منصور

مقدمة

لاشك أنه من العسير كتابة قصص وحكايات الحب التى عاشها الملوك الفراعنة ، ولا ريب أبداً أن مثل هذا العمل يتطلب قدراً وافياً من إعادة الترتيب التاريخى الذى قد يكون افتراضياً فى معظم الأحيان .

حقيقة أن لدينا بعض الوثائق الأصلية ، مثل المشاهد التى تمثل الملوك الفراعنة وزوجاتهم على جدران المعابد والصروح ، ولدينا أيضاً بعض النقوش البارزة ، والقطع الفنية . ولكن ، كل ذلك يبدو محـــدوداً ، ويفتقر تمـامـاً إلى عـلامــات التعبير أو الأحاسيس . إن كل ذلك ، لا يعدو أن يكون ، فى معظم الأحيان ، سوى مجرد صور وأشكال لا روح فيها ولا حيوية ، تعبر فقط عن بعض المشاهد التقلدية . ولكن ، نجد أن التى تنطلق بعيداً عن هذا الجمود والتصلب الكهنوتى هى فقط المشاهد الممثلة لنفرتيتى وأخناتون . ففى واقع الأمر ، أن هذين الزوجين الملكيين قد عملا معاً على ازدهار وتألق نوع من الفنون الأكثر واقعية ، خلال إحدى حقبات المرحلة العمارنية . وقد يلاحظ أن هذه الواقعية قد تعدت حدودها فى بعض الأحيان . بل لقد وصلت فى الكثير من الأحيان إلى درجة اللامألوف إلى حد ما . ولكن ، سرعان ما أعقبتها فترة جديدة تتسم بالتقليدية الواضحة . ولكن ، لا ريب أن مثل تلك الواقعية قد ساعدت الفنانين وقتئذ على تقديم مشاهد نادرة وباهرة تمثل نفرتيتى وأخناتون بمصاحبة بناتهما ، بل ومشاهد أخرى تمثل هذين الزوجين الملكيين ، وهما يتعانقان وقد غابا معا فى قبلة حارة على الطريقة المصرية القديمة (بتلامس طرفى أنفيهما ...) أو وهما منطلقان فى مركبتهما الخاصة وقد تعانقا معا فى حب وحنان واضح .

وفى إطار نفس الحقبة التاريخية ، لمع وتألق النحات المصرى العظيم تحتمس الذى استلهم معظم أعماله من جمال نفرتيتى الأخاذ . ولكن مما يؤسف له أن الكثير من أعماله فائقة الروعة قد دمرت وطمست معالمها ، عندما فقدت الملكة سلطتها ونفوذها ونعنى بذلك اللوحات والهياكل النذرية التى حطمها أو طمس معالمها بعض أسلافهما ، مما حرمنا من وسائل إعلام ثمينة وقيمة . وفى هذا الصدد ، يلاحظ أن صور بعض

الملكات وأشكالهن ، قد حلت محلها مناظر خاصة بزوجات أخريات حديثات . وهذا هو نفس ما حدث بالنسبة لنفرتيتي ، فإن صورها التى تمثلها من خلال النقوش البارزة بجوار أخناتون ، قد حلت مكانها بعض المناظر التى تمثل إحدى بناته .

ولقد تم العثور على الآلاف من الألواح الصغيرة الأكادية المصنوعة من الخزف والصلصال ، والتى نقشت عليها المراسلات المتبادلة بين ملوك الحيثيين والميتانيين ، وبين الفرعونين أمنحتب الثالث وأمنحتب الرابع . فلقد تم اكتشافها فى أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين بمنطقة تل العمارنة وفى الأناضول . إن مراجعنا الوحيدة التى تركها التاريخ لنا عن نفرتيتي وأخناتون ، لا تعدو أن تكون سوى بعض النصوص التى تتناول نفرتيتي ، عثر عليها حوالى عام ١٨٤٥ ، وكذلك بعض التماثيل والنقوش البارزة ، وبعض الرسوم وأطلال إحدى النصب التى كانت قد كرست من أجل « آتون » بالكرنك ، وعدد ضئيل من الجداريات كل . تلك هى مصادرنا الوحيدة عن تاريخ نفرتيتي وأخناتون .

أما فيما يتعلق بقصة حب رمسيس الثانى ونفرتارى وبالمشاعر العاطفية التى كانا يكنانها لبعضهما بعضا ، فليس من الصعب مطلقا أن نتبينها من خلال المشاهد التى كان الفرعون قد أمر بتنفيذها من أجل زوجته وحبيبة قلبه « الملكة المعظمة نفرتارى » . والجدير بالذكر ، أنه كان ، فى نفس هذه الفترة متزوجا من زوجة ملكية أخرى ، تدعى « إيزيس نفرت » . ويلاحظ أن « إيزيس نفرت » هذه لم تمثل إلا نادرا بجواره على الآثار ومن خلال النقوش البارزة ، مثلها مثل بقية الزوجات الأخريات .

ومن المعروف أن نفرتارى كانت تصاحب الفرعون خلال « عيد الأوبت » الذى كان يحدد أوائل السنة المصرية ، « وأنها ، قد حضرت أيضا ، الاحتفال بتنصيب كاهن أعظم جديد من كهنة آمون » .

بل لقد ذهبت إلى « قادش » ، فى الوقت الذى كان الملك يخوض معركته الشهيرة ضد الحيثيين . وأمر الملك أيضا بمصاحبة أبنائهما على جدران معبدى أبى سمبل . ومن المعروف أيضا أن « الملكة المعظمة » نفرتارى كانت تتبادل الرسائل مع ملكة الحيثيين وتبعث إليها بالكثير من الهدايا القيمة ، عربونا على صداقتها بعد إبرام اتفاقية السلام بين المصريين والحيثيين .

وربما أن رمسيس الثانى قد مر بتجارب عاطفية عديدة ، ولكن حبيبة قلبه ومليكة فؤاده الوحيدة كانت « زوجته الملكية العظيمة نفرتارى » . ولقد توفيت نفرتارى بعد

افتتاح معبدى أبى سمبل . ويرى بعض المؤرخين ، أنه بالرغم من هذا الحب العظيم الذى ربط بين قلبيهما ، فإنه كانت تتراءى ، أحيانا ، بين الزوجتين الملكيتين « إيزيس نفرت » ونفرتارى بعض الصراعات على قلب الفرعون رمسيس الثانى .

أما بالنسبة لرمسيس الثالث ، فقد واتانا الحظ كثيرا . فمن المعروف أن هذا الملك قد وقع ضحية لمؤامرة كبرى ، تورطت فيها زوجته « تيى » التى كانت تعيش فى إطار الحريم الملكى .

ولقد عثر فى منتصف القرن التاسع عشر على بردية مصرية ضخمة ومسهبة للغاية ، عرفت تحت اسم « بردية هاريس » . ويمكن الاطلاع عليها فى يومنا هذا ، بقسم الآثار المصرية القديمة بالمتحف البريطانى بلندن . وهى تتضمن فى طياتها سردا وافيا ومسهبا عن هذه المؤامرة ، كتبها ابن رمسيس الثالث وخليفته على العرش .

وبالنسبة لكليوباترة ، فلا شك أن المصادر تبدو وفيرة للغاية ، ولكن المؤرخين القدامى لم يكونوا يميلون إلى الإكثار والإطناب . وأكثر هؤلاء المؤرخين موضوعية ، هو « بلوتارخ » الذى عدد مظاهر جمالها وسحرها ؛ أما قيصر ، فقد سرد مرحلة إقامته لفترة ما بمصر فى كتابة « تعليقات عن حرب الاسكندرية » وعن الفترة التى أعقبت وفاته . أما أثينى النقراتيسى ، فقد حكى عن الاحتفالات ومظاهر الاستقبال التى كانت كليوباترة تحييها من أجل أنطونيو فى تارس .

وفى كتابة المعنون بـ « التاريخ الرومانى » ، يذكر « ديون كاسيوس » المقاطعات والمناطق التى منحها أنطونيو لأبناء كليوباترة. بل وذكر أيضا وصفا لمعركة « أكتيوم »، وكيف تراءت آخر لحظات هذين العاشقين .

ولقد خصص « إيوتروب » فى كتابه المعنون بـ « مختصر التاريخ الرومانى » ، فقرات عديدة عن معركة « أكتيوم» وعن شغف كليوباترة وتعطشها للسلطة، وعن واقعة موتها . أما سويتون ، فقد أشار ، إلى العلاقة بين كليوباترة وقيصر . وفى كتابه المعنون بـ la pharsale تحدث لوكان ، عن إقامة قيصر بالإسكندرية .

وبالنسبة لـ « شيشرون » ، فلم يحاول أبدا إخفاء بغضه وكراهيته لملكة مصر فى كتابه "رسائل إلى أتيكوس" . وأما هوارس ، فقد أشاد بشجاعة الملكة المصرية وجسارتها . وتحدث « بروبرس » عن رهافتها ورقتها ، لكن « لوكان » كان يرى أنها تميل إلى الفسق والفجور . وعن بلينى القديم فقد ذكر ألاعيبها ومناوراتها ، وأسهب «أبين » فى التحدث عن العاطفة والحب الجارف الذى كان أنطونيو يكنه للملكة .

وبالرغم من ذلك ، فإننا لا نستطيع أن نثق فى مثل هذه النصوص المتحيزة للرومانيين ، الذين يضمرون البغض والكراهية لكليوباترة ملكة مصر .

ولا ريب أن قصص الحب هذه ، قد وقعت خلال عصور وأسر متباينة ومختلفة : قصة حب نفرتيتى وأخناتون ، خلال الأسرة الثامنة عشرة ، وقصة رمسيس الثانى وحبه القوى لنفرتارى تمت فى إطار الأسرة التاسعة عشرة ، أما حكاية رمسيس الثالث والملكة « تيى » ، فكانت أيام الأسرة العشرين . وعن غراميات كليوباترة ، فقد وقعت أحداثها فى عصر البطالمة .

كما أن هناك العديد من العناصر التى يجب وضعها فى الاعتبار ، عند محاولتنا تقديم الأسرة الثامنة عشرة المتألقة المزدهرة ، أو الحالة فى مصر أيام كليوباترة .

ولقد ارتبطت نفرتيتى بأخناتون بعاطفة الحب ، فى الوقت الذى كانت مصر تنعم فيه بالخير والثراء ، وتتألق بأبهى مظاهر ازدهارها . فبعد انقضاء معالم غزو الهكسوس ، الذين قدموا من سوريا وتركوا وراءهم أسوأ الذكريات ، استطاع المصريون أن يعدلو من أحوالهم تماما . وتمتعت مصر ثانيا بالارتقاء والتقدم ، وفى نفس الوقت استطاعت أن تحتفظ بأواصر الصداقة مع الدول المجاورة لها .

والجدير بالذكر ، أن فترة الحكم الطويلة الأمد الخاصة برمسيس الثانى خلال الأسرة التاسعة عشرة ، قد تركت وراءها بصمات مؤكدة عن عظمة مصر وازدهارها .

أما عن رمسيس الثالث ، والذى لا يرتبط بأية قرابة برمسيس الثانى ، فقد خلف أبيه أول فراعنة الأسرة العشرين . ولا ريب مطلقا أن رمسيس الثالث قد استطاع أن يحمى حمى مصر من الغزاة الطامعين فيها ، وتمكن من إعادة تنظيمها وتعديلها بعد أن كانت تسير بخطى حثيثة نحو الهاوية . ولكن ، مما يؤسف له ، أنه قد عاش فى أواخر أيامه ، فترة من الاضطربات والقلاقل الخطيرة : إضرابات العمال ، ومشاكل مالية عويصة ، ومؤامرات .

أما عن كليوباترة السابعة ، فهى آخر ملكات أسرة البطالمة ، التى أسسها « بطلميوس الأول سوتر » ، وهو أحد القادة العسكريين بجيش الإسكندر الأكبر . ولقد أرادت كليوباترة أن تدعم من سلطتها ونفوذها فى أواخر الأسرة البطلمية ، التى كانت فى طريقها إلى الأفول . وفى نفس الوقت ، كانت «روما» تفرض سيطرتها على مصر .

ولقد أبدت هذه الملكة المصرية شجاعة وجسارة رائعة ، وهى تحاول ألا تجعل من بلدها مجرد مقاطعة خاضعة للإمبراطورية الرومانية . ولم تقر مطلقا بأن سلطة ونفوذ فراعنة مصر قد أحنى عليها الدهر وتلاشت إلى الأبد .

ها هى إذن قصص حب عارمة وملتهبة ، عابرة ، وخاطفة مؤثرة وعاتية ، مدبرة أحيانا ، وتحيط بها العراقيل غالبا . ووقعت فى إطار حقبات تاريخية غير عادية . ومع ذلك ، فنحن لا نملك بصددها القدر الكافى من المعلومات والعناصر اللازمة . وبالرغم من ذلك ، فإن بضعة أسطر بالكتابة الهيراطيقية أو الهيروغليفية على إحدى البرديات ، أو لمحة ما على وجه ما من خلال بعض النقوش البارزة ، أو حركة يد ، قد تكون جريئة أو متحفظة ، من خلال بعض التماثيل ، كل ذلك قد يجعلنا نسترسل قليلا فى أحلامنا ، ويفتح أمامنا المجال واسعا لنتطلع ونتعرف على بعض المشاعر والأحاسيس التى ترنو إلى استعادة حياتها وحيواتها عبر آلاف السنين .

ڤيولين فانويك

« إننى محب إلى الدرجـــة التى تجعلنى

لا أستطيع أن أمشط شعرى كما يجب .

فـقد انطلقت أعدو لملاقاتك

والآن ، هأنا ملك يديك ... »

مقتطفات من قصيدة حب مصرية

نفرتيتى
و
أخناتون

نحن الآن فى العام الخامس والثلاثين من حكم أمنحتب الثالث . أما ابنه الشاب اليافع أمنحتب الرابع ، فهو مازال بعيداً عن مصر بإحدى رحلاته المتعددة . ويبدو أنه قد ألم تماما ، من خلال تلك الرحلات الطويلة الأمد ، بالمناطق والبلاد الخاضعة لمصر ، بالرغم من أنها تبعده كثيرا عن أبيه الذى قلما يراه ، ويبدو أنه لم يكن هناك تقارب كبير بينه وبين أمه « تى » وكان أمنحتب الثالث قد تزوجها وهى تناهز الثانية عشرة من عمرها ، وأنجب منها ثلاث بنات وولداً واحداً .

ولا ريب أن « تى ملكة القطرين » كانت تمارس نفوذا قويا فى إطار البلاط الملكى ، وربما أن أمنحتب الثالث قد اتخذ العديد والعديد من الزوجات ، ولكن « تى » بقيت « الأثيرة الوحيدة ، مالكة قلبه ، الزوجة الملكية المعظمة » .

لقد رحب « توسراتا » ، ملك « ميتانى » بأمنحتب الرابع واستقبله استقبالا رائعا فى بلاطه . وهناك تقابل ابن الفرعون ، لأول مرة بالأميرة الجميلة اليافعة « تادوخيبا » .

وكان كل من « آى » معلم الأمير الشاب « وتوسراتا » ينظران بعين الرضا والموافقة إلى التقارب والتفاهم الذى بدأ يتجلى واضحا بين الأمير والأميرة . وخاصة أن المعلم « آى » والحاكم « توسراتا » كانا متفقين معا على تقوية أواصر الصداقة بين مصر وميتانى . ولم يكن المصريون قد نسوا تماما ذكرى غزو الميتانيين لهم ، الذين قدموا من سوريا فى حوالى العام ١٧٠٠ ق . م ، وأطلقوا عليهم اسم الهكسوس . وبعدها ، استطاع الملوك المصريون أن يعيدوا تنظيم وبناء بلدهم . بل وتيقنوا تماما ، أن الضرورة تحتم أن تنمحى كل آثار العداء والكراهية فيما بينهم وبين الميتانيين ؛ لتسود مكانها مظاهر الصداقة والتحالف . بل وأرادوا أن يدعموا هذا التحالف معهم ، فى كثير من الأحيان بتقوية أواصر الصداقة أو عقد بعض الزيجات المشتركة .

وبالرغم من حداثة سنها ، كانت الأميرة " تادوخيبا " تتألق جمالا وفتنة . بدت قسمات وجهها رقيقة وفائقة النقاء ، وبشرتها تكاد تكون شفافة . ولها قوام متناهى

الرشاقة ، وقد عقصت شعرها فى خصلات مجعدة عليها تاج محلى ومرصع بالأحجار الكريمة ، ذات اللون الأحمر ، واللازورد ؛ مما عمل على إبراز جمال ورقة وجنتيها ، وأنفها ؛ وذقنها . وعلى ما يبدو ، أن كل ذلك قد أثار إعجاب الشاب الصغير أمنحتب الرابع ، الذى لم يكن قد تعدى العام الثالث عشر من عمره .

وعادة ، كانت الأميرة ترتدى رداء أبيض اللون مصنوعا من قماش خفيف رقيق الملمس ، ذا فتحة صدر مستديرة تزينها بعض نقوش الزهور المطرزة ، والمرصعة بالخيوط الذهبية والأحجار الكريمة . وبالقطع ، كان ذلك يبين إلى حد ما ، عن سمات جسدية تفيض بالرقة والنعومة المتناهية .

ولرغبته الشديدة فى الحصول على كميات من ذهب مصر الوفير ، فكر ملك « ميتانى » ، فى بداية الأمر ، فى تزويج ابنته من أمنحتب الرابع . ولكن على ما يبدو أن أمنحتب الثالث ، قد تلقى قبل ذلك الأميرة « جيلوخيبا » من ميتانى زوجة له ، والتى ضمت بعد زواجها منه إلى الحريم الملكى . ومن قبل كان أبيه قد تزوج عمه «توسراتا» ملك ميتانى . وها هو الآن يبدى اهتماما كبيرا بالأميرة الجميلة « تادوخيبا » . فقد كان ملك « ميتانى » من خلال مراسلاته معه ، يتحدث عنها وعن جمالها الفائق الباهر . وسرعان ما أرسل الفرعون مبعوثا خاصا إلى ملك « ميتانى » ، يلتمس منه إرسال الأميرة « تادوخيبا » الجميلة إليه فى مصر لتكون زوجة له ..

ووافق ملك « ميتانى » على منح ابنته للفرعون ، بشرط أن يعطيه قدرا وافرا من الذهب . ولكن أمنحتب الثالث بعث إلى الملك ببضع هدايا متواضعة للغاية . ولذا سارع الملك بسجن مبعوث الفرعون ، ولم يحرره من سجنه إلا بعد أن تيقن تماما أن الفرعون سوف يجزل له العطاء . وبعد أن تلقى ملك « ميتانى » ما كان يرغب فيه من غنائم نفيسة ، سرعان ما تم إبرام عقد الزواج .

ولقد تعهد الفرعون بأن يرسل إلى ملك « ميتانى » كميات وفيرة من الذهب ، والفضة وبعض التماثيل المنحوتة من العاج . ومن ناحيته ، اتفق « توسراتا » ملك « ميتانى » مع أمنحتب الثالث على تقديم مهر كبير يفوق ما قدم من أجل زوجته « جيلوخيبا » وخلاف ذلك ، اتفقا على أن يتبادلا مدينتين فيما بينهما .

وعندما علم أمنحتب الرابع أن أبيه على وشك الزواج من « تادوخيبا » ، أبدى اعتراضا شديدا . ولكن كان على الفتاة الصغيرة أن تذعن للأمر . ولم تكن تعرف شيئا

عن الفرعون المصرى زوجها المقبل . كان قد ناهز الخمسين من عمره ، ذا قوام مكتنز ، وأنه يتأوه طوال الوقت من آلام التهابات باللثة .

وقد قال لها أبوها قبل سفرها :

« عنـد وصولك إلى مصر ، قـدمى له هـذا التمثال الصغير الذى يمثـل الإلهـة « سشات » الشافية من الآلام » .

* * *

وقف أمنحتب الثالث منتظرا قدوم الأميرة الجميلة . وبدا وقتئذ عارى الجذع تماما وقد تدلى على أحد جنبيه حزام مئزره المزين بذيل فهد ، وقد اعتلى رأسه تاج أزرق اللون ، ووفقا للتقاليد المتبعة ، أشرف الفرعون على عملية التضحية بأحد الثيران من أجل الإله آمون . ولقد أفعم قلبه بالبهجة والسرور عند سماعه للأنباء التى وصلت إليه ، فقد كانت الأميرة على وشك الوصول إلى طيبة ، فى مساء نفس اليوم . وهنا ، بدأ الراقصون يؤدون حركاتهم الإيقاعية حول المذبح الملطخ بدماء الأضحية . وأخذ المصريون يتدافعون ويتكالبون ؛ من أجل رؤية هذه الأميرة الجميلة التى قيل عنها إنها تفوق الفجر فى تألقه وجماله وروعته .

وتم حمل الفرعون فوق محفة خاصة حتى ضفاف النيل . وهناك ، رأى سفينة الأميرة وهى تنساب على صفحة المياه . وبدت الشمس وهى تعكس أشعتها الذهبية فوق سطح النهر الداكن اللون ، وعلى السفينة الناصعة البياض التى تقف فى وسطها ابنة « توسراتا » وهى تحمى وجهها الجميل من أشعة « رع » الساطعة . وفوق مقدمة السفينة تراءت هذه الكتابات : « آتون يتألق » .

ومن خلال المساكن التى تصطف على ضفاف النيل ، والصروح العملاقة الضخمة المكرسة من أجل الآلهة ، والسفن المتراصة بالميناء ، المكتظة بأنواع الفاكهة الواردة من سوريا ، وبأعداد ضخمة من الملاحين ، أخذت صيحات الفرح والبهجة تتعالى وتملأ الأرجاء .

هبطت الأميرة من مركبها ، والتقت بالفرعون ، الذى كان يصطحب معه الملكة « تى » . وسرعان ما تلامسا بطرفى أنفيهما فى قبلة حب حارة ، وفقا للتقاليد المصرية القديمة . ثم توجها معا إلى القصر الملكى ..

وقد أبدت « تادوخيبا » انبهارها بالمشاهد والرسوم الجدارية البديعة التى تغطى كافة أنحاء جدران القصر . ويلاحظ أنها تمثل مناظر للأحياء المائية أو عالم الحيوان . وعبقت حجرات القصر برائحة البخور . وكانت الأسقف والجدران مصنوعة من خشب الصنوبر . ويدا « بيت الاحتفالات » مماثلا فى تألقه وروعته لمقصورة أمنحتب المصنوعة من الحجر الرملى ورقائق الذهب ، ذات الأرضية المبطنة بالفضة . ويتم الوصول إليها من خلال ممر خاص فخم ومهيب .

قام الفرعون باستدعاء التراجمة ، من أجل أن يبين للأميرة أنه سوف يقدمها للشعب المصرى بمناسبة احتفالات عيد « الأوبت » . ولقد اعتاد الفرعون ، خلال هذا العيد ، أن يقوم من الكرنك متوجها إلى الأقصر فى موكب ضخم رائع .

وشعرت « تادوخيبا » بالإعجاب والانبهار لما تراه فى مصر ، من ثراء فائق ، وقبلت بفرح غامر ما اقترحه عليها الفرعون . وبذا حضرت الأميرة عملية التضحية بالكباش كقربان للإله آمون ، وزوجته « موت » وابنه « خونسو » ، ووقفت بجوار الملكة « تى » التى أبدت لها ترحيبا حارا .

وصاحب هذا الموكب عدد كبير من الراقصات نصف العاريات وقد صاحبهن أحد الموسيقيين وكاهن أصلع الرأس يحمل بيده مبخرة . ثم تلا ذلك عرض لمركب الآلهة ؛ وفى إثرها العائلة المالكة .

وبالرغم من فخامة ومهابة هذا الموكب الكبير الذى يرمز إلى أول أيام العام الجديد ، فإن المصريين لم يملوا من النظر إلى الأميرة الجميلة التى تبدو فى ميعة الصبا . ومكتملة الثقة فى النفس .

ومنذ الوهلة الأولى لوصولها إلى مصر ، أدركت " تادوخيبا " تماما ، وهى ترى زوجها الجديد المسن المريض ، أن « تى » هى التى تحكم مصر وتدير دفتها . ولذا ، سرعان ما تحالفت معها . ولما تتحلى به من ذكاء واضح ، بدأ المصريون يكنون لها مشاعر الإعجاب . وأخذت جموع المصريين تطلق صيحات الترحيب بها ، فى نفس الوقت الذى كان الكهنة يقومون بحمل المراكب المقدسة ، وينزلون بها الدرجات المشيدة من الرخام والمؤدية إلى السفن الضخمة المصنوعة من الذهب والفضة ، والتى سوف تقوم بنقل المراكب المقدسة إلى الأقصر .

وصاحب الموسيقيون هذا الموكب وهم ينشدون أغانيهم ، وقد تقدمهم أحد الكهنة ،

وهو يترنم ببعض التراتيل من أجل الإله رع . وتقدمهم أيضا بعض الجند المدججين بالحراب . ثم تراءى بعد ذلك ، موكب آخر يتكون من عازفى المزاهر ، والصلاصل والصاجات . وفى النهاية ، بدت جموع الشعب .

وفى الأقصر ، حملت المراكب المقدسة إلى المعبد بحضور العائلة المالكة التى حضرت أيضا مراسم ذبح الأضحية .

وتزايد انبهار « تادوخيبا » وهى تتأمل ضخامة وعظمة الصرح الذى شيده أمنحتب والهدايا النفيسة التى تقدمها الوفود ، وأبهة وروعة قاعة القرابين التى يحيط بها اثنا عشر أسطونا . وبما تتمتع به من حصافة وذكاء ، تيقنت بأن زوجها حقيقة لا يتمتع بأية جاذبية ، ولكنه ، على أية حال متقدم فى العمر وإنها ، بالقطع سوف تكون المستفيدة من كل هذه الروائع والنفائس المصرية .

ولكن كان هناك بعض الطقوس التى يجب على " تادوخيبا " القيام بها . ففى هذا اليوم أصبحت أولى زوجات حريم آمون . وباعتبارها كاهنة ، كان لزاما عليها أن تمنح نفسها للفرعون الإله .

وبذا فبعد انتهاء الاحتفالات ومظاهر البهجة والسرور ، رافقت " تادوخيبا " زوجها إلى إحدى غرف معبد الأقصر . وكان أفراد الشعب وهم يعبرون عن سرورهم وبهجتهم ، مازالوا يغنون ويرقصون فى صخب بالغ ، وكانوا يندفعون فى مرح نحو أوانى الطعام وكئوس الشراب . بعد ذلك ، بدءوا يتجمعون فى هيئة مجموعات صغيرة ويتسامرون ويرقصون ، ففى هذا الحين كانت مصر مفعمة بالخيرات والغلال الواردة من سوريا ولبنان ، وقبرص ، والجزر اليونانية ، أو من بلاد بونت .

وعندما أرخى الليل سدوله ، بدت النساء فى أثوابهن الفضفاضة ، والرجال بملابسهم القصيرة البيضاء ، وهم يتسامرون ويمرحون ، وكان الخدم يقومون بإحضار المياه لمن يريدون غسل أيديهم . وأقبل الكثيرون على شراب الجعة . وتناثر رذاذ العطور المبهجة على الرءوس والأجساد . وأخذ البعض يضعون أقماعاً صغيرة من الدهون العطرية على شعورهم ، والتى كانت تذوب ، رويدا رويدا ، وتنساب على أجسادهم المسترخية .

وبدا بعض الرجال وهم يقدمون إلى رفيقاتهم فى احتفالات عيد الأوبت هذا باقات من الزهور قاموا هم أنفسهم بجمعها . بعد ذلك ، بدت النساء جميعا فى هذا الاحتفال وقد زينَّ شعورهن بزهور اللوتس .

وكانت جرار النبيذ عديدة ولا حصر لها . وأخذ الموسيقيون يرقصون حول هذه الأوانى المستطيلة الشكل الموضوعة فوق دعامات خاصة ، من أجل تثبيتها ، فإن قاعدتها تبدو مدببة الشكل ، ولابد لها من هذه الدعامات . وانسابت الموسيقى ناعمة وحالمة إلى حد ما . وعملت أنغام العود ، والقيثار ، والمزمار ، والطبول على إشاعة البهجة والسرور بين جموع المحتفلين . وفى نفس الحين ، كان بعض الشعراء يترنمون ببعض أغانى الحب .

ها هو الليل قد أصبح حالكا تماما ، وبدأ الخدم فى إشعال مصابيح الزيت . وأخذت بعض الراقصات الجميلات العاريات تماما ، يرقصن ويتمايلن ، ولا يرتدين سوى سلسلة ذهبية رفيعة حول خصورهن وأخرى حول كواحلهن .

أما عن الذين لم يتمكنوا من حضور الاحتفالات عند معبد الأقصر ، فقد اكتفوا بالاحتفال بها فى بيوتهم أو ضياعهم احتفالا كبيرا .

وخلال كل ذلك ، وفى معبد الأقصر ، ها هى " تادوخيبا " تجد نفسها منفردة أمام زوجها الجديد . وحقيقة أن الفرعون غير حصيف ومفتقد للمهارة ويعانى من آلام المرض ، ولكنه ، بالرغم من ذلك ، وأمام صبا الأميرة وجمالها ونضارتها ، عرف كيف يثبت فحولته إثباتا لا شك فيه مطلقا .

وفى اليوم التالى ، استيقظت " تادوخيبا " مع شروق الفجر ، بالرغم من أنها قد أمضت ليلتها بأكملها فى أحضان زوجها ، وبالرغم من أنها كانت معتادة على النوم مبكرا .

وكان الفرعون قد أمر بعض الموسيقيات بأن يوقظن زوجته على أنغام الموسيقى . وقامت إحدى الخادمات بنثر الروائح العطرية الزكية حولها . وأزاحت الستائر عن نافذة حجرتها . وهنا قالت لها نفرتيتى بلغتها الأصلية : « حسنا ما فعلت ، إننى أحب كثيرا، عندما أفتح عينى فى الصباح ، أن أرى « رع » وهو يسطع بنوره على العالم».

وأزاحت الملاءة البيضاء التى كانت تغطى بها جسدها العارى ، وتثاءبت بكل قوتها ، ، وأسرعت نحوها بعض الخادمات ، لكى يقدمن لها خفين ، وغطاء للرأس ، وشعراً مستعاراً (باروكة) وبعض الحلى والملابس .

وأخذت إحدى الخادمات تنظم سريرها المصنوع من خشب الصنوبر والمزين بالأحجار الكريمة . وعملت على شد وتسوية ما أصاب ملاءته الكتانية من كسرات

وثنيات بعد نوم زوجة الفرعون عليه طوال الليل ، وقالت تادوخيبا للخادمات وهى تشير لهن بكلتا يديها كى يفهمنها : « أريد سريعا أن آخذ حماما » .

ففى حقيقة الأمر أن هذه الزوجة الشابة التى لم تتعدى الخامسة عشرة من عمرها كانت تأنف من الجموح الزائد عن الحد والرغبة العارمة التى كان يبديها زوجها إزاءها . وبذا ، كانت تشعر بالضرورة الملحة فى أن تغرق جسدها فى المـاء المنعش لكى تغسله وتنظفه .

وصعدت " تادوخيبا " فوق القاعدة التى وضع فوقها حوض الاستحمام المصنوع من المرمر الأزرق اللون . وسرعان ما التفّت الخادمات حولها . وكن يحملن بين أيديهن جراراً ذهبية مليئة بالمياه . وبدأت نفرتيتى تضع قدميها البديعتى الشكل بداخل حوض الاستحمام ، وهى تتأوه بصوت خفيض من ملمسه البارد . وبحركة سريعة بيدها ، أشارت إلى الخادمات بأن يغرقنها بالمـاء . وفى نفس الحين ، كانت بعض الخادمات الأخريات يسكبن فى مياه الحوض بعض الروائح العطرية النادرة .

لقد مكثت " تادوخيبا " ، فى حمامها هذا أكثر من المعتاد ، وبعد ذلك ، استسلمت لعملية التدليك التى قامت بها بعض وصيفاتها ، وهن يدهن جسدها ببعض الدهانات والزيوت العطرية . وخلال ذلك ، أخذت تفكر فى الفرعون ، وهو فى مظهره المهيب بتاجه المزدوج الخاص بمصر العليا ومصر السفلى ، هذا التاج الذى يبدو ثقيلا جدا فوق رأسه ، لدرجة أنه لكى يستطيع تحمله ، قد وضع تحته ما يسمى بالنمس ، وهو وشاح ذو لون أبيض وأحمر . وأخذت تتمتم ، فى صوت خفيض :

« واأسفاه ، إن هذا الرجل طاعن فى السن ، إنه على وشك الانطلاق فى رحلة إلى العالم الآخر » .

وهنا ، أعلنت إحدى الخادمات أن « آى » بالباب ويطلب المثول أمامها ، وأسرعت تادوخيبا بارتداء ثوب هفهاف على جسدها الذى مازال مبتلا بالمـاء . دخل « آى » حجرتها وقال لها :

— « أريد أن أعترف لك بأمر . وأرجو أن تسامحينى » .

وقبل أن يبدأ حديثه ، أمر مستشار الملك الخادمات بأن يغادرن الغرفة ، وكان «أى» يجيد تماما لغة تادوخيبا الأصلية ، وقال لها فى حرص بالغ :

« إنني أنا الذى أخطأت بالتحدث عنك مع الفرعون أمنحتب الثالث ، ومن هذا المنطلق رغب فى أن يعرفك ويتزوجك ، ولكنني عندما تيقنت أنك وأمنحتب الرابع ستكونان زوجين رائعين ، أسفت كثيرا لأننى تحدثت عنك مع الفرعون ، بل إن أباك أيضا قد حاول الرجوع عما وعد به الفرعون ، ولم تنجح أية خطة من خططه ، خاصة عندما طالب الفرعون بكميات فائقة الحد من الذهب حتى يثنيه عن تفكيره فى الحصول عليك » .

وأجابته تادوخيبا وهى تنظر إليه بعينيها اللامعتين المشعتين ذكاء :

« – إننى أعرف ذلك جيدا » .

– عندما رأيتك خلال رحلتى الأخيرة إلى « ميتانى » سارعت بوصفك للفرعون ، ولكنى تيقنت أننى بذلك ، قد ارتكبت خطأ فادحا ، ولكى أمحو هذا الخطأ ، عملت على إقناع والدك بأن يؤخر من موعد وصولك إلى طيبة ، فربما خلال هذه الفترة قد ينتقل الفرعون إلى " عالم أوزيريس السفلى " . فأجابته " تادوخيبا " وقد بدا عليها أنها كانت تعلم بكل شىء :

– « شكرا لك ، ولكن ، على ما يبدو ، أن الفرعون كان مصرا على رأيه ... !! » .

– « لقد تراسل مع والدك لمرات عديدة ، وتوسل إليه بل وهدده أيضا ، بل ووافق أيضا على كل مطالبه ، من أجل أن يحصل عليك !! .

– « لا ريب أن مصر تنعم بثراء هائل ، كما أن والدى كان فى حاجة ماسة إلى الذهب !! » .

وهنا تراءى لها أن « آى » يشعر ببعض الحرج ، فقالت له :

– « لا تتحرج مما أقول . لقد كان والدى يشعر دائما بالضعف أمام سبائك الذهب ؛ ولذا فلم يتوان عن تقديمى لفرعون هرم وطاعن فى السن أمضى فى الحكم ما لا يقل عن ستة وثلاثين عاماً .

– « عموما ، لن يعيش أمنحتب الثالث طويلاً » .

– " هل أنت على يقين من ذلك ؟ " .

– " قطعا ! " .

– « ولكنى ، وأنا معه . بالأمس ، لم أشعر أبدا أنه على وشك الانتقال إلى العالم الآخر . لقد شعرت بوجوده وحيويته تماما ، بجوارى فى هذه الليلة ! » .

– وتضرج وجه المستشار « آى » بحمرة الخجل وأصابه الحرج والارتباك ، وأخذ يتمتم ببعض كلمات الاعتذار غير الواضحة ، فقالت له تادوخيبا :

– « هون عليك ، إن أجمل حلم تحلم به العديد من الأميرات هو أن يصبحن زوجات لفرعون مصر ، لا تشغل بالك إذن ، بحق « أتون » ذى الأشعة المتلألئة الساطعة ، لقد سطرت الآلهة طريقى إلى الخلود » .

لم تمض "تادوخيبا" سوى ثلاث سنوات إلى جوار أمنحتب الثالث . وبعدها ، توفى الفرعون ، حورس ، مالك الحقيقة ، ملك مصر العليا والسفلى ، ابن رع ، وسيد طيبة . وكانت قد ناهزت السابعة عشرة من عمرها عندما وجدت نفسها أخيرا ، وحيدة تماما أمام الملكة الحاكمة القوية الشكيمة «تى» . وهنا بدأت تفكر فيما سيئول إليه مصيرها .

ومكثت "تادوخيبا" فى هدوء تام ، خلال فترة المراسم الجنازية ، التى تستمر نحو شهر أو أكثر ، وبدت وهى مرتدية ثوب الحداد الطويل الفضفاض طوال هذا الوقت .

وفى نهاية الأمر ، تم دفن أمنحتب الثالث بمقبرته فى وادى الملوك . وبدأت « تى» ، التى كانت قد طعنت فى السن ، تتساءل فى نفسها عما ستكون عليه خلافة زوجها المتوفى ، فحقيقة أنها تربعت فوق قمة مصر لسنوات عديدة ، ولكنها ، أيضا ليست بمنأى من الموت ، وها هى الآن تجد نفسها وحيدة ومنفردة فوق هذه القمة .

* * *

ها هى نفرتيتى قد أصبحت « الزوجة الملكية المعظمة » خلال العام الأول من حكم أمنحتب الرابع . وبدت مظاهر الحب وعلاماته ترفرف على الزوجين الشابين ، لدرجة أن أفراد الشعب المصرى كانوا يسعدون ويستمتعون لملاحظة ذلك . وخاصة ، خلال الاحتفالات الرسمية وهما يتلامسان بحب أو يتعانقان فى هيام واضح .

وفى العام التالى ، رزق الزوجان بطفلة أطلقا عليها اسما رقيقا جذابا هو « مريت آتون » أو « حبيبة آتون » .

وكانت نفرتيتى وأخناتون ينعمان بأبهى مظاهر الفخامة والثراء . ولم يكن عدد الخدم الذين صاحبوا هذه الملكة ليقل عن ثلاثة آلاف خادم وخادمة ، ويضاف إليهم أيضا ، عدد آخر من الخدم ، قام زوجها بإهدائهم لها . ولم يكن عدد الخادمات القائمات بخدمتها ليقل عن مائة خادمة ، هذا بالإضافة إلى عدد كبير من المربيات والخدم الرجال .

لم يجد أمنحتب أى داعٍ أو ضرورة للاحتفاظ بالنساء اللاتى كن يحطن بأبيه فى القصر . ولقد شجعته الملكة « تى » على التخلص منهن لما لاحظته من حبه الشديد

لنفرتيتى . ولكنه ، باعتباره ملكا ويجب أن تلبى كافة مطالبه ، فلقد أصر على ضرورة أن يبعث ملك « بابل » إليه بالهدايا التى كان قد وعد بها أباه من قبل .

وعلى ما يبدو أن المستشار الوفى « آى » قد أسر إلى نفرتيتى بالصدام الذى يوشك أن يتفجر بين مصر « وبابل » . وفى إحدى حجرات جناحها الفخم ، وقف « آى » يتبادل معها الحديث . وبدا الأسف واضحا فى عباراتها وهى تسأله قائلة :

– إذن ، فسوف تغادر طيبة لبعض الوقت ؟

– إنها مهمتى التى يجب أن أقوم بها . فإننى المكلف بشئون مصرالخارجية . وأومأت برأسها موافقة . وفى حقيقة الأمر ، إنها كانت تفضل أن يبقى « آى » إلى جوارها بالقصر . فإنه ، فى واقع الأمر ، كان أفضل المستشارين على الإطلاق . ووجه « آى » كلامه إليها ، قائلا :

– لقد طالب زوجك من ملك « بابل » بأن يبعث إليه بالأميرة التى كان قد وعد بإرسالها إلى أبيه من قبل .

فأجابته الملكة :

– ولكنك ذهبت إلى هناك من قبل ، لحسم هذا الأمر !

– قسما بإيزيس ، لقد عوملت هناك أسوأ معاملة فإن ملك « بابل » عندما رأى الهدايا ضئيلة القيمة التى بعث إليه بها أمنحتب الثالث ، اجتاحته ثورة عارمة وأمر بسجنى ، وهو يصيح قائلا بأن أباه قد تلقى من مصر فى الماضى هدايا تليق بمقامه . ولكن هذه الهدايا ضئيلة وعديمة القيمة .

– « لقد فعل أبى نفس الشيء !! .

– عموما ، فى الوقت الحالى ، فإننى أرى أن ملك « بابل » قد يكون على صواب . وأرجو أن تتم هذه المقابلة المقبلة على خير . أما عن ملك الميتانيين ، فهو ما زال يرفض إرسال المهر الذى كان قد وعد به أمنحتب الثالث . بل يؤكد أن الفرعون ، كان قد تعهد بأنه سوف يبعث له ببعض التماثيل الذهبية ، ولكنه أرسل إليه ببضعة تماثيل خشبية بدلا منها . بل هو يرفض إطلاق سراح المبعوثيْن اللذين بعثاهما إليه من قبل . ولقد

حضر حاليا أحد المراسلين من « ميتانى » ، حاملا إلى زوجك رسالة تنم عن الغضب وعدم الرضا . ولذا ، فإننى أخشى ما سوف يكون عليه رد فعل أمنحتب إزاء ذلك !! .

– « إننى أعرف أن ملك الميتانيين يتصف بالجشع الشديد . ولذا ، فهو على أتم استعداد لإثارة أزمة ديبلوماسية من أجل الحصول على هذه التماثيل اللعينة !! » .
وهنا ، سألها « آى » وهو يعلم جيدا أن الفرعون لا يستطيع أن يرفض لها طلبا :

– « ألا تستطيعين التحدث فى ذلك الأمر مع أمنحتب ؟ فإننى أخشى أن يثور هو أيضا !! » .

وأخذت نفرتيتى تمعن التفكير . ثم قالت لـ « آى » :

« إن ملك الحيثيين ليس شجاعاً بالقدر الكافى . إنه إذا علم أن مبعوثيْه قد سجنا هنا ، فإنه على الفور سوف يكتب إلى الفرعون ليذكره بروابط الصداقة الوطيدة التى تجمع فيما بينهما . بل وليقترح عليه تبادل الأسرى !! » .

وفى نفس هذه اللحظة حضر إلى مكان نفرتيتى حارسان وهما يدفعان أمامهما رجلا مكبل اليدين بالحبال . وهنا وجهت الملكة سؤالها فى حدة بالغة إلى الحارسين :

– « من الذى أذن لكما بالدخول إلى هذه الحجرة ؟!! » .

وهنا ، ظهر الفرعون وأجاب :

– « أنا الذى أمرتهما بذلك . هذا الرجل دخل الأراضى المصرية بدون تصريح . لقد حضر من « ميتانى » ولابد أنك سوف تفهمين ما يحاول أن يقوله لى !! » .

ويبدو أن الرجل الميتانى ، قد شعر عندئذ بشىء من الاطمئنان ، ووجه كلامه لنفرتيتى محاولاً تملقها ومدحها ، وفى نهاية الأمر ، قالت الملكة لزوجها :

– هذا الرجل لا يضمر شرا . اتركه يعود إلى وطنه . وقل لمليكه أن يعاقبه على محاولة تسلله إلى مصر !! » .

بدا واضحا أن نفرتيتى وأخناتون كانا يعيشان معا أحلى وأسعد أيام حياتهما فى أجواء مصر التى كان يعم بها الثراء والازدهار . وبذا ، كان جميع المصريين يشاركونهما هذه السعادة والهناء .فالشعب أيضا كان يرفل فى مظاهر الخير والثراء !!

فعلى ضفاف النيل ، كانت البيوت الأنيقة الجميلة ، لا تختلف فى مظاهرها أبدا عن القصور الصغيرة التى كان أمنحتب يشيدها لنفسه .

ومن الداخل كانت هذه البيوت الأنيقة الفخمة تتألق بأفخر أنواع الأثاث المطعم برقائق الذهب والفضة والأحجار الكريمة . وتحيط بها حدائق غناء مترامية الأطراف ، وبرك مائية أنيقة يلهو بجوارها الأطفال ، ويطفو على سطح مياهها الزهور المائية . أما جدران هذه المنازل الفخمة، فقد زينت بمناظر جميلة تمثل زهور الربيع اليانعة النضرة.

وكانت الملكة مولعة للغاية بالحدائق الغناء والبساتين الجميلة . ولذا ، فقد أمرت بإقامة حدائق يانعة مترامية الأطراف تتضمن الكثير من النباتات النادرة . ولم يكن من الصعب بالنسبة لها ، أن تأمر بتكوين حملات للتوجه إلى المناطق والبلاد النائية من أجل جلب الزهور والنباتات من كافة أنحاء العالم .

وعلى مدى أربع سنوات ، خصصت الملكة قدرا كبيرا من وقتها لبناتها الثلاث الصغيرات : « حبيبة آتون الجميلة » و « ماكت آتون » « التى يحميها آتون » ، وهى ثانية بناتها ، ثم الثالثة وتدعى « عنخ إس إن با آتون » ، « التى منحها آتون الحياة » .

ولقد أوكلت مهمة تربية هؤلاء الأطفال الثلاثة إلى زوجة « آى » . ومع ذلك ، فإن نفرتيتى كانت تصحبهن معها فى كافة تنقلاتها بل إن أمنحتب كان شغوفاً جدا بذلك . ولم يكن يجد أية غضاضة مطلقا عندما تقوم بناته الصغيرات بالقفز والوثب تحت قدميه ، أو يثرن الضوضاء والجلبة خلال بعض مقابلاته المهمة .

وكان أفراد الشعب المصرى يسرون كثيرا ويبتهجون وهم يلاحظون مظاهر هذا التحرر والانطلاق وتلك الروابط الأسرية الوثيقة فى إطار العائلة الملكية . فكأنها انعكاس لنفس عائلاتهم . وعندما كانت الأسرة الملكية تخرج للتنزه راكبة عربتها الخاصة ، كان أفراد الشعب ينظرون إليها فى حب وإعجاب . وكان يأسرهم ويجذبهم علامات الحب العميق بين الزوجين الملكيين . وعلى ما يبدو ، أن الفرعون أمنحتب كان يفضل الطبيعة كثيرا على السياسة ومشاكلها. وبذا، فقد ترك مجال السياسة لأمه ولنفرتيتى . وهكذا ، توطدت خبرة الملكة نفرتيتى ورسخت أقدامها رويدا رويدا فى هذا المجال .

وبالتدريج اتجه أمنحتب ونفرتيتى إلى عبادة الإله آتون ؛ وبالتالى ، أصبح « فرعون الحقيقة » . ولكن ، فى إطار معبد آمون كانت بوادر الغضب قد بدأت تتبلور

وتظهر واضحة . فقد كان الكهنة يشعرون بالمهانة ؛ لأن الملكة لم تولهم أى اهتمام أو اعتبار . وكانت نفرتيتى تصيح أحيانا فى انفعال واضح :

- « لا أريد أن أرى أى معابد أو تماثيل لآمون ! فلتمحوا مناظر الإوز من الرسومات البارزة . فهذه الطيور تبدو قبيحة الشكل وعدوانية ! » .

بل لقد استدعت الملكة كافة كتبة القصر ووجهت إليهم أوامر محددة :

- « عليكم أن تراقبوا كافة المراسلات المتبادلة بين مصر و « ميتانى » والحيثيين ولتقوموا فورا ، بمحو ما تتضمنه هذه الرسائل من إشارات وعبارات خاصة بالإله آمون ! » .

***

فى أوائل العام الرابع من حكم أخناتون ، عملت نفرتيتى بحماس شديد على التوجه دائما إلى أحد الأماكن الجميلة الذى كانا يرتادانه للتنزه . وكان الفرعون يستمتع فعلا بالذهاب إليه .

ويقع هذا المكان فى شمال طيبة . ولم يكن أخناتون يستطيع مطلقا رفض ما تطلبه منه زوجته . وبذا ، ففى هذا اليوم ، وافق على إعداد عربتهما الذهبية من أجل أن ينطلقا معا . وصعدت نفرتيتى إلى العربة الذهبية والتصقت فى حنان بالغ بأحضان زوجها . فقد كانت الضرورة تستدعى أن تبدى له المزيد من العاطفة والدفء ، فى هذا اليوم بالذات . فهى تريد أن يشعر زوجها بسحر ذاك المكان وروعته ؛ وبالتالى ، يقبل أن يشيد فى نطاقه قصرا جديدا ، أكثر جمالا ، وأكثر تألقا من قصرهما فى طيبة . ولم يكن الجو شديد الحرارة . بل كان مناسبا جدا لرحلة لطيفة . وقالت نفرتيتى لزوجها وهى تحتضنه وتقبله فى حنان بالغ :

- « إن آتون يسدد خطانا !! » .

وفجأة ، وكأنها قد عرفت لتوها أن اسم الفرعون يعنى « آمون مسرور منه » فقالت له :

- « عليك أن تحاول تغيير اسمك » . فما رأيك فى اسم « آتون يروق لك » أو « آتون سعيد بك » أو « حتى آتون يسدد خطاك » ؛ أى « أخناتون » ؟ .

« ولقد اتجه الشعب ناحية آتون . وسوف يجد أن تخليك عن اسم آمون هو أمر طبيعى ولا غبار عليه مطلقا !! » .

فأجابها الفرعون وهو يرفع ناظريه إلى السماء :

- « لا شك أنك على حق » .

وهنا ، أحاطت نفرتيتى خصر زوجها بذراعيها ، ومالت برأسها على كتفه . ثم انطلق الاثنان بعربتهما . وبدوا وهما واقفان وقد احتضنا بعضهما بعضا وكأنهما كائن واحد ينطلق فى سرعة جنونية ، تحت أشعة الشمس الساطعة . بل بدوا ، وكأنهما ينطلقان بأقصى سرعتهما نحو الأفق من أجل أن يتلاشيا فيه إلى الأبد . وأخذت ذرات رمال الصحراء تتطاير حول عربتهما وكأنها سحابة ذهبية اللون .

وتراءت عربتهما ذات العجلات الرشيقة ، وأساورهما الذهبية المتلألئة ، والريش المذهب المعتلى رؤوس جيادهما ، وهى تتألق بأشعة آتون الذهبية .

أخذ الزوجان يجوبان معا كافة أنحاء مصر بعربتهما المنطلقة فى سرعة خاطفة . وفى النهاية ، توقفا بالمنطقة التى وقع عليها اختيارهما . وفى نفس اللحظة ، كان كهنة آتون وموظفوه قد انتهوا من إعداد وتنظيم الاحتفال المزمع إقامته من أجلهما هناك . وبذا ، فقد أحضرت العشرات من الأضحيات الحيوانية ، وصنوف عديدة من المأكولات . وتملك أمنحتب العجب والدهشة مما يراه أمامه ، فقال :

– « ماذا يعنى كل ذلك ؟! » .

وهنا وجهت نفرتيتى إليه سؤالها بصوت حنون خفيض وهى تطبع قبله حاره على شفتيه :

– « ألم تعرف بعد ؟ هاهم كبار موظفى البلاط قد اجتمعوا هنا من أجل أن يقيموا لنا احتفالا كبيرا ! » .

وأخذ رجال الحاشية ينحنون ويركعون لتحية الفرعون وملكتهم المحبوبة . وفى الوقت الذى كان فيه أمنحتب يساعد نفرتيتى على النزول من العربة ، أخذ أحد رجال الحاشية يصيح ويهتف بصوته الحاد :

« يعيش ملك القطرين ، ابن رع والحقيقة ! » .

« فلتحى مليكتنا ، الجميلة العظيمة ، النبيلة ، ذات الصوت الذهبى والكلمة المسموعة ، الأحب إلينا من الجميع ، الزوجة الملكية المعظمة ، نفرتيتى » .

وتعالت هتافات كافة أفراد الشعب أيضا تحية لمليكهم وملكتهم . وساد السرور والبهجة بين الناس ، وهم يرون مدى الحب الجارف الذى يربط بين قلبيهما . ثم ظهرت ابنتاهما « مريت أتون » و« مكت أتون » ، اللتان كانتا قد وصلتا قبلهما إلى مكان الاحتفال . وأسرعتا نحوهما ترتميان فى أحضانهما . وهنا تعالت ثانيا هتافات المصريين :

– « فلتحى نفرتيتى ، العظيمة الرقيقة » .

وأمسكت « مريت أتون » بيد أمها . أما « مكت أتون » ، فقد تأبطت ذراع أبيها . وتوجهت الأميرتان معهما إلى المنصة التى وضع فوقها عرشان لهما مساند ذهبية .

وعلى جانبى العرشين وقف بعض الخدم السود ؛ وكان البعض منهم يحملون مظلات واقية من حرارة الشمس ، أما البعض الآخر فكانوا يهزون بأيديهم بعض المراوح الريشية حولهما .

وهنا ، تقدم صف من الجند ، وأخذ الفرعون يراقبهم بانتباه واضح . ثم تراءى موكب مستشارى الملك . وتقدم كل واحد منهم نحو الفرعون لتحيته . أما نفرتيتى الجالسة على يمينه ، فقد وضعت يدها ، خلسة فوق يده ، وأخذت تتحسسها . وقالت له :

– « لقد اختار آتون هذا المكان من أجل أن يشيد به معبدا أو قصرا . لقد حلمت بذلك . لقد قرر آتون ذلك . وسوف تسمى مدينته « أخيتاتون » .

وهنا صاح أخناتون بصوت عال ، وقد اقتنع تماما بحجج الملكة :

– « فليحى آتون ... ولتشيد مدينته فى نفس المكان » .

وأخذ رجال الحاشية وكبار موظفى الدولة ينحنون ساجدين من أجل تحية الشمس . ثم بدءوا يرتلون بعض التراتيل الدينية .

وفى هذه اللحظة ، مالت نفرتيتى ناحية زوجها وهمست فى أذنه وهى تتأبط ذراعيه :

– « صف لهم مدى ما يغدقه آتون من نعم وخير وهناء ! ... قف وتحدث إليهم ! هيا ، قدم التحية لأشعة الإله الذى يغدق علينا من دفئه » .

وهنا قام أمنحتب من فوق عرشه ، ووجه خطابه ، فى حماس واضح إلى أفراد الشعب المتجمعين من حوله . وأخذ يعدد لهم حسنات « الإله » ونعمه . وأعلن أن تشييد مدينة « أخيتاتون » سوف يكتنفه التألق والروعة مثل تألق الشمس وروعتها .

وتعالت صيحات أفراد الشعب وهتافاتهم من أجله .

وبعد فترة وجيزة من الراحة من أجل تناول بعض الغذاء ، استدعى أمنحتب أحد كتبته . وقال له آمرا :

– « أريد أن ينقش خطابى هذا فوق جدران المعبد الذى سوف يقام هنا . إذن ، سجل ذلك عندك » .

وجلس الكاتب القرفصاء ، وأخذ يفرد أمامه بعض اللفائف البردية . ثم بعد ذلك ،

أخرج أدوات كتابته .

وبدأ الفرعون يملى عليه ما يريد ، مراعيا أن يتذكر نفس الكلمات التلقائية التى قالتها نفرتيتى منذ فترة وجيزة :

– « لقد حدد آتون المكان الذى يرغب فى أن يشيد به قصره . إن هذا المكان يبدو وقد أحاط به أحد الجبال . وبه سوف يتلقى الإله آتون العديد من الأضحيات . وبذا ، فإن هذا المكان سوف يتضمن معبدا كبيرا ومعبدا صغيرا ؛ وأيضا قصرا من أجلى وقصر آخر من أجل « الزوجة الملكية المعظمة » نفر آتون نفرتيتى . وسوف يتم حفر مقبرة لى بداخل الجبل . وبها سوف أحيا إلى الأبد . وفى نفس المكان سوف يتم أيضا حفر مقبرة من أجل نفرتيتى . وهناك أيضا سوف تدفن الأميرات بناتنا بعد موتهن . وحتى لو وافتنا المنية فى مكان آخر ، فسوف يتم نقل جثماننا من أجل أن يدفن هنا . ولو فرض أننى انتقلت إلى الآخرة بعيدا عن معبد آتون ، بشمال ، أو شرق أو غرب أخيتاتون ، فعلى عائلتى الملكية أن تقيم هنا معبدى الخاص بملايين السنين . ولو فرض أن توجهت زوجتى « الملكة المعظمة » فى رحلتها إلى العالم الآخر بعيدا عن معبد آتون ، بشمال أو شرق أو غرب أخيتاتون ، فعلى العائلة المالكة أن تشيد هنا معبدها الخاص بملايين السنين وهكذا بالنسبة للأميرات بناتنا !! » .

وتوقف أمنحتب ليستريح قليلا ، ثم أكمل إملاءه :

– « وتقتضى الضرورة أن تقام جبانة فى بطن الجبل ليدفن جميع الكهنة فى هذا المكان ، ولتحفر أيضا مقبرة من أجل كبار موظفى الدولة بشرق أخيتاتون » .

وهنا ، حضرت نفرتيتى لملاقاة الفرعون وقد انتهى تماما من إملائه وعند سماعها آخر كلماته ، اقتربت منه فى حب وحنان بالغ وهى تشكره بصوت خفيض ناعم :

– لقد جعلتنى أشعر بسعادة قصوى وأنت تعتنق عقيدة الإله آتون » .

– « إنه إله الإشراق والضياء والسلام » .

– « لقد كنت اليوم رائعا حقا وأنت توافق على إقامة هذا المعبد ، دون إبداء أى اعتراض » .

– « ألم توح الآلهة إليك برؤيا بهذا الشأن ؟ » .

فأجابته نفرتيتى قائلة :

- « قطعا ، يا أخناتون !! » .

وأخذ الاثنان يضحكان من هذا الاسم الجديد ؛ وكان الغسق قد بدا يرخى سدوله على صفحة النيل . وأخذ المصريون يرقصون ويمرحون ويدعوا يعبون الشراب عبا .

وبدا الأولاد الصغار وهم يلعبون ويقفزون معا هنا وهناك . وكانت البنات الصغيرات يلعبن بالكرة ، أو يستمعن إلى بعض الكتبة وهم يقصون عليهن بعض حكايات السحر والسحرة .

وتصاعدت فى الأجواء روائح شى اللحوم . وتم إعداد المأكولات ووضعها بأماكن نظيفة بعيدا عن الأتربة المتصاعدة . وأخذ الخدم يغترفون كميات كبيرة من الجعة من الجرار العديدة . وامتلأت الأوانى الذهبية الضخمة بمختلف أنواع الفاكهة الشهية .

وبعد شئ بعض أفخاذ الأضحيات قدمت إلى الفرعون . وبدت نفرتيتى وهى تلتهم فى شهية واضحة قطعة من اللحم ، ثم تتذوق قطعة من الفطائر فى تلذذ ونهم . ولم تحاول أبدا أن تجلس بعيدا عن أفراد الحاشية والشعب . وأخذ الجميع يحتفلون معاً بآتون المضىء المتألق .

* * *

على ما يبدو ، أن الفرعون ، بداية من العام الرابع من حكمه ، وكان قد تسمى نهائيا باسم أخناتون ، قد أصابه أحد الأمراض الذى جعله يبدو خشن السلوك . ولم يكن قد تعدى العام العشرين من عمره . وبدا وهو يحاول ، بصعوبة بالغة تحمل آلام هذا المرض الذى ربما كان يقلل من شأنه أمام زوجته الجميلة الفاتنة نفرتيتى ، التى لم تتعد عامها الحادى والعشرين وتتألق نضارة وجمالا .

وأصاب أخناتون هزال شديد . وغدت ساقاه وذراعاه شديدة النحافة وانتفخ ثدياه وترهل جزؤه الأسفل وأصبح أكثر عرضا . وبذا ، كانت نفرتيتى تزداد جمالا وتألقا ؛ وأخناتون يزداد مرضا . وأصبح الفرق بينهما واضحا . وكثرت همسات وابتسامات السخرية تجاه الفرعون ، الذى لم يعد يقوى على الظهور فى المجتمع . وكانت الملكة نفرتيتى تزداد قربا ومحبة لأخناتون كلما ازداد تدهوره واضمحلاله الجسدى .

ويمرور الوقت ، غدت طباعه غير محتملة . فكان يثور لأتفه الأسباب ، وغالبا ما كانت تنتابه حالات اكتئاب شديدة ، سرعان ما تتحول إلى خمول فائق . وكانت نفرتيتى لا تألو جهدا فى ملاطفته وتهدئته . وفى أحد الأيام قالت له :

– « إنك لم تعد أبدا كما كنت من قبل .لقد كنت تتسم بالسماحة واللين ، والهدوء ! لم أسمعك أبدا وأنت تصيح أو تنفعل . بل كنت تنأى عن الحروب ، وحملات الصيد والقنص ، وإراقة دماء الأضحيات . بل إنك لم تعط أبدا أمراً بقتل الأسرى . وكان يحلو لك أن ترسم فوق الجدران مناظر الحب والعاطفة الرقيقة ؛ حتى يسود الهناء والسعادة بين الجميع » .

ولم تلق هذه الكلمات لديه أية فائدة أو تأثير . لقد غدا وكأنه تمثال من الرخام . ولم تعد الابتسامة تتراءى أبدا فوق شفتيه . وشعر بالملل من كل ما يحيط به ، ولم تعد أكثر الألعاب أو الأغانى التى يقدمها أكثر الفنانين مهارة تحلو أو تطيب له . وغالبا ما كان يتناول طعامه مع الملكة أو بمفرده ؛ حتى ينأى عن أية ملحوظات بخصوص اضمحلال جسده . بل إنه فى بعض الأحيان ، كان يرفض استقبال بناته . وفى أحد الأيام قال لزوجته فى حزن وأسى :

– « لقد أصبح شكلى بشعا منفرا » .

وهنا أجابته نفرتيتى بطيبة الأم وحنانها :

– « حاول ألا تشغل بالك بالتفكير فى هذا المظهر . فإن الإله هو الذى أعطاه لك . إنك تتمتع بروح طيبة ونبيلة . إذن ، فقد منحك « الهبة الأساسية » .

وهنا أجابها أخناتون :

– « فلتتوقفى عن مخاطبتى بهذا الأسلوب ، وكأننى ابنك الصغير . إنك لم تعودى تنظرين إلىّ نظرة الزوجة إلى زوجها . بل أصبحت تعتبريننى طفلاً بائساً جديراً بالعطف والشفقة » .

وأكدت له الملكة أنه مخطىء فى اعتقاده هذا . وأخذت تذكره بأن تشييد مدينة أخيتاتون قد أوشك أن يكتمل . وبالتالى، فسوف يذهبان معا من أجل افتتاحها . ولكنه قال لها :

– « إننى لا أبغى مطلقا التعرض لنظرات الناس أو لأشعة الشمس . فكلما وجهت أشعتها علىّ ، فإننى أشعر أننى أفتقد للجمال » .

ومع ذلك ، فقد حاول أخناتون أن يتغلب على آلامه الجسدية والنفسية ، وذهب لافتتاح مدينة آتون ، الواقعة ما بين طيبة ومنف . ولقد أصبحت أخيتاتون أيضا بمثابة مقر الإقامة للملكة والملك .

لقد استمرت فترة تشييدها طوال ثلاث سنوات كاملة . ولقد استُعمل فى بنائها قوالب الطوب اللَّبِن بل واستعين أيضا بمواد أخرى للبناء استحضرت من أماكن نائية ؛ وتم تجهيزها بورش خاصة أُقيمت من أجل ذلك .

وكانت نفرتيتى ، وهى تقترب من تلك المدينة ، عن طريق النيل، تشعر بفخر شديد. فلقد كانت أول من فكر فى إقامة مثل هذه المدينة الفخمة الرائعة .

نزل الفرعون والملكة على ضفة النيل ، وسارع نحوهما مدير المشروع ؛ من أجل تقديم التحية للفرعون . وهنا ، قال له أخناتون :

- « باخ » ، على ما يبدو أنك أبدعت تحفة رائعة » .

وسارعت الملكة من أجل رؤية ساحة آتون وتفقُّدها .

بعد ذلك انحنى مدير الأعمال « باك » أمام الملكين ، واقترح عليهما أن يقوم بإرشادهما فى أجواء هذا المكان .

وبدأ الزوجان الملكيان يجوبان الشارع الرئيسى الموازى لنهر النيل والذى اصطفت على جانبيه أكثر الصروح أهمية وضخامة بالمدينة . وهكذا كان من الممكن رؤيتها من ناحية النهر . وبالناحية الجنوبية يشاهد القصر الصغير الخاص بآتون ، بجوار بركة صناعية خاصة . وكانت نفرتيتى تنظر بإعجاب شديد ، إلى المساكن الراقية التى شيدت على جانبى الطريق . وقال « باخ » موجها كلامه إليها :

- « هذه المساكن لم يقطنها أحد بعد . ولكن ، لا شك أنها سوف تكون آهلة بالسكان مثل الملحقات الخاصة بمعبد آتون » .

وقام مدير العمال بعبور مساحة مترامية الأطراف ، ثم توقف أمام قاعة رائعة فسيحة المدى . وهنا قالت الملكة :

- « هذه هى ، كما تصورتها ، قاعة اجتماعات الفرعون » .

- « هذا هو عين الواقع أيا حبيبة آتون ، وملكة القطرين » .

وتابع الزوجان طريقهما . وبدت نفرتيتى وقد غمرتها السعادة . أما أخناتون ، فبدا وكأنه غائب عن الواقع . وكل ما كان يفعله ، كلما وجهت إليه مليكته الصغيرة الجميلة كلامها هو أن يهز رأسه موافقا .

ومر ثلاثتهم أسفل أحد الكبارى ما بين المساكن الملكية وبقية قاعات القصر . وكانت جموع المصريين قد تجمعت هناك منذ وقت مبكر ، وأخذوا يطلقون هتافات مدوية بحياة نفرتيتى . أما هى فقد كانت تلوح لهم بذراعيها ، ردا على تحيتهم . وقال « باخ » :

– « يتضمن هذا الجسر شرفة خاصة تستطيعون التجلى من خلالها ، فى أى وقت تشاءون ، من أجل توزيع الهبات أو تحية أفراد الشعب » .

فردت عليه نفرتيتى قائلة :

– « إنها لفكرة حسنة للغاية » .

وأخيرا ، استقل الفرعون عربته ، وجلس بجوار الملكة ، التى بدت شغوفاً للغاية لزيارة قصرهما الخاص الجديد . وسرعان ما وصلا إلى حديقة مترامية الأطراف . وتوقفت عربتهما فى وسطها . وأسرع نحوهما بعض الخدم ؛ من أجل مساعدتهما على النزول منها . وقال لهما « باخ » :

– سوف يقومون برعاية جيادكم . لقد نظم كل شىء فى هذا المكان . وها هو هناك المجال الخاص بالمؤن والمأكولات والأوانى والجرار . وعلى مقربة يوجد الهيكل» .

وقام الزوجان بعبور أحد الصروح . ومن خلاله ، دخلا إلى ساحة أخرى . ثم قاما بعبور صرحٍ ثانٍ . وهنا ، صاحت نفرتيتى فى سرور بالغ :

– « المعبد !! » .

وبدا المعبد محاطاً بالعديد من الأشجار . وللمرة الأولى ، منذ بداية الرحلة ، بدأ الفرعون وكأنه مأخوذ بسحر هذا الموقع وجماله . وهنا ، قالت له نفرتيتى وهى تحتضنه فى حب وحنان :

– « لقد تأكدت أن الابتسامة سوف تداعب شفتيك اليوم » .

ثم قام الزوجان ثانياً بعبور إحدى ساحات القصر ، ودخلا إلى ممر يؤدى إلى قاعة معمدة . وبعد المرور بساحة أخرى ، وصلا أخيراً إلى حجرة نومهما .

وارتسمت علامات الدهشة على وجه الفرعون ، وهو يرى سريراً ضخماً واسع الأرجاء يتوسط الحجرة . وهنا ، قالت له نفرتيتى فى ابتسامة ساحرة :

- « ها هى مفاجأتى الكبرى . وحقيقة أن أغلبية الأزواج ينامون فى حجرات منفصلة ، ولكن ، علينا نحن الاثنين أن نحتفظ بعادتنا السابقة » .

ورفع أخناتون ناظرية شاخصا نحو سقف الحجرة ، ولم يبد عليه أى رد فعل لما قالته له زوجته . عندئذ قال « باخ » وهو يشعر ببعض الحرج :

- « إن حجرات نوم الأميرات الصغيرات تقع على مقربة من هنا » .

وأخذت نفرتيتى ، تتأمل فى إعجاب شديد ، الأرضيات والجدران المكسوة بمشاهد طبيعية مبهجة ، وفقاً لما يفضله أخناتون . ففى كل مكان ، كانت تتراءى مناظر الطيور والأسماك التى تشع مرحاً وسروراً . أما قمم الأعمدة ، فكانت مغطاة برقائق الذهب .

ولكن ، ها هو أخناتون يبدى هذه الملاحظة فى أسف واضح :

- « هذا القصر يبدو أقل فخامة وأبهة من قصرى بطيبة » .

وأجابته نفرتيتى :

- « ولكنه أكثر جاذبية وسحراً » .

وفى نهاية الرحلة ، قام الزوجان الملكيان بزيارة معبد آتون ، حيث كانت قد شيدت العديد من القاعات من أجل عبادة هذا الإله .

ودخلت نفرتيتى إلى القاعة المعمدة ، ثم عبرت بعض الصروح ، ومن بعدها بعض الساحات ؛ ولم تنس بالقطع قاعات تقديم القرابين التى تحيط بالقاعة المعمدة .

ويبدو أن الفرعون قد رفض أن يتبعها فى تجوالها هذا . وبذا ، فقد توجهت بمفردها نحو قاعة القرابين ، ثم إلى فناء آخر ، حيث كانت تنتصب ، فى علياء وشمم ، أربعة تماثيل لأخناتون . وعلى مقربة من هذا المكان ، كان يقع المكان الذى يستقبل الملكان به قبائل الشعوب الحليفة لمصر .

وعلى مقربة من مكان الخروج ، تراءى طريق مستطيل الشكل يصطف على جانبيه العديد من « القصور الصغيرة » الأنيقة المظهر المأهولة بسكانها . فهاهنا ، كان يقطن كبار موظفى القصر . والبعض منهم كان قد تولى مهام منصبه بالفعل فى مدينة أخيتاتون . ومنهم : قائد القوات العسكرية « رعموزا » والكاهن الأعظم « بوه » ، والوزير « نيت » . وبدأ جميع هؤلاء وهم يتقدمون مسرعين ؛ من أجل استقبال الفرعون ومليكته .

وهنا ، أخذ الوزير يبدى اعتذاره الشديد للفرعون ، لأنه لم يهب لاستقباله عند نزوله إلى الميناء ، قائلاً :

– « لقد كنت أعتقد أنكم قادمون غداً » .

فأجابت نفرتيتى وهى مبتهجة :

– « فعلاً . فإننا لم نقم بالرحلة بأكملها عن طريق النهر فقط . فقبل أن نستقل السفينة ، كنا قد قطعنا مسافة كبيرة من الوادى بعربتنا !

ان الفرعون يتألق روعة ومهارة وهو يقود عربته ! » .

* * *

- ٤ -

رويداً رويداً ، بدأت أخيتاتون تنمو وتتسع . واندفع إليها العديد من السكان .

ففى الناحية الشمالية من المدينة تجمع الكثير من الصناع ، وتجار النبيذ ، والحرفيين ، والعمال الذين يقومون بنقل المنتجات التى كانت تشحنها السفن إلى هذا المكان على ضفاف النيل لتوزيعها على المحال المتعددة . وكانت هذه الفئات تقطن بأماكن شعبية إلى حد ما ، تختلف كثيراً عما بدأ عليه قصر نفرتيتى من أبهة وروعة وفخامة .

وكانت الملكة ترى ، فى سعادة غامرة مدينتها المفضلة وهى تكتظ بالسكان . بل كان يغمرها السرور وهى تلاحظ نمو وتطور أوجه النشاط المختلفة فى أرجائها . وكانت تقضى معظم أوقاتها بجوار البحيرة القريبة من قاعة العرش . أما أخناتون ، فكان يسعده كثيراً أن يتأمل عن قرب الحيوانات المنطلقة بكل حريتها بالحديقة المترامية الأطراف .

كان الفرعون يمضى معظم وقته بجوار أحواض الأسماك وبيوت الطيور النادرة . لم يكن يمل مطلقاً من تأمل الحيوانات ومراقبتها بداخلها . وأحياناً ، كان ينطلق بعربته ناحية الجنوب . وعند ضفاف النيل ، كان يستقل إحدى المراكب الخفيفة ليجوب بها أنحاء البحيرة الصناعية القائمة هناك . وعندئذ ، كان يتأمل ، وهو مستغرق فيما يشبه السبات ، الأشجار اليانعة والأيكات الفائقة الاخضرار .

على مدار اليوم بأكمله ، كانت مدينة أخيتاتون تضج بأصوات الآلات والأجهزة فوق الجدران الصخرية . فعلى ما يبدو ، أن الجميع كانوا يريدون تشييد مقابرهم بهذا المكان . وبدا واضحا أن مقبرة أخناتون ونفرتيتى كانت الأكثر تكلفة وفخامة ، تليها فى ذلك مقبرة المستشار « آى » . ولا شك أن نفرتيتى كانت تستريح كثيرا إلى مشورة « آى » وآرائه ، خلال الوقت الذى كان زوجها ينفرد بنفسه ناحية بحيرة الجنوب .

كان « آى » هو رجل المهام الصعبة والمستشار فى كافة الأمور المهمة وغالبا ، كان يصاحب الفرعون والملكة خلال الاجتماعات العامة الكبرى . وأحيانا يقوم بمهمة تلقى تعازى كبار موظفى الدولة . وأحيانا أخرى يستقبل سفراء الدول الأجنبية ، أو يحضر بعض المراسم الدينية التى يقيمها الكهنة . بل هو يحضر أيضا أثناء تمشيط جياد أخناتون . وأيضا ، يكون متواجداً خلال وصول الأغذية والمؤن التى تُورَّد إلى القصر لمراقبة عمليات تسلمها .

والجدير بالذكر ، أن « آى » ، منذ وفاة أمنحتب الثالث كان يشغل أيضا العديد من المهام المهمة . ولكنه بعد ذلك ، قد ازداد تثبيتا فى وظائفه هذه . بل واكتسب مناصب أخرى جديدة . فهو على سبيل المثال ، المسئول الأعلى عن جياد الفرعون ، ومدير إدارة العربات الملكية . بل لقد أضيفت مسؤوليات أخرى لوظائفه تلك ؛ لا تقل عنها خطورة أو أهمية . فقد شغل ، على سبيل المثال وظيفة الكاتب الخاص لأخناتون .

حقيقة أن نفرتيتى كانت تقدر « آى » حق قدره ، ولكنها ، فى بعض الأحيان كانت تتعارض معه بشدة . بل كانت ترى أنه يعطى أهمية قصوى لنفسه . أما أخناتون ، فكان يقف دائما فى جانب مستشاره الخاص . بل غالباً ما كان يجيب الملكة على بعض اعتراضاتها بقوله :

- « إنه طيب الخلق ، عملى للغاية ! ... إنه لم يبد أى مشاعر للغيرة من أى إنسان . إنه يسارع إلى تلبية أوامرى وأوامرك . بل هو يخضع لمبادىء العدل والقانون » .

ولكن الملكة كانت تتمتع بفطنة وقوة حدس . وبالتالى ، وعلى عكس زوجها ، بدأت تشعر أن «آى» ينهج نمطاً معيناً من السياسة الدقيقة التى لا تخلو من بعض النوايا . وبذا فقد بدأت تحذر من نعومة ملمس تصرفات « آى » وسلوكه . فقد لاحظت أنه ودود وخدوم أكثر من اللازم . وبالتالى ، بدأت الملكة تولى اهتمامها ، شيئا فشيئاً لأحد كبار موظفى القصر الذى يضارع « آى » فى قوة نفوذه . وكان يدعى « مرى رع » . وهو المسئول الأعلى عن الخزانة الملكية ، ورئيس حريم نفرتيتى ؛ وهو أيضا كبير كهنة وكتبة آتون . وهذه الوظيفة الأخيرة بصفة خاصة كانت تعتبر وقتئذ من أعلى المناصب شأناً ، حيث كان الإله آتون يتربع فوق أعلى القمم .

ولا شك مطلقا أن أحد العناصر المهمة التى كانت تقرب دائما بين نفرتيتى وأخناتون ، هو شغفها وحبها للفن والطبيعة . وبذا ، كان الاثنان يتوجهان ، بانتظام إلى الورشة الفنية الخاصة بالمثال « باخ » ؛ خاصة عند رجوعه من بعض رحلاته حاملا معه بعض المواد النادرة القيمة . ووقتئذ ، كان باخ يعمل فى تنفيذ تمثالين للفرعون والملكة . وكان من المزمع وضع هذين التمثالين عند مدخل القصر الملكى . وبذا ، فغالباً ما كان يلتمس من الملكة والفرعون الحضور إلى ورشته الفنية ؛ من أجل إطلاعهما على مراحل عمله فى هذين التمثالين .

وكان الفرعون ونفرتيتي يسرعان إلى « باخ » وقد غمرهما السرور . فقد كانا شغوفين لرؤية هاتين الرائعتين . وكان « باخ » يقول لهما فى حماس شديد :

– « إن واجهة القصر فى حاجة إلى المزيد من التألق والجمال الذى سوف يضفيه عليها هذان التمثالان النادران اللذان نحتا من أفخر الأحجار وأجودها » .

وبالرغم من أن « باخ » كان يميل قليلا إلى البدانة ، فإنه كان فائق الهمة والنشاط . وكان يبدو وهو ينحت الأحجار فى حماس بالغ ، وقد تصبب عرقًا إنه مولع بعمله إلى أقصى مدى . ولذا لم يكن يخلد أبدا إلى الراحة .

ها هما وجها الزوجين الملكيين قد بدأت تتضح معالمهما فوق الحجر الأصم . وأخذت نفرتيتي تشيد بسمات العظمة والوقار التى استطاع المثال « باخ » أن يجْعَلهما تتراءى ، بكل وضوح من خلال ملامحهما . أما أخناتون ، فقد أعجبته كثيرا الدقة المتناهية فى تحديد الحاجبين والأنف بوجهى هذين التمثالين .

ثم غادر الزوجان الملكيان المكان ، بعد ذلك ، إلى نحات آخر لا يقل أهمية وكفاءة عن « باخ » . إنه الفنان القدير تحتمس الذى فاق فى مقدرته وتفوقه جميع فنانى طيبة ونحاتيها . وقال له الفرعون :

– يقول " باخ " إنه فى حاجة إلى تعاونك معه فى العمل . لقد أجاد ، إلى أقصى مدى فى إضفاء الواقعية الفائقة على تماثيلنا ! فإننى ، بالفعل ، لا أريد أن أبدو ، من خلال تماثيلى فى هيئة إله ، بل أريد أن أبدو كما أنا بالضبط ! ولا شك أن نظراتنا تعبر عن بعض المشاعر والأحاسيس . ولذا ، فإننى أريدك أنت أيضا أن تنحت لى تماثيل برفقة الملكة وبناتى عندما يتقافزن فوق ركبتى خلال اجتماعاتى ومقابلاتى العامة . وأيضا ، عندما تقوم نفرتيتي بمعانقتى وتقبيلى أثناء تنزهنا معا ؛ أو أثناء انطلاقنا بعربتنا عبر الوادى . فإننى معجب للغاية بهذه المشاهد النقية المتناغمة ! » .

وهنا ، وجه تحتمس نظراته الثاقبة المشعة ذكاء نحو الفرعون للحظات قليلة . بعد ذلك ، توجه لإحضار أحد الأوانى ووضعه عند قدمى أخناتون . ولم يبد، خلال كل ذلك ، أية إشارة لتوضيح ما يفعله . بل قال فقط موجها كلامه للفرعون :

– « إنك تثق فىَّ ، وأنا أشكرك على ذلك ، أيا حبيب الإله . وسوف يقوم مساعدى بمعاونتك على التمدد . فإن لدى فكرة جديدة لا شك أنها سوف تروق لك » .

وانتابت نفرتيتى دهشة بالغة . ومع ذلك ، فقد تمددت قبل زوجها ، فوق سرير مغطى بملاءة من الكتان . وأخذ النحات يمسح وجهها وينظفه . ثم وضع فوقه طبقة من ورق البردى ، ومن بعدها عجينة سائلة سميكة إلى حد ما . وسرعان ما تجمد هذا الخليط فوق وجه الملكة . وهنا .. صاح تحتمس ، بزهو وفخر : « هكذا ... إنه قناع من الجص . وهكذا سوف يبدو وجه مليكتى ، من خلال تماثيلها ، متطابقا تماما بالواقع » .

وكاد أخناتون ألا يصدق ما تراه عيناه . فصاح فى حماس واضح :

– « هأنت قد وجدتها . لقد وجدت الوسيلة التى تتطابق تماما بالواقع » .

وأخذ النحات قناع نفرتيتى ، وبدأ يعيد رسم الحاجبين ، والعينين ، والشفتين بحافة آلة النحت .

فى هذه الليلة ، بصفة خاصة ، عندما دخل أخناتون ونفرتيتى إلى حجرتهما الخاصة ، وجدا أنهما قد عادا إلى ما كانا عليه فى سابق عهدهما . لقد شعرا بأنهما متقاربان ، بل وسعيدان إلى أقصى درجة ؛ وهكذا ، نسيا تماما ما يعانيه من مشاكل صحية . وقال أخناتون لزوجته وهو يحتضنها بين ذراعيه : « غدا سوف يكون يوما مشهودا . غدا سيكون عيد الشمس ، والعام الثانى عشر من حكمى لمصر . وسوف أعيش خلاله أزهى لحظات سعادتى » .

***

بعد فترة ما ، توفيت الأميرة «ماكت آتون» . ولقد حزن الفرعون لذلك حزنا بالغا . إنه سوف يزوج ابنته الكبرى من شخص يدعى « سمنخ كارع » ، كان من المقربين جدا منه . ويُعتقد أنه ابن إحدى محظيات الفرعون بالحريم الملكى .

وعارضت نفرتيتى فكرة هذا الزواج معارضة شديدة . ولكنها ، بالرغم من ذلك ، وجدت أن الضرورة تحتم عليها أن تذعن لرغبات الفرعون .

وبمرور الوقت ، زادت مظاهر التباعد بين أخناتون ونفرتيتى . وهكذا ، انفرد الفرعون بغرفة خاصة به بمفرده .

وشعرت نفرتيتى ببطء وحدتها القاتلة .. وساعدت شدة الخلاف بين الفرعون ونفرتيتى على انفراد كل منهما بحياته الخاصة وأصبح الجو السائد فى القصر الملكى غير محتمل .

وكان النحات تحتمس غالبا ما يحضر إلى جناح الملكة . وهناك ، كانا يتحاوران في مواضيع الفن وجوانبه ، أو يقوم تحتمس بعمل أقنعة متطابقة بوجه الملكة . وسرعان ما نشأت صداقة وطيدة بين الفنان وموديله . بل كان يجتاحه أحيانا شعور قوى بالشفقة والعطف تجاه الملكة . لقد كانت نفرتيتى تبدو وقتئذ وحيدة ومنفردة بالجزء الشمالى من القصر . وخلاف كل ذلك ، فها هى قد فقدت إلى الأبد ابنتها الصغيرة التى لم تكن تتعدى العاشرة من عمرها .

وسرعان ما زادت حدة الخلاف والانفصام فى العلاقة بين الزوجين . وبدأت صور « مريت آتون » تتعدد وتحل مكان أمها فوق جدران النصب والمنشآت . وفى أحد الأيام ، حضر إليها تحتمس وهو يجرى لاهثا ، لا يكاد يلتقط أنفاسه . وقال لها :

– « هناك بعض الخدم والعمال قد تلقوا الأمر بتحطيم تماثيلك بمعاولهم . . كيف ، بحق الإله يحطمون وجها بهذا الجمال ؟ ! . ولقد حلت أوصاف ابنتك الكبرى ووظائفها مكانك فوق خراطيشك . وتمت تغطية كافة المشاهد التى تمثلك بجوار الفرعون بطبقات من الجص والجير » .

وهنا أجابت نفرتيتى :

– « كل ذلك يثير الأسى والحزن . ولكن الضرورة تحتم أن نجد علاجا ، سريعا يا تحتمس . إننى أثق فيك كل الثقة . عليك أن تقوم ببناء قصر صغير شمال هذا القصر . أريد أن أبتعد بقدر الإمكان عن زوجى والمحيطين به » .

– « ولكن ، يا جلالة الملكة المعظمة ، يمكنك أن تذهبى إلى قصرك فى منف ، أو قصرك الملكى فى طيبة » .

– « يستحيل ذلك تماما .. فقد علمت أن سمنخ كارع يقوم بتشييد معبد من أجل آمون ، بطيبة نفسها .. إننى لن أغادر مدينة آتون . لا تعتقد أبدا أننى سوف أرضخ وأذعن لمثل هذا الوضع .

* * *

قالت نفرتيتى لابنتها :

– « عليك أن تتزوجى من توت عنخ آتون ، فأنت لا تكبرينه إلا بعامين اثنين فقط .

وكانت نفرتيتى ، تبغى من وراء ذلك أن تتمكن من السيطرة على حكم مصر بدون أية مشاكل أو اعتراضات . فالأمر لن يكون صعبا مطلقا ، مادام الجالسان فوق العرش سوف يكونان طفلين يافعين . ولكن سرعان ما تبينت أنها كانت واهمة تماما فى تخيلاتها هذه .. فإن «أى» المستشار الملكى الذى كان يساندها ويعضدها فى البداية، أخذ يساند الشاب الصغير " توت عنخ آتون " . بل إن نفس الشاب كان يخضع لتأثير قوى من جانب القائد " حور محب " .

وكانت نفرتيتى تعرف جيدا أن الاثنين كانا من عبدة الإله آمون . وبذا ، فقد كانا يشجعان الشاب اليافع على إعادة عبادة هذا الإله من جديد .

وأخذ الشاب الصغير توت عنخ آتون زوجته الصغيرة (التى لم تكن ترفض له أى طلب) ، ليعيشا معا فى منف . وفى منف ، بدأ القائد حورمحب يشجعه على إعادة بناء المعابد والنصب من أجل الإله آمون . وأصبح الذهب يُغدَق عليها بكميات فائقة . وعمل الفرعون الشاب على بناء العديد من المراكب الجديدة من أجل الإله آمون والإله بتاح .

وأمر بإعادة تنظيم المعابد القائمة وإصلاحها وإقامة الكثير من التماثيل وافتتاح بعض المعابد من أجل تخريج الكهنة وتأهليهم .

واستبدل توت عنخ آتون باسمه ، اسم توت عنخ آمون ، خلال العام الثالث من حكمه .

ورجع هو وزوجته الشابة للإقامة بقصر أمنحتب الثالث بطيبة . وأخذ جميع المصريين يتبعونه فى اتجاهه . وهاجروا من مدينة أخيتاتون ، التى أصبحت غير مأهولة بالسكان . فلم تبق بها سوى نفرتيتى ، التى انحسرت عنها مظاهر التألق والروعة السابقة . ومع ذلك فقد رفضت الملكة تماما الذهاب إلى طيبة للإقامة بها . فماذا عساها سوف تفعل هناك ؟! .. إن مدينتها الفعلية هى أخيتاتون .

ولم يبق على ولائه لها سوى الفنان النحات تحتمس . أما بقية المصريين جميعا ، فقد خضعوا تماما ، أمام سفير الملوك ، الكاتب الأعلى والمستشار الرفيع الشأن : حورمحب .

وخاصة أن حورمحب هذا كان يرأس قوات عسكرية هائلة ، لن تتوانى مطلقا عن تثبيت نفوذ قائدها وسلطته بأنحاء مصر .

لقد توفيت نفرتيتي في عامها الثامن والثلاثين . وعاشت آخر أيامها وهي وحيدة . والجدير بالذكر ، أن كل ما شيدته هذه الملكة من نصب ومنشآت ومعابد قد دمر وهدم ، بعد ذلك بعدة سنوات . وهكذا ، ولت الأيام ، التي كان يتراءى خلالها الفرعون الشاب الوسيم ، وهو ينطلق بعربة الاحتفالات بأقصى سرعتها ، وقد احتضن في حب وحنان دافق مليكته الفاتنة الساحرة الجمال ؛ وقد غابا معا في قبلة حارة ، وقد دثرتهما سحابة من الغبار التي تخللتها أشعة شمس آتون الذهبية .

وبعد وفاة توت عنخ آمون ارتقى « آي » عرش مصر . ولم يبق « آي » فوق العرش إلا أربع سنوات فقط . وربما أن « آي » قد تزوج من ثالث بنات نفرتيتي ، وأنهما قد حكما مصر معا .

أما حورمحب ، فقد عمل بكل همة وحماس من أجل تدمير ومحو كافة النصب والمعابد والمنشآت التي كانت قد كرست من أجل الإله آتون .

وعمل حورمحب أيضا على أن يمحو من الوجود، المعبد الخاص بآتون في الكرنك. ومن أجل بناء وتشييد النصب والمنشآت المكرسة لآمون ، استعان بمواد البناء المتبقية من أطلال مدينة أخيتاتون ، بعد أن تحولت إلى منطقة يسودها الدمار والخراب .

ولقد تزوج حورمحب من إحدى أخوات نفرتيتي وتُدعى « موت نجمت » ، واعتلى هو أيضا ، عرش مصر خلال ثلاثين عامًا كاملة ... ومارس حكمه لها بقوة شكيمة وشدة بأس متناهية .

وحتى تكفل نفرتيتي الأمن والأمان لحياتها بالعالم الآخر ، كانت قد أوصت بأن يدفن جثمانها بمكان سري مازال يكتنفه ، مثلها كل الغموض والإبهام .

***

رمسيس الثانى
و
نفرتارى

كان الجو قائظا بدرجة لا تحتمل فى « أواريس » ، وهى مدينة صغيرة بشمال مصر . وعلى مقربة من « أورايس » يقع قصر الفرعون سيتى الأول ، والد رمسيس الثانى الذى كان قد أسلم الروح منذ فترة وجيزة .

وبعد مرور بضعة أيام سرعان ما اعتلى العرش ، رمسيس الثانى ولى العهد . إنه الآن ، الملك الصقر ، حورس الذهبى ، ملك مصر العليا والسفلى ابن رع ومحبوب آمون . ها هو قد ناهز الخامسة والعشرين من عمره ، ويمسك بمقاليد دولة كبيرة وواسعة الثراء . وقد قام بمراسم تكريم أبيه المتوفى ؛ ثم أبحر إلى وادى الملوك بمصاحبة أسرته وفقا لما تقتضيه الطقوس السائدة . وقد صاحبه الكهنة ، وكذلك زوجتاه ، نفرتارى زوجته الأولى إيزيس نفرة ، زوجته الثانية .

لقد كان رمسيس الثانى يكن لنفرتارى عاطفة قوية وعميقة لم تتبدل ولم تخف حدتها منذ أن تزوجها . كان شغوفًا بها وبوجودها إلى جواره فى كافة الأمكنة والمناسبات الكبرى . ولا شك أن مراسم دفن أبيه كانت بمثابة إحدى هذه المناسبات . ولكن حالما استقر سيتى الأول بمقبرته بوادى الملوك ، لم يفكر الفرعون إلا فى الاحتفال بأعياد « الأوبت » الرائعة من أجل الإله آمون .

وفى إحدى أجنحة قصره المعروف باسم " قصر الصيف " « بأواريس » ، وكان يسعى دائما فى توسيعه ، كما أطلق عليه اسم « بى – رمسيس المنتصر » ، جلس يتحدث مع نفرتارى عن مشاريعه المقبلة . وقال لها :

سوف تنساب مركب آمون الذهبية فوق مياه النيل ، كالمعتاد من الكرنك إلى الأقصر . أريد أن يستمر عيد « الأوبت » فترة لا تقل عن شهر كامل .

– " وسوف أعين كبير كهنة الإله آمون الجديد مكان « نينترو » القدير ، وفقا للإرادة الإلهية . وسوف تحضرين هذه الاحتفالات، وسأمنح بعض المكافآت والترقيات ،

وسوف أقوم بتشجيع الرجال اللامعين على الاستمرار فى أداء مهامهم بحماس .... مثل الوزير « باسر » ونائب الملك فى النوبة ، و« إيونى » . ولدى أيضا ، بعض مشاريع البناء والتشييد التى ، سوف أكلف بها « إيونى » . وسأطلب منه القيام بتوسيع قاعة معبد الكرنك الكبرى ؛ وأن يقوم بزخرفة المعبد الجنازى الخاص بسيتى الأول . وأن يضيف صرحا جديدا وفناء آخر ، ومسلات وبعض التماثيل ، إلى معبد الأقصر . وسوف أطلب منه خاصة ، أن يبدأ فى بناء معبدى .

وسأقوم بنفسى بإقامة بعض المراسم ، أبين خلالها ، المكان الذى سوف يشيد به هذا المعبد .

- « هل عساك ستشرقين بتألقك على هذا العيد « أوبت ؟ » .

كانت نفرتارى فائقة الجمال والفتنة . ونظرت إليه بعينيها الواسعتين المكحلتين .

وكان الفرعون يحلو له كثيرا زيارتها فى حجرتها الخاصة هذه المعبقة بروائح البخور العطرى الذى كان يسلب لبه ، ويسحره جمال وفتنه هذه المرأة المصرية . كانت أرضية الحجرة مغطاه برسوم تمثل بعض المناظر الطبيعية البحرية ، أما جدرانها ، فقد نقشت فوقها بعض مشاهد النباتات والزهور الفائقة الرقة والنعومة . وحول أعمدة الحجرة ، التفت غصون النباتات المتسلقة البديعة الألوان .

كانت نفرتارى تجلس فوق مقعد ذى مسندين مرتفع الظهر تحليه أشكال تمثل قبضات أسد . وتزينه رسوم لأبى الهول وبعض الحيوانات الأسطورية المذهبة أو المصنوعة من الأحجار الكريمة . ومدت نفرتارى يدها إلى الفرعون وطلبت من الخادمة التى كانت منهكة فى ترتيب ملابسها بداخل أحد الدواليب الخشبية أن تغادر الغرفة . وبعد ذلك ، بدأت تتناهى من وراء باب حجرتها ، للحظات قصيرة ، أصوات فتح وقفل بعض الصناديق التى تحتوى على أدوات التجميل ، والباروكات وأمشاط الشعر . وأسرعت الخادمة ، بوضع مرآة صغيرة فى مكانها ، وقدمت قارورة عطر لسيدتها .

وحالما خرجت الخادمة وأقفلت الباب وراءها ، قامت نفرتارى من مقعدها ، وجلست أمام قيثارتها وأخذت تعزف عليها بعض الألحان الناعمة الحالمة . ولا شك أن الفرعون ، كان يعشق لحظات الهدوء والتأمل هذه ، خاصة عندما كان يفكر فى بعض المشاكل العويصة . كان يرى أن نفرتارى تتسم بتوقد الذهن ، والذكاء الشديد والدقة المتناهية فى آرائها وأحكامها . ولذا ، كان لا يتوانى ، فى أغلب الأحيان ، عن مناقشتها فى أخطر القرارات السياسية .

ولكنه ، فى هذه الأمسية بصفة خاصة ، كان سعيداً وشديد الوله ؛ ويفكر فى أمور أخرى غير السياسة . وتمدد الفرعون فوق السرير الفخم ، ذى الأرجل المزخرفة ، والذى رسمت فوق جانبيه مشاهد فائقة الدقة والجمال ، تمثل أعمال الصيد والقنص . ثم دعا نفرتارى إليه ...

اليوم ، هو الثامن عشر من ثانى أشهر الفيضان . وفى هذا الموعد تتراءى الشمس عند المغيب ، وهى تشع احمراراً فوق أفق الصحراء ، وكأنها ألوان ملائكية . وفى نفس هذا اليوم يقدم رمسيس القرابين للآلهة .

وفى اليوم التالى ، تتحرك مراكب الإله آمون وموت وخونسو من معبد الكرنك . ويرافقها فى موكبها ، العديد من الموسيقيين والراقصين . وبدت المركب الخاصة بآمون، المصنوعة من خشب الصنوبر المكسو برقائق الذهب وقد زخرفت بمناظر لكباش ذهبية ، وهى تسحب حتى الأقصر . وفوق جسرها ، كانت تُرَى مظلة رائعة مصنوعة من الذهب والأحجار الكريمة ، متألقة تحت أشعة الشمس الساطعة . أما شراعها ، فهو مربع الشكل ؛ ومجاديفها الستون قد طليت بألوان صارخة .

وعلى ضفاف النيل ، كان الشعب المصرى يهتف للإله وللفرعون . وأخذت الجعة تنهمر انهماراً .

ووصل الزوجان الملكيان إلى الأقصر . وهناك ، تجمع لاستقبالهما العديد من المغنين وهم يعزفون على آلاتهم الموسيقية . ومن خلفهم ظهرت فرقة من « الأكروبات » وهم يؤدون ألعابهم . ثم فى إثرهم ، جاء موكب من الكهنة . وكان الفرعون يتوقف بين وقت وآخر من أجل أن يتذوق بعض الحلوى التى تقدم له فى طريقه .

وفى نهاية المطاف ، تم وضع تماثيل كل من الآلهة « آمون » و « موت » و « خونسو » بمعبد الأقصر . وهناك كانوا يمكثون طوال واحد وعشرين يوماً . وخلال هذا الوقت ، كان الفرعون يجتمع بكبار الموظفين من أجل أن يناقش معهم القرارات الأخيرة التى كان قد اتخذها مؤخرا .

ويعتبر اليوم الثالث والعشرون من ثالث أشهر الفيضان بمثابة آخر أيام عيد « الأوبت » وعندئذ ، يتوجه الزوجان الملكيان إلى قصر بى – رمسيس . فعند بزوغ الفجر ، يبحر موكب المراكب فوق صفحة النيل ، وقد تعالت هتافات الشعب من كل

جانب . ولكن بعد مرور يوم كامل فى الإبحار ، حيث كان رمسيس الثانى ونفرتارى قد توقفا على مقربة من « أبيدوس » ، من أجل تكريم أوزيريس الذى يعبد فى نطاقها ، شابت علامات الامتعاض والضيق أسارير الفرعون .

لقد لاحظ الفرعون أن مقابر الملوك الأوائل تبدو فى حالة يرثى لها من الإهمال واللامبالاة ولذا ، أمر على الفور ، بتطبيق بعض الجزاءات والعقوبات . وقال فى ضيق واضح :

– « كيف ، بحق الإله ، تُترك نصب ومنشآت سيتى الأول على هذه الحال المزرية ؟! .. فإن الأعمدة لم تنصب بعد . وها هى تماثيل أبى قد تركت مهملة دون إكمالها ! .. فأين هم الكهنة ؟ .. وأين عساها القرابين ؟ .. إن أبى قد غادر الحياة الدنيا إلى العالم الآخر ، وسرعان ما أهملوا معبده وتركوه ليتحول إلى أطلال » .

حقيقة أن نفرتارى كانت تتفق معه فى كل ما يقوله ، ولكنها ، فى نفس الوقت كانت تحاول تهدئته . واستمع الفرعون لآرائها ووجهات نظرها ، ولكنه ، فى نفس الوقت قد سارع إلى استدعاء الأفراد المكلفين أساسا بالعناية بالمعبد ، وعبر لهم عن امتعاضه واستيائه وقال لهم :

– « إننى أريد أن يعيش أبى أبد الدهر ، بمكان لائق به ويعظمته . فليهب الجنود والعمال والفنانون إلى العمل بالمعبد لتشييد ما تحول منه إلى أطلال ويتحتم أن تكرس من أجله القرابين ! وليقم الآن أحد الكتبة بتسجيل كل ذلك كتابة ! » .

ثم أمر الفرعون باستدعاء « نب فيتيف » . ووقتئذ ، كانت نفرتارى تقف جانبا بجواره ؛ وقد غمرها شىء من السرور لما سوف يتم بشأن هذا الكاهن . وهنا ، تقدم الكاهن الأكبر التابع لأنوريس ولحتحور رية دندرة ، وهو يرتجف خوفا . وعندئذ ، قال له الفرعون :

– « لا تخف أبداً . من الآن فصاعداً ، قد عينتك الكاهن الأعظم لآمون . ووكلتك بمهمة إدارة أراضيه ومؤسساته . وسوف يخلفك ابنك فى هذه المهام الكبرى باعتباره كاهن الإلهة حتحور » .

– « ولقد شهد الإله رع بأننى قد اقترحت على آمون العديد من أسماء الكهنة المرشحين لشغل وظيفة " الكاهن الأعلى لآمون "؛ وكنت أنت المختار . إن آمون هو الذى اختارك . وبالتالى ، عليك القيام بخدمته كما اعتدت أن تفعل دائما . حاول أن تتفوق

على نفسك وسوف يسعدك ذلك ويسعده أيضا . هكذا ، سوف تبقى فى هذه الوظيفة حتى تصبح كهلاً » .

وخلاف ذلك ، قدم الفرعون له بعض المجوهرات الذهبية والعصا الخاصة بمدير أملاك آمون ، ومدير خزائنه ، وفلاحيه ، وعماله ، ومدير فنانى طيبة .

وسرعان ما علت هتافات الكهنة الآخرين محيين الكاهن الأعلى الجديد .

وعلى الفور ، قام مبعوث من جانب الفرعون ، بإعلام جميع المصريين بأن " نب فيتنيف " قد أصبح منذ الآن فصاعدا الكاهن الأعلى لآمون . وبالتالى ، يقوم بمهمة إدارة أملاك وموظفى هذا الإله .

وبعد رحيل «نبفيتيف» ، قام الفرعون رمسيس الثانى باستكمال طريقه، وعندئذ، قالت له نفرتارى :

– « هأنت قد هدأت » .

– « لقـد انتابتنى ثورة شديدة من حالة الإهمال الفائق الحد السائد فى معبد أبى . وأنا أقر بذلك » .

ثم همس فى أذن الملكة شاكرا لها وجودها المتألق الحميم إلى جواره ، قائلا لها :

– « إن جمالك وتألقك يدعم من شعبيتى . فالشعب يحبك » .

ولكنها صححت له عبارته ، قائلة :

– « بل الشعب يحبنا نحن الاثنين » .

بدا الفرعون ومليكته وهما جالسان تحت مظلة ذهبية على ظهر مركبهما الخاصة ، التى تهدهدها المياه نحو قصرهما . وهاهم الملاحون وهم يرخون شراعها المصنوع من الكتان المدعم بشرائط من الجلد . وأخذت المركب تنساب على صفحة النيل وفقاً لاتجاه التيار ، وبين وقت وآخر ، كان الملاحون يعملون على مضاعفة سرعة المركب ؛ من أجل إحداث نسمة رقيقة كانت تداعب شعر نفرتارى الأسود المسترسل الهفهاف . وبدت أشعة الشمس وهى تنعكس على صفحة النيل المتلألئة .

وقتئذ ، كان أفراد الشعب المصرى قد تجمعوا على ضفاف النهر . وأخذوا يهتفون باسم آمون ، واسم رمسيس الثانى ونفرتارى . وشيئاً فشيئاً ، أخذت تتراءى

حقول الفيوم الخصبة اليانعة الغنية بمزروعاتها الوافرة . ومرت المركب الملكية بجوار المحاجر البحرية الواقعة عند سواحل منف . ثم أصبحت على مقربة من القصر الذى تحيطه البساتين الفيحاء . ثم أكملت انسيابها فوق أمواج النهر الهادئة بمحاذاة المساكن الفاخرة الخاصة بالنبلاء وعلية القوم . وأخذ رمسيس الثانى وهو يتأمل كل ذلك ، يفكر فى أن قصره فى بى - رمسيس سوف يضاهى هذه الأماكن فى تألقها ونضارتها . بل إنه سوف يماثل فى تناسبه وانسجام مقاييسه ، قصره القائم فى منف . وبالإضافة لذلك ، فإنه سيشيد بنفس فخامة وعظمة قصره بطيبة ، الذى يقع فى مكان يفيض بالجلالة والهيبة ، حيث تحيط به الجبال التى تُخضب باللون الوردى عند مغيب الشمس . وقطعاً ، أنه سوف يزرع حوله العديد من كروم العنب ؛ من أجل إنتاج النبيذ بكميات وفيرة . وسوف يعمل أيضاً على أن تقام حوله برك مائية صناعية ؛ لتنمو على سطحها زهور اللوتس الجميلة . وسوف تشيد أبواب هذا القصر من الجرانيت وتكون دعائمها من الذهب الخالص ، وستحيط بالقصر بساتين مترامية الأطراف للنزهة وإضفاء البهجة والسرور . وستشيد حوله أيضاً بعض الممرات التى تصطف على جوانبها الأشجار والأيْك المزهرة ، وبعض الهياكل المصنوعة من الفضة .

جملة القول ، أن الفرعون يريد أن يكون القصر جديراً بنفرتارى وبجلالته . وهكذا كان الفرعون يفكر فيما سوف يكون عليه مقره الجديد . وفى هذه اللحظات كان أحد الشعراء ، يقف عند مقدمة المركب ، مترنما بهذه الأنشودة التى تقول : « عندما تختضن يدك يدى ، يفيض جسدى بمشاعر الرغبة » .

وبدون أن يلحظ أحد شيئا ، مد الفرعون يده ليحتضن يد زوجته الرقيقة الناعمة . معبرا لها عن غرامه بها .

* * *

كان رمسيس الثانى يفكر فى إعادة غزو المناطق الخاضعة لمصر فى الخارج . ولم تكن نفرتارى تألو جهداً فى تشجيعه على ذلك . ولكنها ، فى نفس الوقت ، كانت تخشى أن يحدث لزوجها ما لاتُحمد عقباه . وحقيقة أن الظروف والأحوال كانت مواتية له تماماً حتى هذا الحين ، ولكن ، ربما قد يصاب إصابة قاتلة فى إحدى معاركه التى يزمع القيام بها . ومع ذلك ، فقد عملت نفرتارى جاهدة على ألا تزعجه خلال فترة الاستعدادات والتأهب .

ومثلها مثل كافة المصريات ، كانت نفرتارى تولى احتراماً كبيراً لما يتخذه زوجها من قرارات . بل كانت تعرف جيداً الحدود التى يجب أن تتوقف عندها ولا تتدخل فى شئونه . لقد قرأت واستوعبت جيداً كتاب « الحكم » التى نظمها الحكيم أنى . بل وقرأت أيضاً نصوصاً عن « الحكم » أكثر قدما وعراقة مثل التى كتبها بتاج حتب . ولا شك أن الغرض الأساسى بالنسبة للرجل المصرى من الزواج ، هو إنجاب الأطفال .

ولقد استوعب رمسيس الثانى هذه الأمثال والمواعظ جيداً ، التى تنصح بأن يتخذ الشاب زوجة له وهو فى ريعان شبابه ، حتى لايرزق بأبنائه وهو فى سن الشيخوخة .

كانت نفرتارى تفيض بمشاعر الوفاء والإخلاص لزوجها . أولا ، لأنها تحبه حبا جما ، وأيضا لأنها تعرف مدى العقوبة الرادعة التى تصل إلى درجة الإعدام ، لمن يقترفن جريمة الخيانة الزوجية . ولكن بالنسبة لعائلة رمسيس الثانى هذه لم تكن الضرورة تستدعى مطلقا أى تهديد أو وعيد " بعقوبة التمساح " الرادعة الرهيبة أو بالطلاق . فالملكة لديها ما يكفيها من المبادئ السامية النبيلة ولا حاجة لها إلى كل ذلك . وكثيرا ما كانت تبدى امتعاضها واعتراضها لتلك العادات غير الأخلاقية التى كانت تسود فى مجالات العمال ، والكهنة بصفة خاصة . فالواحد منهم كان فى بعض الأحيان يخون أعز أصدقائه مع زوجته .

إن نفرتارى تريد ، عندما تذهب إلى العالم الآخر ، خلال جلسة اعترافات البراءة والطهر ، أن تثبت أنها طاهرة نقية . ولذا ، فهى تتبع ، فى دقة متناهية « حكم ونصائح» « عنخى شيشنقى » التى تقول :

« لا تحاولى إغراء رجل متزوج . ولا تحاول إغراء امرأة مازال زوجها فى قيد الحياة » .

ولم تلجأ نفرتارى مطلقا ، إلى تعاويذ السحرة وطلاسمهم من أجل جذب الفرعون نحوها وسحره . ومع ذلك ، فهى تعرف الكثيرات من النساء اللاتى يلجأن إلى « رحيق الحب » . فالفرعون كان يبادل نفرتارى الحب الجارف العميق . إن كل ما تأمله فى حياتها ألا تفترق أبدا عن زوجها . بل هى ترجو ألا يسأمها أبدا أو يملها حتى يحين اليوم الذى سيتوجهان فيه إلى عالم الأبدية والخلود . وغالباً ما كانت تحادث نفسها ، قائلة :

« إذا انتقل زوجى إلى العالم الآخر ، فلن يواسينى شىء فى الوجود كله » .

إن نفرتارى تتسم بالرقة والنعومة المتناهية . وهى تسدى لزوجها النصائح والآراء الطيبة . وعباراتها وألفاظها تفيض لطفا وودا . والجميع يبجلونها ويكنون لها مشاعر التقدير والاحترام . بل هى تتميز أيضا بنمط من الأناقة الرفيعة الراقية . وأخيرا ، فإن زوجها كان يشعر نحوها بجاذبية وعاطفة لا تقاوم .

حقيقة أن رمسيس الثانى قد لاقى بعض المصاعب فى معاركه ضد السوريين ؛ ولكنه ، بالرغم من ذلك ، وخلال غيابه عن بى – رمسيس ، كان يفكر دائما فى نفرتارى . وهو أيضا يشعر بفخر واعتزاز بابنيه « آمون – حروغف » الذى أنجبه من نفرتارى ؛ « وخع أم واست » وكان قد أنجبه من ايزيس نفرت . وقد صحبه الاثنان من قبل فى معركته ضد النوبيين . ولقد قرر الفرعون أن ينقش فوق جدران أحد معابده مشاهد ، تمثل اشتراك نجليه الاثنين ببعض المعارك الحربية .

جملة القول ، أن الفرعون كان حريصاً على أن يصطحب جميع أبنائه إلى المعارك الحربية ، حالما يصلون إلى السن التى تسمح لهم بحمل السلاح . ولذا ، فقد فكر فعلا فى أن يصطحب معه أصغر أبنائه ، بالرغم من أن نفرتارى كانت تميل كثيرا إلى استبقائهما بجوارها . ولذا ، فقد قال لها رمسيس لكى يطمئنها :

– « لا تخشى شيئا مطلقا . سوف أعمل على حمايتهما . وسوف يسند آمون ذراعيهما ليشد أزرهما . وسوف أعين بارع حروغف قائدا للجنود . وسوف يجد تحت قيادته عددا ضخما من الجنود ، كمثل أخيه غير الشقيق رمسيس . وسوف أصطحبه معى إلى « قادش » من أجل محاربة السوريين . وسأعينه بوظيفة « كبير المسئولين عن الجياد الملكية » . ولكن نفرتارى أجابت قائلة :

– « لا تأخذ معك أبناءك الصغار جدا . إن أبناءك الثلاثة عشر قد صاحبوك من قبل إلى سوريا . فلقد أثبت « أمون حرخبشف » جدارته بجوارك . ولكن ماذا يستطيع

أن يفعله مرنبتاح ، والصغيران "مرى آتون" و"ست حرخبشف" فى المعركة الحربية ؟!
.. لقد سبق أن فقدنا العديد من الأبناء وهم فى مقتبل العمر . فالأمراض والأوبئة لا ترحم المصريين . فلقد سبق أن اصطحبت معك الصغير خائماست وهو لم يتعد الرابعة من عمره من أجل أن تشركه معك بمعركة النوبة السفلى . وحقيقة أن إيزيس نفرت لم تجرؤ على معارضتك فى ذلك ، ولكن ، لا شك أنها كانت ترتجف هلعا وخوفا على ابنها الصغير . وأما عن كائيمفاست ، فهو يمقت الحروب ، وأنت تعرف ذلك جيدا . إنه يفضل المكوث فى حجرته والاهتمام بالقراءة والكتابة . إنه شغوف بمجالات الطقوس والشعائر ، والسحر والفن . إنه فنان بكل معنى الكلمة . بل هو أيضا لماح وفائق الذكاء . فدعه إذن يعمل على تنمية مواهبه الفنية . وأنا على يقين أن إيزيس نفرت لن تجرؤ أن تقول لك ذلك وهأنا أقوله لك مكانها وبدلا عنها » .

وفاض رمسيس الثانى إعجابا بكل هذه الطيبة والسماحة ، والتفهم والرقة التى تتسم بها نفرتارى .

وعندئذ ، أخذ يفكر فى التماثيل التى سوف تنصب وتجمل مقصورته ومقصورة زوجته عند حافة جبال إبشك ومحا [1] . وعلى ما يبدو ، أن أفكارهما كانت تتلاقى معا فى هذا الصدد .

وقبل أن ينطلق الفرعون إلى معاركه الجديدة ، أكد لزوجته الحبيبة ما كان قد أزمع القيام به من أجلها من قبل سوف يشركها معه فى كافة مناسبات التكريم المقبلة . بل لقد أصدر أوامره بأن تجاور تماثيل نفرتارى تماثيله الخاصة دائما ؛ حتى يستطيع جميع أفراد الشعب أن يتأملوهما ، وقد اجتمعا معا حتى أبد الدهر .

وبالفعل اصطحب الفرعون نفرتارى ، من أجل أن يريها الأعمال والأشغال التى كانت قد بدأت بالفعل . ففى نفس صخور الجبل ، تراءت الخطوط الأساسية لتمثال عملاق يمثل رمسيس الثانى جالسا . وبدا العمال وهم يعملون فى همة وحماس بالغ . وهم ينحتون الصخور بجسارة وقوة ، من أجل أن يشقوا عدداً من القاعات والأماكن بذلك الجرف الصخرى . وقال رمسيس الثانى للملكة :

– « ها هو المعبد الذى كرسته من أجل « آمون والشمس » ، ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك » .

---

(١) أبو سمبل .

ثم أخذ بيد نفرتارى وقادها إلى جرف صخرى آخر ، على مقربة من نفس هذا الموقع ، وهناك ، بدأت أعداد هائلة من العمال ، ومعظمهم من أسرى الحرب ، تقوم بالحفر والنحت فى همة بالغة ، ومن خلال خطوطها الأساسية ، انتصبت أيضا فى هذا المكان ، ستة تماثيل ضخمة . وكان أحداها يمثل نفرتارى واقفة بجوار الفرعون .

وتراءت أيضا بعض التماثيل الأقل حجما ممثلة لأبنائهما وشعرت الملكة بتأثر بالغ لما تراه فتوجهت بشكرها للفرعون . فأجابها :

- « إن هذا المعبد خاص بك أنت ، إنه يمجد الإلهة حتحور » .

وسارع المشرف الملكى المدعو " عشاحب سد " ، المسئول عن الأشغال والعمل فى هذا المكان نحو الفرعون لتحيته ، وليقدم له تقريرا وافيا عن الموقف ، وهنا ، أخذ الفرعون يهنئه ويشجعه ، قائلا :

- « لقد أثبت جدارتك فى وظيفة نائب الملك من بعد « إيونى » . إننى معجب بكفاءتك » .

ولكن نفرتارى لم تكن تستمع إلى كلمات التشجيع هذه . فقد كانت تمتع ناظريها بتلك التماثيل التى لم تكتمل بعد ، ولكنها تبين أنها سوف تصبح قريبا تماثيل عظيمة عملاقة ، كدليل واضح على أنها ستكون دائما مليكة رمسيس الثانى إلى الأبد . ولا شك أن الملك قد دأب دائما على أن يقدم لها أدلة متتالية على حبه الفائق لها . فها هو منذ فترة قصيرة قد أصدر أوامره ، بأن تشيد من أجلها ، لحياتها فى العالم الآخر مقبرة رائعة تتكون من عدة حجرات ، تزينها نقوش بارزة ورسوم رائعة الجمال . إذن ، فسوف تكون مقبرة نفرتارى هى أجمل وأروع مقابر وادى الملكات بطيبة .

* * *

فى تلك الفترة خاصة ، لم تكن زوجات رمسيس الثانى يرينه كثيرا . فقد كان ينطلق لخوض معارك حربية متتالية . وحقيقة ، إن الفرعون ، كان يحضر أحيانا إلى بى – رمسيس ولكنه سرعان ما يرحل ثانيا ، مصرا إصرارا قويا على تثبيت دعائم نفوذه وسطوته فى سوريا . وفى نهاية الأمر ، تمت « اتفاقية سلام قادش » لتنهى كافة النزاعات القائمة .

ولاشك أن استتباعات تلك الحروب كانت أليمة ، بل لا تحتمل . فقد فقدت نفرتارى خلالها ابنها الأكبر المدعو "أمون حرخبشف"، قبيل إبرام اتفاقية السلام ببضعة أشهر. كما توفى إخوته بريحرونمف ، وسيتى ، ومرى رع . ولم يتبق ، من أجل مواساة الملكة سوى الصغير مرى أتون . وهكذا أصبح سيتى حرخبشف وريثا للعرش . وخلع عليه أبوه وظيفة الكاهن الأعلى وكبير موظفى الشئون الخارجية .

وسرعان ما أُبرمت الاتفاقيات السلمية بين الحيثيين والمصريين . وبدأ «هاتوسيل» الثالث ورمسيس الثانى يتبادلان الهدايا . وينظمان الاحتفالات والأعياد فى قصورهما .

وكانت الملكة نفرتارى ، تتلقى من الملكة بودوخيبا زوجة « هاتوسيل » الثالث رسائل بديعة للسلام والتهنئة . وكانت نفرتارى تشجع كبير الوزراء أيضا على كتابة خطابات إلى ملك الحيثيين . وغالبا ما كانت تجلس بإحدى حجرات جناحها الخاص بقصر بى – رمسيس ، لتحرر بعض رسائلها فوق لوحات صغيرة من الفخار . بعد ذلك كانت تتوجه إلى الكاتب المختص بشئون المراسلات الخارجية ، ليقوم بترجمتها إلى اللغة المسمارية .

وبدأ الكاتب يتلو رسالتها :

تقول زوجة فرعون مصر الملكية المعظمة ، نفرتارى :

« إلى بودوخيبا ، ملكة الحيثيين المعظمة : صديقتى ، إن الأمور تسير على أحسن ما يرام بيننا وبين بلدينا . ولقد أسعدنى كثيرا اهتمامك بالاطمئنان علينا . ومن الآن فصاعدا يسود السلام والأخوة بين ملك مصر العظيم وملك الحيثيين العظيم .

فليمنحنا جميعا إلهنا رع وإله الرعود الذى تعبدونه كل السعادة والخير . وليَسُد السلام إلى الأبد ، وليعم الوئام دائما وأبدا بين الملكين العظيمين . وكل ما أرجوه وأتمناه هو أن تجمعنا دائما أواصر الصداقة والمحبة » .

حقيقة أن الكاتب قد وجد أسلوب الرسالة يتسم بالسذاجة ، ولكنه لم يقل ذلك صراحة للملكة نفرتارى . وربما أنه لم يرد إحراجها . ولكنه فى حقيقة الأمر ، وجد أن الرسالة سوف تكون أكثر تأثيرا وواقعية بمثل هذا الأسلوب الساذج المتحمس للغاية . ولذا ، قال للملكة :

ـ « إنها لرسالة مؤثرة جداً » .

– « أنت ترى ذلك ؟ » .

وقد حمل المراسل الخاص ، مع هذه الرسالة ، بعض المجوهرات والهدايا النفيسة انتقتها الملكة بنفسها . بالإضافة إلى بعض الملابس الثمينة المتعددة ألوانها ، كما أوحت الملكة الوالدة للفرعون بأن يحذو حذوها .

أما الملكة الأم تويا ، فقد بعثت هى أيضا ببضع رسائل إلى « بودخيبا » .

بدت نفرتارى حاليا ، وهى ما تزال محتفظة بجمالها ونضارتها السابقة ؛ أى عند زواج رمسيس الثانى بها . وعلى ما يبدو ، أن رمسيس الثانى كان شريكا فى الحكم مع أبيه عندما فكر فى تكوين أسرة والزواج من نفرتارى وإيزيس نفرت ؛ خاصة أنه كان يريد إنجاب العديد من الأبناء . ولا شك مطلقا أن رمسيس الثانى ، يحب النساء . بل ويميل إليهن كثيرا . وحقيقة أن نفرتارى كانت تكن له حبا جارفا وعاطفة متأججة وإعجاباً شديًا ، ولكنها ، بالرغم من ذلك ، لم تكن تبدى أية غيرة أو ضيق من اللاتى يرتبطن به خارج العلاقة الزوجية . فهى ترى ، بكل فخر واعتزاز ، أنها " الزوجة الملكية المعظمة " « الرسمية » ومثلها مثل إيزيس نفرت ، فقد أنجبت لزوجها الفرعون العديد من الأبناء الأعزاء ، بالرغم من أن الحريم الملكى كان يمتلىء بالصبية والبنات الصغيرات ، الذين أنجبهم الفرعنون من بعض محظياته .

وعلى ما يبدو ، أن سيتى الأول والد رمسيس الثانى ، قد رأى قبل وفاته ما لايقل عن خمسة عشر حفيدا أو اثنتى عشرة حفيداً من أبناء ابنه رمسيس الثانى . ولكن ، يبدو أن نفرتارى قد أنجبت أول أبناء رمسيس الثانى ويدعى أمون حروغف أى « المائل على يسار آمون » ؛ ومن بعده بفترة وجيزة ، أنجبت « ايزيس نفرت » ابنها الأول الذى أطلق عليه هو أيضا اسم رمسيس . ثم بعد ذلك ، أنجبت نفرتارى لزوجها الفرعون ابنا آخر سمى بارع حروغف . ثم أنجبت له « إيزيس نفرت » ابنا آخر ويعنى اسمه « الذى ظهر فى طيبة » ، وأيضا ابنة جميلة سميت « بنت عنات » وهى أولى بنات الفرعون .

لم يكن هناك ما يثير ضيق نفرتارى أو شكواها فالفرعون يغدق عليها دائما وأبدا من حبه وتكريمه وإعزازه . وهو يصطحبها معه فى كافة الاحتفالات الرسمية المهمة . بل لقد أمر ، بأن تمثل معه ، فى كثير من المناسبات ، من خلال الرسوم البارزة ، فوق جدران المعابد .

ولقد راسلتها ملكة الحيثيين لمرات عديدة ، ووجهت إليها بضع رسائل بخط يدها . ولكن ، على ما يبدو ، أن إيزيس نفرت كانت دائما فى منطقة الظل .

وكان الفرعون يستمع دائما إلى نصائح نفرتارى . بل لقد ذهبت الملكة ، فى يوم من الأيام إلى موقع معركة قادش ، وقت اندلاعها . ولم تكن تتوانى عن إسداء نصائحها سواء للفرعون أو لأبنائهما . بل هى تعرف جيدا أن الفرعون مغرم بجمالها وفتنتها . وأنه يفضلها عن جميع نسائه . وخلال لحظاتهما الحميمة معا ، كان الفرعون يسر إليها هامسا ، بأنه سوف يشيد لها أجمل مقصورة ملكية على الإطلاق ، وأنه لن يتوقف أبدا عن حبها والافتتان بها . ولو فرض أن أرغمته بعض الظروف والأحوال السياسية على التزوج من ابنة ملك الحيثيين ومنحها لقب « الزوجة الملكية المعظمة » ، فإنه سيظل دائما باقياً على حبها وغرامه بها . ثم يقول لها الفرعون أيضا فى وله وافتتان :

– « سوف أشيد من أجلك أروع النصب والمنشآت وسوف تعمل النقوش البارزة فوق جدرانها على إبراز تألقك الطبيعى . سوف تمثلين من خلال هذه النقوش وأنت ترتدين تاج النسر الذى يرمز للإله رع ، بالإضافة إلى إشارات وعلامات إيزيس سوتيس » .

وكذلك ، كانت نفرتاى تصاحب رمسيس الثانى خلال الاحتفالات والمناسبات الدينية . وخلالها ،كانت تستمع إلى تلك الكلمات الرقيقة الناعمة .وهو يهمس فى أذنها قائلاً :

– « فى يوم من الأيام ، سوف تؤلهين . لقد تبوأت أمى « تويا » ، وجدتى « سات رع » مكانة الزوجة الإلهية . وأنت الآن مسئولة عن « كاهنات الطقوس الفرعونية » ؛ ولكننى سوف أعمل أيضاً على ضمك إلى إطار ألوهيتى ؛ وأيضاً إلى إعادة مولد سلطتى ونفوذى الملكى الذى يجسده أول العام الجديد ، حيث ينهمر فيضان النيل .هذا الفيضان الذى ينتظره جميع المصريين ويعم بالرخاء والازدهار على محاصيلنا الزراعية ولقد وقع اختيارى على موقع جدير بك ، وجدير بمكانتى الملكية ، من أجل أن أشيد به

معبداً يضارع معبد أمنحتب الثالث و« تى » فى جماله وروعته . وسوف تنصب عند مدخله أربعة تماثيل عملاقة تستند بظهرها إلى حافة الجبل . وعلى مقربة من النيل ، فقد كرست من أجلك معبداً ، وأيضاً من أجل الربتين حتحور وساتت » .

– « وتبدو تماثيلك وقد أحاطت بها تماثيلى ، فإنني أريد أن أوفر حمايتى ورعايتى لك حتى فى العالم الآخر . وهناك ، سوف يتألق وجهك الجميل بشروق الشمس كل صباح فتعود إليه نضرة الحياة ؛ بفضل شعاع الشمس الأبيض الذهبى الذى يشع من كيان إله الشمس » .

عندئذ ، كانت نفرتارى ، تفيض بمشاعر الفخر والعظمة . وتخيلت نفسها وهى مرتدية أفخر ثيابها وأحاطت بها الربتان حتحور وإيزيس ، وهما تضعان فوق رأسها التاج الذى يرمز للإلهة سوتيس . ولاشك أنها سوف تحمل الصولجان وعلامة (عنخ) ، رمز الألوهية . لقد كانت نفرتارى على ثقة من أنها سوف تحظى بهذا الشرف والتكريم لمجرد أن الفرعون قد وعدها بذلك .

ووقتئذ ، كانت نفرتارى تبدى اهتماما كبيرا بالترحيب « بهاتوسيل » الثالث ، صديق مصر وحليفها الجديد . ولذا ، كانت تمضى الكثير من وقتها بجناحها الخاص ؛ وهناك ، كانت تتأمل مجوهراتها ، وتلقى نظرة على ما تتضمنه الصناديق الصغيرة المصنوعة من أخشاب النوبة ، أو من العاج ، أو من الزجاج المتعدد الألوان . وأخذت تستمتع برائحة العطور المعبأة فى زجاجات من المرمر على هيئة زهرة اللوتس ، أو البردى ، أو على شكل بعض الطيور أو الفاكهة .

وبعد أن تفقدت كل ذلك بدقة متناهية ، وقع اختيارها فى نهاية الأمر ، على زجاجة صغيرة مصنوعة من الزجاج الأزرق اللون ، على هيئة طاووس ، يتجمع فى عينيه اثنا عشر لونا متغايرا . واختارت أيضا مرآة مستطيلة الشكل ، لها يد من الخشب الأسود اللون ، يلتف حولها شكل على هيئة امرأة فاتنة القسمات . كما وقع اختيارها كذلك على علبة لأدوات الزينة فى هيئة امرأة على شكل بجعة ، تحتوى على كمية من المساحيق ذات الرائحة الخلابة ؛ كذلك بعض القلادات الرائعة الجمال المصنوعة من الأحجار الكريمة ، وبعض الصناديق الصغيرة المصنوعة من أخشاب السودان النادرة ، والتى تتميز بكثرة وتعدد أدراجها الصغيرة من أجل احتواء دبابيس الشعر الفاخرة ، وأيضا وقع اختيار الملكة نفرتارى على وعاء جميل يتميز بأيدٍ متعددة

وكأنها أفرع شجرة تتفتح مثل الزهرة ؛ من أجل احتواء العديد من مساحيق التجميل المختلفة التركيب والألوان .

وعندئذ ، أخذت نفرتارى تحدث نفسها قائلة :

– « لا شك مطلقا أن كل ذلك سوف يروق للملكة الحيثيين . وسوف أرسل هذه الهدايا مع هدايا الملكة الأم « تويا » التى أمرت بإحضار مجموعة من أجمل الأثواب النسائية من مصانع الفيوم » .

وعند المساء ، أخذ رمسيس الثانى يعبر عن شكره وامتنانه لمبادراتها الرقيقة هذه وقال لها .

– « إن الزوجة الإلهية ، أمى ، تبدو فخوراً ومعجبة بك . فإنك تعملين حقا على تدعيم وتقوية الروابط والعلاقات ، التى قامت بينى ، وبين صديقى ، ملك الحيثيين . ولاشك مطلقا أن هذا السلام السائد بيننا سوف يعود بالنفع على دولتينا » .

* * *

- ٣ -

فى هذة الفترة ، وجد رمسيس الثانى أنه لاضرورة مطلقا لشن أية حروب ولذا ، فقد ركز ، عندئذ ، جل اهتماماته فى تشييد النصب والمنشآت وتجهيز معبده . ولكن ، بعد انقضاء عدة أشهر على إبرام « معاهدة قادش للسلام » ، توفيت أمه « تويا » التى كانت قد ناهزت الستين من عمرها . وشعر رمسيس الثانى بشدة وطء فراقها . وأخذ يبدى اهتماما كبيرا بأعمال البناء فى معبد « أبو سمبل » ، وكان ذلك يعمل إلى حد ما على تخفيف حدة آلامه وأحزانه عليها ، بالرغم من أنه كان يشعر أنه قد خسر بفقدانها خسارة فادحة لايمكن أبدا أن تعوض .

وفى صباح يوم مشرق مضئ ، تألقت شمسه بأشعتها ، توجه الفرعون للقاء الملكة نفرتارى . وسار بدون أى حرس خاص أو مرافقين نحو قصر سيتى الأول الذى غطيت أرضياته بأشكال بديعة متعددة الألوان . وصعد درجات السلم وهو يكاد يطير فرحا . وعبر ممرا كبيرا يتضمن العديد من الأبواب التى نقشت عليها جميعا ألقابه وأسماؤه باللونين الأبيض والأزرق ، وتعلوها بعض المناظر المبينة عن معاركه الحربية الكبرى . وفى نهاية الأمر ، لم يعثر مطلقا على نفرتارى . وقد عرف من قبل أنها تعانى من بعض التعب والآلام .

ودخل الفرعون إلى حجرة الملكة الخاصة بالقصر ، التى كانت قد عملت بزخرفتها لها على إضفاء سمات البهجة والمرح فى أجوائها . فقد زينت جدرانها وكذلك أرضياتها بنقوش ورسوم طبيعية تعبر عن الربيع والأزهار والحب وبدت طيور الزينة الملونة وهى تتنقل فى جنباتها ، وتحط بخفة وبهجة فوق أكتاف نساء الحريم . وزينت جميع أركانها بالأحجار الكريمة .

وأخيرا ، وجد رمسيس الثانى نفرتارى جالسة بأحد الأركان ، وقد انكبت تماما على المطالعة فقال لها :

- « هاأنت أخيرا . أريد أن أتحدث معك . غدا ، أريد أن تتألق هذه المدينة بالاحتفالات . وسوف أعبر خلالها عن تكريمى للإله بتاح والإله رع . وسوف يرتدى سكان بى - رمسيس « المنتصرة » أجمل ثيابهم . وسوف يصففون شعورهم بأجمل التسريحات ويعطرونها بأحسن الزيوت العطرية . وسوف أستجيب إلى أمنياتهم

والتماساتهم ، وأنفذ أغلبيتها . فى نفس الحين ، سوف يطربنا المغنون بمنف بأغانيهم الرقيقة الحالمة . فأجابته نفرتارى :

« – تماما مثلما كان يحدث بأعياد كيهك » .

– « نعم مثل تلك الاستعدادات والتنظيمات الفخمة التى كنت تقومين بإعدادها دائماً ، قبيل وصولى عائدا من معاركى الحربية » .

– كان لزاما على أن أحتفل بانتصاراتك وأكرمك لشجاعتك » .

– « أريد أن تنتشر باقات الزهور بكافة الشوارع ! وأن توزعى مئات السلال المليئة بالفطائر والحلوى على أفراد الشعب . فليبدأ الطباخون العاملون فى بى – رمسيس عملهم على الفور . فليقوموا بخبز المئات والمئات من أرغفة الخبز ، والفطائر ، واللحوم الوفيرة ! فليقوموا بتجهيز العديد من السلال المليئة بثمار الرمان والعنب ، والتين ، والإوز والبط المحشو ، والأسماك ، وطيور القنائص ، واللوبيا والفاصوليا الخضراء ، والصلصات الدسمة الجيدة ! وليعمل المختصون على إخراج عربات الاحتفالات ! ولتجل الرماح وتلمع ! .. ولتزخرف جميع الأبنية والمنشآت . وأريد أيضا أن تزخرف المسلات التى تزين واجهة معبد رع بالنباتات الخضراء ! أما المقصورات المشيدة بالحجر الرملى ، والتماثيل الملكية ، واللوحات المصنوعة من الجرانيت التى تشير إلى عظمتى وإنجازاتى ، فإننى أريد أن تكسى بالزهور ، إننى أرغب فى أن أتحد بالإله رع الذى يعرف جيدا ما أفكر فيه ، ويعضدنى تماما . وكذلك ، أريد أن تغطى أوراق النباتات المتعددة الألوان صفحة نهر النيل ، والمياه فى أواريس والبحيرة الصناعية ! ... ولتتوقف كل أوجه النشاط بالميناء ، وليحضر الملاحون العاملون به القاطنون بجوار مخازنه إلى أبواب قصرى ! ... وسوف أستمع لمطالبهم مثلهم مثل الجميع » .

وكانت نفرتارى تشعر بسرور بالغ وهى تلاحظ نظرات زوجها المتوثبة وكأنه قد رجع إلى أيام طفولته . وسألته مندهشة :

– « وما الحدث الذى سيتم غدا وتقام من أجله كل هذه الاحتفالات ؟ لعلك تعلم أن الإعداد لمثل هذه الاحتفالات كان يحتم الاستعداد له مسبقا ؛ خاصة عندما كنت أعلم بقرب وصولك عائد إلى بى – رمسيس ! « فقال رمسيس الثانى ضاحكا :

– « لا شئ مطلقا يعصى على ملك مصر ! .. وسوف يكون غدا يوما مشهودا . فإننا سوف نذهب معا لزيارة معابدنا في النوبة » .

فأجابته نفرتارى ، بعد أن تركت المخطوط الذى كانت تطالعه ، لتقترب منه وتجلس بجانبه :

– « ولكن هذه ليست المرة الأولى التى تفعل فيها ذلك » .

– « لقد اكتمل تشييد المعابد . وسوف أقوم غدا بافتتاحها ! » .

– « ولماذا لم تحطنى علما بذلك ؟ » .

– « لأننى أردت أن يكون ذلك مفاجأة لك . ولقد أصدرت أوامرى إلى النحاتين ، لكى يضيفوا إلى تمثالك ، وتماثيل الملكة « تويا » ، وتماثيل أبنائنا وتماثيلى القائمة بالمعبد الصخرى ، تمثالا للأميرة « بنت عنات ».« فأجابته نفرتارى ، وهى تشعر بشئ من الغيرة ؛ خاصة أن رمسيس الثانى كان قد بدأ عندئذ يشعر بميل إلى النساء الأصغر منها سنا :

– « إنها ابنتى على أية حال .... بل ربما قد تصبح أكثر من ذلك لو إننى قد انتقلت و إيزيس نفرت إلى العالم الآخر » .

– « إنك تشرقين على حياتى بجمالك وتألقك . وأنا أبتهل إلى الآلهة ليدوم ذلك إلى الأبد » .

– « ولكنك تعلم أننى أشعر ببعض الإرهاق والضعف . وأن هذه الرحلة سوف تزيد حالتى سوءاً . بل ربما قد تقضى هذه الرحلة تماما على البقية الباقية من عافيتى » .

– « أرجوك ، لاتقولى ذلك فسوف تحاطين بكل العناية والرعاية . والطبيب لن يبتعد عنا مطلقا » .

– « لاجدوى من ذلك . فإننى أشعر بأننى أزداد ضعفا وهبوطا يوما بعد يوم . ومع ذلك ، فلن يمنعنى أى شئ من مرافقتك إلى النوبة » .

وفى اليوم التالى ، بدا كل شئ متطابقا مع رغبات الفرعون وأوامره . وسارع سكان بى – رمسيس ، منذ الصباح الباكر إلى أبواب القصر الملكى . لقد حضروا مع جميع أفراد عائلاتهم ، وأخذوا يهتفون للفرعون ويحيونه .

وأخذ الفرعون ينصت لالتماساتهم ويلبى أمنياتهم بقدر الإمكان . وكانت نفرتارى تقف بجواره ، وتشاركه الرأى والمشورة فى بعض الأحيان . ولكى يتمتع الزوجان بالجو الربيعى العليل السائد فى شهر فبراير هذا ، أبحرا بمركبهما نحو الجنوب . ورافقتهما فى هذه الرحلة ، إحدى بناتهما الأميرة « مريت آمون » ؛ وكذلك نائب الملك «حقا نحت» . وسارع العديد من الخدم إلى مراكبهم ، من أجل أن يتبعوا كبار الشخصيات العامة الذين حضروا هذه المناسبة الكبرى : افتتاح المعبد الخاص بالفرعون .

وبدت الرحلة طويلة وشاقة . وفى نهاية الأمر ، وصل الزوجان إلى « أبو سمبل » . وهنا شعرت نفرتارى بالارتياح . وقالت لزوجها :

– « كنت أعتقد أننى لن أستطيع الوصول أبدا » .

وهنا ، تبين للفرعون أن تصرفه قد اتسم بالأنانية ، وأنه لم يقدر مرض نفرتارى حق قدره . فلماذا عساها لم تكشف له عن حقيقة مرضها ؟ بل لماذا لم تقل له أنها غير قادرة على القيام بهذه الرحلة ؟ .. إنها كالمعتاد ، أرادت ألا تعصى له أمراً ، ولذا ذكرت له أنها تشعر بشئ من الإرهاق الطفيف . ولا شئ خلاف ذلك .

ها هما ، قد وصلا فى نهاية الأمر إلى معبد رمسيس الثانى . وبدت نفرتارى راقدة فوق محفة فاخرة محمولة وهى فى حالة إعياء شديد ، ولكنها بالرغم من ذلك صاحت فى بهجة ودهشة بالغة عندما وقعت عيناها على واجهة هذا المعبد .

فقد بدت هذه الواجهة مهيبة ، رائعة ، جليلة ، وكأن الآلهة أنفسها هى التى شيدتها . وهنا أخذ رمسيس الثانى بيد زوجته لمساعدتها على النزول من المركب . وبدا الفرعون مفعما بالحب والحنان والرعاية نحو زوجته نفرتارى . بعد ذلك ، رافق المهندس المعمارى المسئول عن الأعمال بهذا الموقع ، وهو يصطحب نفرتارى لتفقد مختلف الحجرات والقاعات . وفى نهاية الأمر ، وصلوا إلى مكان تماثيل رع ، وآمون ، وبتاح . وتراءت أشعة الشمس الشاحبة وهى تتسلل جاهدة إلى هذا المكان السفلى المظلم . وأسبغت بعضا من ضوئها الباهت على تلك التماثيل الإلهية ، التى بدت بغتة وكأن الحياة قد دبت فى أوصالها .

وعندئذ ، خر « حقا نحت » نائب الملك ساجدا أمام الملكة نفرتارى . فشكرته وأخذت تنصت إلى حديثه باهتمام واضح . وبدت نفرتارى وكأنها قد استعادت بعضا من صحتها وعافيتها . ولكن فجأة ، سرعان ما ازداد شحوب وجهها عما كان عليه من قبل . وفى هذا المكان شبه المظلم ، الذى تضيئه بضع شعلات ضئيلة تعكس ضوءها الواهى العليل على الجدران ، بدت الملكة نفرتارى وكأنها شبح على وشك الرحيل إلى العالم الآخر ، ولم تعد تستطيع البقاء لحضور المراسم اللانهائية . واعتذرت لرمسيس الثانى آسفة . وطلبت من خادمتها أن تساعدها على الوصول إلى مركبها ، حيث كان إطباؤها فى انتظارها . وسارع نائب الملك نحو نفرتارى من أجل اصطحابها إلى المركب . وفى ذات الحين ، كان رمسيس الثانى يستعد لتكريم الآلهة وتبجيلها . وهنا ، قالت له نفرتارى قبل ذهابها :

– « قم بواجبك . ولاتشغل بالك بى . سوف تحل ابنتنا فى مكانى بعد رحيلى » .

وهنا ، شمل الفرعون حزن وأسى رهيب . لقد كان يعتقد أن هذه الرحلة إلى النوبة سوف تعيد للملكة حيويتها وصحتها . وها هو يقف عاجزا لا يعرف ما يمكن أن يفعله من أجلها . وأخذ الفرعون يبتهل إلى الآلهة ، من أجل إنقاذ الملكة مما تعانيه من مرض . ولكن طوال الرحلة النيلية لعودتها إلى طيبة ثم إلى « أبو سمبل » ، بدا واضحا أن حالة زوجته الصحية لم يطرأ عليها أى تحسن بل إنه ، فى بعض الأحيان ، كان يلوم نفسه ، فهو الذى أعد لهذه الرحلة . وإنتابه قلق شديد . وأخذ يتساءل : « ترى ، هل ستستطيع الوصول ؟ » .

وقرر أن تتعدد محطات الاستراحة ، خلال رحلة العودة هذه ، من أجل أن يوفر للملكة المزيد من الراحة .

وخلال الأيام التالية ، بالرغم مما كان يبذله من جهد ومحاولات من أحل شفائها ، بدا واضحا أنه لم تعد هناك أية جدوى لإعادة الحيوية ورونقها إلى نفرتارى المريضة . وبدت الملكة وكأنها ضوء يخفت ويخبو رويدا رويدا . ومع ذلك ، فقد كانت تفيض حبا وعرفانا بالجميل وبفضل الفرعون . فكثيرا ما كانت توجه له شكرها وامتنانها ؛ لأنه عمل على إشراكها معه ، من خلال النقوش البارزة فوق جدران النصب والمنشآت ، والتماثيل التى سوف تخلد وتبقى على مدى الأجيال .

وفى يوم ما ، وبدون أن تستطيع مشاهدة قصرها فى بى - رمسيس مرة أخرى ، رحلت نفرتارى إلى العالم الآخر بجوار الإله أوزوريس .

وتركت الفرعون يواصل بمفرده ، طريقه فى الحياة الدنيا .

وها هى الآن على استعداد تام لاستكمال حياتها فى مقبرتها الجميلة الرائعة المقامة فى طيبة .

* * *

بدا الفرعون غارقا فى أحزانه الرهيبة لموت زوجته الحبيبة نفرتارى . وعمل على أن تكون مراسم دفن نفرتارى فائقة الفخامة وغير مسبوقة . وأحيانا ، وهو يفكر فيها متأسيا ، كان يقول لنفسه : « ها هى أخيرا قد ابتعدت عن منافساتها العديدات . ولكن ترى ، هل كان لنفرتارى أعداء حقا ؟ ! لقد كانت فائقة الطيبة والتفهم فى معاملتها مع الآخرين . ولاشك أنها ، وهى فى العالم الآخر لن تخشى من عملية وزن أعمالها ، خلال جلسة محاكمة المتوفى . فهناك فى العالم الآخر ، تعيش نفرتارى حياة أخرى شبيهة بحياتها الدنيوية التى عاشتها من قبل . وشأنها شأن الآلهة ، فإنها سوف تستطيع أن تمثل فى مكان المحاكمة دون أن تخشى أى عقاب فهى لن تكون أبدا مثل الذين اقترفوا ، خلال حياتهم الدنيوية أعمالا سيئة ؛ وبالتالى يقدمون كفريسه للكلبة المفترسة عمات بل لن تكون ملزمة بخدمة أوزوريس ، فإن أعمالها الطيبة والخيرة تفوق بكثير أعمالها السيئة » .

وعندئذ ، بدأت « إيزيس نفرت» تثبت وجودها بكل وضوح ؛ بجوار الفرعون . ولكنها لم تكن لتجرؤ على فرض نفسها عليه بل كانت تحاول فقط أن تسرى عنه لينسى أحزانه . وأصبحت الزوجة الأولى المعظمة ولكنها ، لم تستطع ، مثل نفرتارى أن تلمس شغاف قلب الفرعون . ولكن ، كان يداعبها الأمل دائما ، بأنها قد تستطيع فى يوم من الأيام أن تجعله يهيم بها حبا وعشقا مثل نفرتارى . وكانت تقول للفرعون :

– « لا تخشى شيئا مطلقا أن نفرتارى قد مثلت أمام أوزوريس بدون أى آثام . ولاشك أبدا ، أن كفتى الميزان القائم أمام عرش الإله أوزوريس وقد اعتلى رأسه التاج ذو الريشتين العاليتين ، لن تميلا ناحية الشر . ولن يقوم أبدا الإلهان أنوبيس وتحوت ، اللذان يقفان عادة ، على يمين ويسار أوزوريس بمعاقبة نفرتارى . فهى لم تقترف أية ذنوب تستحق عليها العقاب » .

« وعسى أن تمحى أخطاؤها الطفيفة النادرة ! وسوف أضع بين ساقى نفرتارى نسخة من « كتاب الموتى » ؛ حتى تستطيع أن تدخل إلى قاعة الحقيقة وهى طاهرة الروح » .

– « لا شك أنها سوف تكسب قضيتها . وسوف تخرج من باب المحكمة الإلهية وقد تطهرت من كل أثم وذنب . فعندما كانت تعانى من آلام المرض ، قامت بتقديم العديد من القرابين للآلهة ، من أجل أن تمهد لنفسها ، قبل وصولها إلى العالم الآخر » .

أصدر الفرعون أوامره بأن يكون التابوت الحجرى الخاص بنفرتارى متطابقا تماما مع رغباتها . فخلف غطائه ترى الإلهة نوت وقد أحاطت بها النجوم والكواكب ، حتى تستطيع نفرتارى أن تمضى فى طريقها بأجواء السماء . وعلى جانبى تابوتها الحجرى هذا رسمت نقوش بارزة تمثل بعض الأبواب ، حتى تتمكن من الخروج والدخول متى أرادت .

كما أبدى رمسيس الثانى اهتماما خاصا باختيار الأثاث الجنازى الخاص بنفرتارى . لقد عمل على أن يكون هذا الأثاث رائع الفخامة ، بل لقد اختاره من أكثر قطع أثاث القصر جمالا وأناقة وأمر بتنسيقه داخل مقبرتها ، وخصصت أربعة أوان خاصة من أجل أن تتضمن بعض أعضاء الملكة . كما وضع بجوارها العديد من التماثيل البرونزية الصغيرة التى تمثل خادماتها ووصيفاتها فى العالم الآخر .

ومن أجل مراسم الدفن ، أمر الفرعون بأن تصنع خصيصا العديد من المصوغات الذهبية المرصعة بالأحجار النفيسة . بل لقد أضاف إليها أيضا كافة المجوهرات التى كان قد قدمها للملكة إبان حياتها الدنيوية . ومنها : قلادات من اللؤلؤ ، أو من الخزف ، أو من الذهب الخالص . ومنها أيضا صدرية تمثل جعرانا مجنحا تحيط به

الربتان إيزيس ونفتيس ؛ وكانت نفرتارى قد أمرت بأن تنقش عليه هذه العبارة « عسى أن يعمل الإله على إبقاء جسدى سليما » ؛ وكان هناك أيضا العديد من القلادات على هيئة قلب محاط بأحجار اللازورد النفيسة ؛ كان الفرعون قد كتب عليها العديد من عبارات الحب والهيام ؛ وكذلك بعض الأساور الذهبية التى تلبس فى الذراع ، أو فى كاحل القدم ، أو فى الرسغ ، أو فى الفخذ ؛ وأيضا الكثير من الخواتم ، والتمائم السحرية ، ورمز للعين « أوجات » ، والعديد من التماثيل الممثلة للصقور ، والثعابين والحيات ، التى تقوم بحراسة أبواب العالم الآخر .

ولقد استدعى الفرعون نجارى الأبنوس المهرة ، ورؤساء المحاجر والفنانين ، وأمرهم بالإسراع فى تنفيذ مقبرة نفرتارى . وكان يحدد لهم تعليماته فى دقة متناهية .

والجدير بالذكر أن أفراد الشعب المصرى ، منذ وفاة نفرتارى قد لزموا ديارهم ولم يغادروها قط . فقد أعلن الفرعون ، أن الحداد سوف يستمر طوال فترة التحنيط بأكملها . وهى تعادل سبعين يوما . وكان البعض من المصريين يلطخون وجوهم بالطمى تعبيرا عن حزنهم الشديد . أما البعض الاخر فقد انخرطوا فى بكاء مرير بداخل منازلهم .

وفى نهاية هذه الأيام السبعين ، تم غسل جسد نفرتارى ، ولفه بضمادات كتانية . وكان الفرعون قد أمر بإحضار أجود المواد اللازمة لعمل القائمين بالتحنيط : زيت الصنوبر ، والأصماغ ، والحناء ، والراتنج الصمغى ، والنترون ، والأخشاب المستوردة من لبنان . وعمل على إلباس موميائها ثيابا فاخرة . ثم أصدر أوامره بأن ينقل تابوتها الحجرى فوق إحدى السفن المعقوفة المقدمة . وأحاطت مجموعة من الندابات والنائحات بالقمرة المزخرفة بزخرفة رقيقة الذوق ، والتى تضمنت بداخلها التابوت الحجرى الخاص بنفرتارى .

وانطلقت نفرتارى فى رحلتها نحو مقبرتها . وسارعت جموع المصريين نحو وادى الملكات وهم يحملون معهم الكثير من الهدايا ، والمأكولات والمشروبات من أجل تقديمها إلى مليكتهم المتوفاة . فعلى ما يبدو أن ذاتية نفرتارى كانت ماتزال تتقمص جسدها حتى بعد وفاتها . لقد تحولت الملكة إلى « أوزوريس » ؛ وبهذا فسوف تحيا ، مثلما كانت ، فى حياتها الدنيوية . وفى يوم ما ، لاشك أن الفرعون سوف يلقاها .

وعند المساء ، سوف ترافق روحها الإله أوزوريس . أما جسدها فهو راقد بمقبرتها بوادى الملكات . وفى نفس الوقت ، وعند مشرق الشمس ، سوف تلتقى روحها بالإله رع ، خلال رحلته النهارية .

ويبدو أن أفراد الشعب المصرى ، مثلهم كمثل الفرعون ، قد شعروا بشئ من العزاء لتيقنهم أن حياة نفرتارى مازالت مستمرة فى العالم الآخر . بل هم يعرفون أيضا ، أن أجسادهم كذلك ، سوف ترقد فى يوم من الأيام بداخل مقابرهم ، ولكن « البا » الخاصة بكل منهم ، أى أرواحهم ، سوف تعيش إلى الأبد بداخل إحدى المقصورات . إن « البا» الخاصة بهم ، أى أرواحهم ، سوف تبتعد خلال النهار عن أجسادهم الدنيوية ، وتنطلق نحو المقصورة ، من أجل التهام الغذاء الذى يأتى به عادة أصدقاؤهم أو أهلهم ، من أجلهم .

وها هى إذن نفرتارى قد استهلت هذه الحياة الجديدة . ومازال الفرعون يحلم ويأمل فى لقائها هناك .

إذا كانت إيزيس نفرت قد أصبحت الزوجة الأولى المعظمة للفرعون بعد موت نفرتارى ، فإن « بنت عنات» ، ابنة رمسيس الثانى قد حملت لقب الزوجة الثانية . وعلى ما يبدو ، أن معظم أبناء نفرتارى كانوا قد انتقلو إلى العالم الآخر فى ميعة صباهم . وهكذا استطاع أبناء إيزيس نفرت أن يثبتوا وجودهم فى البلاط الملكى .

عمل رمسيس الثانى على تمثيل زوجته نفرتارى وأبنائه من خلال النصب والمنشآت التى أقامها . فهى تتراءى على جدرانها بمصاحبة ابنتها بنت عنات وأبنائها رمسيس «وخع واست »، «ومرنبتاح» . ولقد سعدت إيزيس نفرت بتمثيلها هى الأخرى فوق بعض اللوحات التذكارية . بل كانت تشعر بفخر واعتزاز بالغ ، لأن ابنها الأكبر ، قد أصبح ، بصفة رسمية وليا للعهد ؛ وأن ابنها الآخر قد أصبح « الكاتب الملكى » . ولكنها ، بالرغم من كل ذلك ، لم تستطع أن تجعل الفرعون يشعر تجاهها بنفس العاطفة القوية العميقة التى كان يكنها لنفرتارى . ولكن رمسيس الثانى ، بالرغم من ذلك ، كان يعاملها معاملة حسنة ورقيقة . وبدأ يصطحبها معه إلى الحفلات ومناسبات الأعياد والاستقبال الرسمية . ولكنها ، مع ذلك ، لم تشعر أبدا ، بمثل هذا التواصل والتقارب الحميم الذى كان يجمع بينه وبين نفرتارى .

وفى أحد الأيام ، تلقى الفرعون رسالة من ملك الحيثيين ، الذى كانت أواصر الصداقة والتفاهم قد توطدت تماما بينهما . ومن خلال رسالته هذه ، كان ملك الحيثيين يجدد له رغبته فى تزويجه من ابنته .

وكان « هاتوسيل » الثالث ملك الحيثيين يشعر برضاء كبير لعلاقاته الوطيدة مع رمسيس الثانى . ولذا ، فقد أزمع أن يعجل بعقد زواج ابنته به . وقد قال له فى إحدى رسائله إليه :

– « لاشك مطلقا أن هذا الزواج سيعتبر رمزاً لصداقتنا الوثيقة » .

وقبل الفرعون هذا العرض على الفور . وقد حدث ذلك خلال العام الثالث والثلاثين من حكمه . وبدأ يستقبل مراسلى ومبعوثى ملك الحيثيين وهو يبدى ارتياحه الشديد لكرمه البالغ . وها هو « هاتوسيل » يقول للفرعون فى إحدى رسائله إليه :

« سوف أمنح ابنتى مهرا غير مسبوق ، لم يقدمه أحد من قبل . وسوف يفوق هذا المهر مهر ابنة ملك بابل . وسوف تصل ابنتى قريبا إلى مصر ، وفى صحبتها أعداد كبيرة من الخدم والعبيد ، وقطعان الماشية والجياد . وأنا أوجه إليك شكرى وامتنانى ؛ لأنك أرسلت مندوبا من عندك من أجل اصطحابها إلى مصر » .

وعلى ما يبدو أن رمسيس الثانى قد سر كثيرا من هذا الخطاب . وسارع إلى الرد عليه . وأمر الفرعون بأن تتخذ كافة الإجراءات اللازمة من أجل استقبال الأميرة استقبالا لائقا عند الحدود السورية . وكانت إيزيس نفرت تشارك زوجها بهجته وسروره . وقال لها الفرعون :

– « لقد بعثت إلى « هاتوسيل » الثالث برسالة ود وصداقة . وكتبت أيضا إلى الزعيم « سوتا » بإقليم « أوبى » حتى يعمل على استقبال قطعان الماشية والأعداد الضخمة من الخدم والعبيد الذى سوف يرسلها إلى ملك الحيثيين . وسوف يحيطنى علما بمجرد وصول الأميرة إلى أرض مصر . بل لقد أصدرت أوامرى أيضا بضرورة توفير الحماية والرعاية الواجبة لزوجتى المقبلة ، حتى تصل هنا فى القصر . فهذا ما طالبنى به أبوها » .

ويبدو أن «إيزيس نفرت » قد وافقته على كل ما يقوله . بل لقد بدأت هى أيضا ، تستعد لاستقبال الزوجة الجديدة . ولكن ، ها هى الأيام تمر بدون أى جديد . وبدأ الفرعون يشعر بالضيق ونفاد الصبر .

وكان رمسيس الثانى يولى اهتماما خاصا لأصغر أبنائه من نفرتارى ، ويدعى مرى أتوم » وعندما توفى اخوته الأكبر سنا ، أصبح « قرى أتوم » هو « الابن الأول » للفرعون ، وأيضا المسئول عن المروحة الكبرى . ولقد أنعم عليه رمسيس الثانى بلقب كان الكثيرون يطمعون فيه ، وهو : « كاهن رع بهليوبوليس » . وكان رمسيس الثانى يأمل كثيرا فى أن يلمس فى هذا الابن نفس ذكاء ابنه «خع إم واست» الذى توفى . ولكنه ، لم يكن يستشف سوى المشاعر الرقيقة الحانية التى كان يراها دائما فى عينى نفرتارى ، أمه .

انتقلت نفرتارى بعيدا عنه هى الأخرى . لم تعد ترافقه أو تسدى إليه بنصائحها . لقد توفيت فى العام الرابع والثلاثين من حكم رمسيس الثانى .

وفى أحد الأيام ، أخذ الفرعون يستعيد فى ذاكرته وعود ملك الحيثيين له ، وبدأ يشعر برغبة شديدة فى الالتقاء بهذه الأميرة الفاتنة التى وصفها له الكثيرون بأنها ساحرة الجمال . وعندئذ ، استدعى رمسيس الثانى كاتبه الخاص وأملى عليه رسالة شديدة اللهجة يندد فيها بمن لا يوفى بعهده وينفذ وعوده . وأمر بإرسالها إلى ملك الحيثيين .

عندما قرأت الملكة «بوبوخيبا» هذه الرسالة ، انتابها غضب شديد . ولم يكن زوجها متواجداً بالقصر فى هذا الحين . ولذا ، قامت هى بالرد على الفرعون ، برسالة لاتتسم مطلقا بالرقة أو بمشاعر الود والصداقة . حيث قالت فيها :

– « على ما يبدو أن صديقنا ملك مصر يريد أن يثرى على حسابنا ؟ ... وهناك بعض الأقاويل عن استقبال الفرعون فى نطاق حريمه الخاص لأميرة من « بابل » ؛ وأنه لا يسمح مطلقا لمبعوثى أبيها ومراسليه برؤيتها . فما عساه سوف يكون مصير ابنتى ؟ » .

وعندئذ قالت «بنت عنات» لزوجها :

– « ربما أنك لم تلتزم الصواب فى تعاملك معهم . فلماذا عساك تطالبهم بارسال كميات من الذهب ، خاصة أن مصر ثرية بذهبها ؟ » .

– « لأن الملك « هاتوسيل » قد وعدنى بذلك » .

ويبدو أن الفرعون لم يستسلم مطلقا . واستمر فى إرسال خطاباته إلى ملكة الحيثيين . وفى نهاية الأمر ، وافقت على إرسال الأميرة إلى الفرعون ، بشرط : « أن يهب المصريون لاستقبالها ومعهم الزيوت والدهانات المعطرة من أجل تطرية جسدها . وكذلك أن يصطحبوها حتى قصر « مـلك مصر المعظم » . « وبـذا ستقوم وحدة بين بلدينا . وسيرتبط كل من ملك مصر وملك الحيثيين معا بروابط الصداقة والأخوة الوطيدة » فهذا ما كتبته الملكة « بودوخيبا » للفرعون .

كان رمسيس الثانى يشعر برضاء غامر ، وقد تزوج وهو يناهز الخمسين من عمره ، من أميرة فى ميعة الصبا والشباب . بل إن «بنت عنات» قد سرت كثيرا لما بدا عليه الفرعون من سعادة وابتهاج . وقال لها الفرعون ليعلمها بما سوف يتم :

– « سوف تصل الأميرة إلى مصر فى خلال بضعة أشهر ، خلال فصل الشتاء . ولقد قالت لى الملكة « بودوخيبا » فى آخر رسائلها ، إنها سوف ترافقها حتى منطقة الحدود ! ولاشك أنه سوف تصطحبها فرق عسكرية مدججة بالسلاح ، والكثير من الأفراد ذوى البأس ، من أجل رعاية وحماية القطعان والجياد ، والعبيد ، والمجوهرات والثياب الفاخرة . وسوف يمر هذا الموكب «بقادش» . وسيقوم باستقبالهم الحاكم المصرى بمنطقة غزة . ثم يتابع الموكب طريقه بمحاذاة البحر حتى بى – رمسيس . وسأقوم بالابتهال للإله ست وأقدم له الهدايا من أجل أن يبسط سيطرته ونفوذه على السماء والأرض ، وأن يكبح جماع الرياح وثورتها ، ويردع الأمطار الغزيرة ، ويحد من سقوط الجليد والبرد ، حتى تصل الأميرة الحيثية إلى مصر فى سلامة وأمان . وهنا أجابته «بنت عنات» فى سرور واضح :

– « عندئذ ستقام الأعياد والاحتفالات . عليك إذن أن تأمر بنقش هذا الحدث على جدران معابد الكرنك ، « وأبو سمبل » .

وعلى ما يبدو ، أن الإله ست قد استجاب لدعاء الفرعون وابتهالاته . فجعل فصل الشتاء وكأنه صيف بكل معنى الكلمة . فقد رجع أفراد الجيش المصرى وكبار موظفى الدولة إلى بى – رمسيس فى حالة جيدة للغاية ووصلت الأميرة الحيثية إلى قصر الفرعون فى شهر فبراير . ووجد إنها تتمتع بسحر وجمال أخاذ . وقال لها :

- « أنت جميلة . وقد أقع فى حبك . أنك ، بالنسبة لى بمثابة النصر الذى من على به الإله بتاح . وسوف أطلق عليك اسم : « الملكة معات - حور نفرو رع ، ابنه ملك الحيثيين العظيم وملكة الحيثيين المعظمة » . سوف تعيشين معى بالقصر . وترافقيننى فى كل يوم . وسيتألق اسمك فى كافة أنحاء العالم » .

ولكن «بنت عنات» ، عند سماعها ما قاله الفرعون لتوه ، انسابت الدموع من عينيها الجميلة . فحقيقة أن حريم الفرعون قد استقبل العديد من النساء الجميلات الفاتنات ، ولكن لم تحظ أية واحدة منهن بمثل هذا التكريم الذى لا يخص سوى « الزوجة الملكية المعظمة » ، بل لقد لاحظت أن الفرعون يكاد يكون مفتوناً بسحر هذه الأميرة الحيثية وشبابها .

وأصدر الفرعون أوامره بأن توزع هبات مادية قيمة على كبار موظفى الدولة الذين اصطحبوا الأميرة الحيثية إلى مصر ؛ كما وعد رئيس هذا الوفد الذى رافق الأميرة زيره المخلص « حوى » بأنه سوف يبوؤه منصب « نائب الملك فى النوبة » .

أما عن المجموعات العسكرية الحيثية التى رافقت الأميرة ابنة ملك الحيثيين إلى مصر ، فقد تمت دعوتهم إلى مأدبة غداء مع جنود الجيش المصرى . واحتسوا جميعا مختلف أنواع الشراب مع التمنيات بدوام السلام والصداقة بين الدولتين .

وأخذ شعراء البلاط الملكى يترنمون ويشدون بقصائدهم وأشعارهم لهذه المناسبة الكبرى . وتعددت كتابات المديح والتقريظ فوق جدران النصب والمنشآت بمصر : « العام الرابع والثلاثون من حكم رمسيس الثانى العظيم . فلتحيى الأعياد لتبجيل وتعظيم الفرعون . سيد البلاد المسيطر القوى .فلنتغن جميعا بشجاعته وبسالته وما حققه من انتصارات ! . ولنتذكر جميعا ماقدمه سيد القطرين من إنجازات . إنه الصورة المجسدة لرع ، إنه يفوق جميع من سبقه من الملوك عظمة وجلالا. لقد التمس ملك الحيثيين من رمسيس الثانى أن ترتبط الدولتان بأواصر الصداقة . لقد قدم كميات من الذهب ، والفضة ، والبرونز ، وقطعان الماعز ، وقطعان المواشى ، وابنته . ومن أجل أن يصلوا إلى مصر ، تكبد الحيثيون مشقة عبور الجبال والطرق الوعرة » .

وامتلأت شوارع المدينة بأفراد الشعب المصرى وهم يغنون وينشدون فى بهجة وسرور . وامتلأت الحانات عن آخرها ، ولم تقفل أبوابها طوال الليل . ولاشك أن كل ذلك يرمز للسلام السائد فى أنحاء مصر . وبالتالى ، ساد السرور والفرح فى كافة أنحائها . وسعد التجار المصريون سعادة بالغة بهذا الحدث الكبير فهم بذلك ، يمكنهم السفر إلى بلاد الحيثيين دون تخوف أو قلق .

ولكن بنت عنات فقط ، هى التى كانت تشعر بضيق وألم دفين . إنها لا تستطيع أن تنكر أبدا ، أنها كانت دائما موضع أسرار أبيها الذى يحبها كل الحب ، ويستشيرها فى أدق الأمور ، ويفضلها على الجميع . ولكن الفرعون كان يفتتن ويشعر بانجذاب لايقاوم ناحية الشابات الجميلات !

فى نطاق مصر الفرعونية ، كانت « الزوجة » هى الناقلة الوحيدة لعنصر الوراثة . بل هى تحقق نقاء الدم الملكى . وبذا ، فباعتبارها زوجة للفرعون ، نجد أنها تحتل مكانة جوهرية وأساسية . ولاشك إذن ، أن بنت عنات كانت على يقين من أهمية دورها كزوجة للفرعون وأيضا من أهمية الدور الذى تقوم به الزوجة الملكية الحيثية ، أو « تلك التى تتأمل الصقر ، الذى يجسد قوى الإله رع » . خاصة أن رمسيس الثانى ، لم يحاول دمجها فى إطار الزوجات الثانويات مثل ما فعل بالنسبة لبعض أميرات بابل أو الأميرات السوريات بحريمه الخاص .

لقد اتسمت احتفالات الزواج بمظاهر الفخامة والأبهة الرائعة . وبهذه المناسبة ، استقبل الفرعون والدى الأميرة بقصره الملكى . وفى القاعة الرئيسية ، بدا الفرعون جالسا تحت قبة فخمة . وأحاط به كل من ست وبتاح . وعندئذ ، تقدمت نحوه الأميرة بصحبة أبيها ، الذى كان يرفع ذراعيه عاليا محييا رمسيس الثانى . وبدا موكب مقدمى الهدايا والموالين للفرعون لانهائياً . وأخذ يتقدم ببطء شديد بين هتافات وصيحات الجمع المحتشد . وأخيرا ، جاءت اللحظة التى كانت بنت عنات ترغبها وتخشاها فى نفس الوقت .

كان الفرعون ينظر إلى الأميرة الحيثية القادمة نحوه بنظرات تشع بهجة وسعادة . وقام الكتبة الملكيون بتسجيل زواجهما . ومن أجل الاحتفال بعقد قرانهما ، تم ذبح العديد من الأضحيات للآلهة . وعم السرور والفرح بين أفراد الشعب الذين أقبلوا فى بهجة ومرح على موائد الطعام التى أقيمت بحدائق القصر . وأخذوا يحتسون الشراب ويتبادلون الأحاديث المرحة أو النكات الفكهة . وها هو ذا الزواج التاريخى قد تم عقده فى نهاية الأمر .

ولقد لاقت الأميرة الحيثية نفس التبجيل والتكريم الذى تلقاه عادة بنات رمسيس الثانى من إيزيس نفرت أى « نفرتارى » وتم نقش اسمها فوق جدران المعابد . ومثلت فى كافة مشاهد الرسوم البارزة . بل لقد استمرت مظاهر الفرح والتكريم لهذين الزوجين الملكيين على مدى عام كامل .

وفى ذكرى عقد الزواج الملكى ، نقشت فوق جدران أكبر معابد مصر بعض الكتابات التى تشير إلى التحالف التاريخى الذى تم بين مصر والحيثيين .

لقد كانت بنت عنات تعرف قدر نفسها ومكانتها حق المعرفة بل كانت تفهم جيدا مدى ما يمثله مثل هذا الزواج من تحديات ومخاطر . وبالتالى ، لم تقف فى وجه افتتان زوجها بالأميرة الحيثية الشابة وانجذابه إليها .

ولكنها سرعان ما تبينت أن ما تتسم به الأميرة من جمال سوف يذبل ويذوى سريعا . إذن ، فعامل الوقت يبدو في صفها هى . وبعد فترة وجيزة ، وجدت أن الفرعون قد بدأ يشيح بوجهه بعيدا عن تلك المرأة التى ازدادت ترهلاً وبدانة ، بل والتى تبدو جافة الطباع صعبة المراس ؛ جملة القول ، كانت الأميرة الحيثية ، تميل إلى مجرد إدارة شئون البيت ؛ ولكنها تفتقد لذلك النوع من الجمال المتألق الذى يأسر زوجها ويخلب لبه . إن نفرتارى هى فقط التى كانت تتمتع بهذا السحر ويليق بها فعلا مرافقته على الدوام . وهكذا ، بعث بالأميرة الحيثية إلى مقر حريم الفيوم الملكى .

ويبدو أن التفاهم والتحالف بين مصر والحيثيين لم يتأثر مطلقا بهذا الأمر . فقد كان مبعوثو الجانبين يروحون ويغدون ما بين مدينة هاللوسا وبين بى – رمسيس . بل لقد جاء شقيق الأميرة الحيثية ، ولى العهد ، إلى مصر ، لكى يمضى بها بعض الوقت .

وكان رمسيس الثانى ، يتردد فى كثير من الأحيان ، على حريمه الخاص بالفيوم ، حيث يلتقى بنسائه ، سواء أكن أميرات ، أم أسيرات حرب أم زوجات ثانويات مصريات . وفى حريمه الخاص الملكى فى نينسو عند أطراف الفيوم ، كان كثيرا ما يلتقى بالأميرة السورية التى كانت قد عينت كرئيسة لهذا الحريم ، خاصة أنها كانت أكبر النزيلات سنا فى هذا المكان . وحقيقة أن نساء الحريم كن يعتقدن أن زيارة الفرعون تعتبر بمثابة تشريف كبير لهن ، ولكنهن لم يكن يمضين وقتهن فى انتظاره أو ترقب مجيئه . والجدير بالذكر فى هذا الصدد ، أن حريم « ميفر » مثله كمثل كل حريم ملكى آخر ، كان يتضمن فى أجوائه عدداً كبيراً من النساء النشيطات العاملات بكل جد وهمة . وكن يرعين أطفالهن ويغدقن عليهم عنايتهن واهتمامهن . ويعلمن الكبار منهم فنون التفصيل والحياكة . وكانت هؤلاء النساء يجدن إلى أقصى مدى حياكة ملابس الفرعون وكبار موظفى البلاط الملكى .

وكن يتفوقن أيضا فى صناعة مساحيق التجميل والدهون العطرية اللازمة لهن . وكذلك ، كن يجدن صناعة العلب الصغيرة الفاخرة من أجل وضع زجاجات العطور أو أدوات الزينة .

ويمكنهن أيضا صناعة الزجاجات الصغيرة الملونة الشفافة. ويستعملن العاج والخشب فى بعض الصناعات الدقيقة الأنيقة . وفى بعض الأحيان ، عندما لا يقمن بأنفسهن بصناعة ما يرغبنه من أدوات وأشياء أخرى ، كن يشرفن على صناعتها ومعالجتها ، لتكون فى نهاية الأمر لائقة بنساء حريم الفرعون .

والجدير بالذكر ، أن الأميرة السورية ، قبل عملها لدى الملكة « بنت عنات » ، ووجودها بالقصر الملكى ، كانت تتلقى أثواباً فائقة فاخرة وناعمة الملمس . ولكن ، على أية حال ، ومثلها كمثل أية زوجة ثانوية أرسلت ، فى نهاية الأمر إلى مقر الحريم ، حيث تلقى أفضل معاملة وأحسنها .

وفى كل يوم ، كان حريم الفرعون يتلقى كميات ضخمة من أجود الأطعمة وأرقاها مستوى . فالفرعون كان يتسم بكرم فائق . وفى كل مرة يحضر فيها إلى مقر حريمه ، كان يحضر معه كميات كبيرة من أجمل المجوهرات ، وقدرا هائلاً من باقات الورد . وكان يرسل الكثير منها من بى - رمسيس فى حالة عدم تمكنه من الحضور إلى مقر الحريم . وفى كثير من الأحيان ، كان الفرعون يهدى زوجاته بالحريم بعض الأراضى الشاسعة من أجل استغلالها ، أو بعض المساكن والقصور الفاخرة . وكان الحريم يعج بأعداد هائلة من الخدم الأكفاء المطيعين . وكانت الضرورة تحتم أن يكون جميع خدم الحريم الملكى من الرجال .

وعند قدوم الفرعون إلى قصر حريمه ، كانت تقام الأعياد وتعد أشهى المأكولات والمآدب . فإن رمسيس الثانى كان ، بالفعل ، شغوفا بالأكل الشهى والشراب المخلوط بعسل النحل . وكان يطيب له أن يجلس وقد أحاط به أبناؤه من كل جانب . ووقتئذ ، لم يكن الفرعون ينأى تماما عن مرافقة أميرته السورية ، بل غالبا ما كان يجالسها ويشاطرها لعبة النرد .

وعلى ما يبدو أن الفرعون كان يعتقد أن النساء الحيثيات ، اللاتى يبدون فى نطاق الحريم ، وقد زين جباههن برأس غزال ، يعتبرن أكثر إثارة وجاذبية من المصريات أنفسهن .

فى واقع الأمر أن الفرعون كان يحلو له فى معظم الأحيان ، أن يجلس وقد أحاطت به كل هؤلاء النساء الفاتنات ، اللاتى لا يغطين أجسادهن الجميلة إلا بأوشحة

فائقة الشفافية . وهن لا يرتدين سوى النادر القليل من الملابس . ويسعدهن كثيرا أن يحطن به ويضعن أكاليل الزهور العطرة فوق رأسه . ويقدمن له الحلوى والفطائر ليتذوقها ويقمن بإعداد المشروبات من أجله ، خاصة المثير منها للمشاعر والأحاسيس . لاشك إذن ، أن مثل هذه الصحبة كانت ، بالنسبة له ، تختلف كثيرا عن صحبة أصدقائه الذين يرافقونه فى رحلات الصيد والقنص ، فهى تتسم بالخشونة الفائقة .

وكانت بعض زوجاته بالحريم يقمن ، وهن جالسات من حوله ، بقراءة طالعه ، ويتنبأن له بمستقبل مشرق وحياة مديدة . حقيقة أنه لم يكن يؤمن بمثل هذه التنبؤات ، ولكن ، على أية حال ، كان يسعده كثيرا ما يسمعه من إطراء وتقريظ . كان الفرعون يستمع ويستسلم للمداعبات والعبارات الجميلة من جانب هؤلاء النساء . وكل واحدة منهن كانت تكن له إخلاصا ووفاء فائقين . ومع ذلك ، فإن مشاعر الغيرة ، كانت تعمل ، فى الكثير من الأحيان ، على إثارة بعض التصادمات والتشاحنات فيما بينهن .

وبالإضافة إلى هؤلاء الزوجات الثانويات اللاتى يجملن رؤوسهن بأكاليل من الزهور مثل بنات الفرعون اللاتى يصبحن زوجات ملكيات معظمات ، كان الفرعون شغوفاً بمشاهدة الفتيات الصغيرات المبتدئات ، وهن يرقصن وينشدن أغانيهن من أجل إدخال السرور والبهجة إلى قلبه . وفى بعض الأحيان ، كان الفرعون يصطحب معه خلال بعض نزهاته حوالى عشرين واحدة من هؤلاء الفتيات الصغيرات ، وهن شبه عاريات . وعندئذ ، كان يتأملهن فى شئ من الرغبة ويستنشق عطرهن القوى النفاذ الذى يتكون خاصة من بعض مواد البخور العطرى . وأيضا ، كانت بعضهن يصاحبن الفرعون فى نزهاته النيلية ، وهن متحررات من أكبر قدر ممكن من ثيابهن .

وعلى ما يبدو أن الفرعون كان يميل كثيرا إلى التنويع والتغيير . فتارة كان يقع اختياره على إحدى زوجاته الثانويات الناضجات اللاتى أنجبن له بعض الأبناء . وتارة أخرى كان يمر بحجرات حريمه ، لكى ينتقى منها إحدى الزوجات الشابات الصغيرات .

ولم تكن مجموعة الحريم هذه تسبب للفرعون أية متاعب أو قلق ، فإن كبار المسئولين بها كانوا يهيمنون تماما على الكتبة العاملين بها . بل وكانوا يسيطرون تماما على الحرس الخاص بهذا المكان ؛ وعلى طاقم موظفيه الضخم . ويبدو أن جميع هؤلاء كانوا يؤدون مهامهم ووظائفهم فى همة وفاعلية تامة . وكان هؤلاء المسئولون الكبار

يصدرون أوامرهم أيضا إلى الخدم والعبيد ، والعمال ، والفلاحين ، الذين يعملون بالأراضى الشاسعة الخصبة التابعة لمجموعة الحريم هذه . وكانوا يقومون أيضا بعمليات تعداد للمواشى والقطعان . ويراقبون أعمال صيد الأسماك وإنتاج بعض المواد والآلات . بل ويقومون أيضا بمهمة تقدير الضرائب .

وكانت الأميرة السورية هى المكلفة بمهمة استقبال كافة الزوجات الثانويات اللاتى يود الفرعون إرسالهن إلى الحريم . وكانت هؤلاء الزوجات يحضرن إلى هذا المكان ومعهن أبناؤهن وخدمهن وعبيدهن . وعندما كانت رئيسة الحريم تلاحظ أن إحدى نساء الحريم قد ذبل جمالها وتلاشت نضارتها ، تقترح على الفرعون تزويجها لأحد موظفيه بالقصر ، حتى تستمر فى ممارسة حياة رغدة وكريمة بين أجواء الحريم .

أما عن « الزوجة الملكية المعظمة »« بنت عنات » ، فقد كانت تعلوها شأنا فى مجال التدرج الوظيفى بالحريم . وبذا ، كانت تتوجه أحيانا إلى مقر الحريم الملكى ، من أجل أن تستقبل ، هى أيضا بعض الأميرات اللاتى اختارهن الفرعون لكى يكن زوجات ثانويات له . ومع ذلك فقد كانت تقوم بزيارة مقار الحريم الملكية الأخرى ، مثل حريم منف أو حريم طيبة ؛ وأيضا « حريم المصاحبة » الخاص بالتسرية والترفيه عن الفرعون خلال رحلاته وأسفاره .

ولكن ، على ما يبدو ، أن « حريم ميفر » كان هو المفضل لدى الفرعون . فغالبا ما كان يذهب إليه لقضاء أمسيات ممتعة للغاية . وكان يفعل ذلك خاصة بعد رحلات الصيد والقنص الشاقة ، أو ممارسة صيد الأسماك النهرية . ففى تلك المنطقة خاصة ، تكثر الطيور المغردة والنباتات الكثيفة التى تدعو المرء إلى الاسترسال فى أحلامه وتخيلاته ، قبيل ما ينتظره من متعة فى المساء .

لم يكن الفرعون ليتوقف أبدا عن التفكير فى نفرتارى ورؤيتها فى أحلامه وتخيلاته ، فإن صورتها لم تفارقه ليل نهار . وهو يعلم علم اليقين ، أن كافة النساء اللاتى عرفهن بعد وفاتها لم تستطع أى منهن احتلال مكانتها فى قلبه . فإن الأميرة الحيثية قد أسعدته طوال عشر سنوات . أما بنت عنات فهى توليه كل اهتمامها ورعايتها . وعن إيزيس نفرت ، فقد اتسمت بالطاعة التامة والتحفظ .. وعن جميع زوجاته ، ونساء الحريم والفتيات الصغيرات المرحات اللاتى شاطرنه لحظات السعادة ، فقد كن جميعا يبدين له كل المودة والرقة . ومع ذلك ، فلم تستطع أية واحدة منهن محو

ذكرى حبيبته الغالية نفرتارى . إنه الآن ، أكثر من ذى قبل ، يشعر بحاجته الشديدة إلى وجود أنثوى بجواره . بل ربما كان رمسيس الثانى يحاول أن يتناسى ويتشاغل ويهرب من التفكير فى وجه نفرتارى الفاتن الذى يطارده فى كل وقت وكل مكان . لقد فاض به الحزن والحنين إلى الماضى ، ففكر فى أن يصطحب بعض أصدقائه الذين يرافقونه فى رحلات الصيد إلى حريم الفيوم .

وحالما وصل إلى هناك ، سارعت الأميرة الحيثية إلى استقباله . وقالت له :

– « لماذا لم تحطنى علما بحضورك ؟ فأنا لم أجهز شيئا . ولا أحب أن يبدو استقبالك هكذا . خاصة أن زيارتك لنا ، تفيض علينا بالبهجة والسعادة . ها هنا العديد من النساء الجميلات القادمات حديثا فى انتظارك » .

ولكن الفرعون بدا وكأنه لا يسمعها مطلقا . ثم تبعها وقد تراءت على وجهه شبه ابتسامة حزينة إلى مدخل الحريم المظلل بأشجار كثيفة . وقام الحراس بإفساح الطريق أمام الفرعون وهم ينحنون احتراما وتبجيلا . وسار الاثنان فى ممر تقع على جانبيه العديد من الحجرات . وأخيرا ، وصلا إلى القاعة الرئيسية ذات الأعمدة البديعة الصنع . وتناهت عندئذ ، إلى سمع الفرعون أصوات لعزف على القيثار والصلاصل . وهنا فقط بدأ يشعر ثانيا بلذة الحياة ، ثم قال للأميرة السورية :

– « كلما قمت بزيارتك هنا أشعر بتألقك يدفئ شغاف قلبى » .

– « ولكننى أرى أننى غير جديرة بجلالتك . فقد ازداد وزنى كثيرا فى هذه الفترة . وحقيقة إننى أحاول توخى الحذر فيما أتناوله من غذاء ؛ ولكن الحياة الهنيئة هنا فى أرجاء الحريم لاتساعد مطلقا على اتباع أى نظام غذائى » .

– « من أين تنبعث هذه الأغنيات ؟ » .

– « أعتقد من الغرف المجاورة . إنهن بناتك يتلقين دروس الألعاب والرقص من مدرسيهن » .

وأخذ الفرعون للحظة يراقب الخدم وهم ينظفون الأرضية بالماء المعطر والنطرون وقال لها :

– « إن مهمة مراقبة أعمال الخدم لاتدخل فى نطاق مسئولياتك . ولكن هل أنت

راضية عن عملهم ؟ » .

فأجابته الأميرة السورية :

- « بكل تأكيد . إنهم يكنون لك كل الإخلاص والوفاء » .

أخذ رمسيس الثانى يتأمل فى حنين وأسى بالغ جدران هذه القاعة . فمن خلال رسوماتها البديعة ، بدت بعض الإوزات وهى تنطلق مرفرفة بجناحيها من الأيك الكثيفة على ضفاف النيل ونهر الفيوم ، وقد أحاطت بها نباتات البردى ذات الأغصان الباسقة الناعمة . وبدت بعض الطيور الأخرى وكأنها تحيط بأعلى الجدران . أما أرضية المكان ، فقد تناثرت فى أنحائها مناظر الورد الذى يغطى سطح البحيرات وبعض الأسماك وهى تقفز من داخل المياه . وتراءت زهور اللوتس وهى تتفتح متألقة . أما أعمدة القاعة نفسها ، فقد بدت قممها على شكل باقات من الزهور أو عناقيد من العنب وأحيطت أبواب القاعة بكسوة براقة لامعة ، بلون اللازورد .

وتراءت الأوانى المليئة بمختلف أنواع وأصناف الشراب والمأكولات هى الأخرى فى لون أزرق سماوى داكن . وأخذ الخدم والعبيد يتأهبون لوضعها فوق الموائد . وعلى جوانب الجدران ، نسقت بعض الصناديق المزخرفة ، تحليها نقوش مطعمة بالذهب والعاج ، وقد وضعت فوقها بعض الوسائد المصنوعة من جلد الماعز ، لتدعو الحاضرين إلى الجلوس والاسترخاء فوقها . وفوق قوائم الأبواب ، نقشت بعض فقرات من الشعر العاطفى الرقيق التى كان قد نظمها بعض الشعراء . وأحاطت أكاليل الزهور بأعناق الأوانى المستطيلة . وبدا المكان بأكمله وكأنه عالم من السحر والخيال .
وهنا قالت الأميرة السورية للفرعون :

- « هأنت قد ذهبت بعيدا جدا . فيم تفكر ؟ » .

- « فعلا . فلقد ذهبت إلى أبعد مما تتصورين . فى مساء أمس ، انتقلت بحواسى إلى العالم الآخر ، بجانب نفرتارى . والآن ، أشعر أن كل هذه الزخرفة والرسومات البديعة تذكرنى باحساسها الدافئ بالجمال . إن كل ذلك يتشابه تماما بما تضمنته حجرتها الخاصة من نقوش وزخرفة » .

- « إنك لا تقوى على نسيانها ؟ » .

- « إن ذكـراها تطاردنى فى كل لحظة وكل مكان . ولقـد تراءى لى هذا الحلم واضحا للغاية . فمن خلاله ، أخذ أوزوريس بيدى حيث قادنى إلى وادى الملكات » .

- « بل ربما أن روح نفرتارى قد أتت لزيارتك . وهذا أمـر طبيعى للغاية . فـهى الأخرى كانت تهيم بك حبـا . وهى مازالت تحبك حتى الآن وهى قـائمـة فى العـالم الآخر . ولابد أنكما سوف تتلاقيان يوما مـا . وحتى يجئ هذا اليوم ، لابد أنها سوف تكون سعيدة عندما تعلم أنك سعيد فى حياتك الدنيوية ، وأن مشاعر الحزن والأسى لا تنتابك أبدا . حاول أن تخفف عن نفسك ولتنس قلقك وأحزانك . إنك سوف تعيش هذا المساء أجمل لياليك . وأنا كفيلة بذلك » .

- « هأنا مسـتسلم لك ولأفكارك هذه . وأنا أعتـقد بالفعل أنك سوف تسـتطيعين التسرية عنى . فأنا كنت أعرف ذلك قبل أن آتى إليك هنا » .

وهنا أجابته الأميرة السورية وهى تمسك بيده بلطف وحنان :

- « هذا حسن جدا . لقد كنت أفعـل دائما مـا يرضيك وما يسعدك تبجيله . والآن ، حتى يحين الوقت ، هيا بنا نتوجه لزيارة أبنائك » .

وابتسم لها الفرعون وتبعها إلى مسكن أبنائه . وعند دخوله إلى هذا المكان ، سرعان ما سجدت المربيات راكعات أمامه لتحيته وتبجيله .

ويضم هذا المكان أيضا بعض أبناء النبلاء الذين يشاركون أبناء رمسيس الثانى دروسهم وتعلمهم . وكان الفرعون يكن حبا وحنانا أبويا خاصا لهؤلاء الصغار ، لدرجة أنه كان قد قرر أن يزوج البعض منهم من بناته عند بلوغهم السن المناسب . والجدير بالذكر ، أن هؤلاء الأبناء منذ بلوغهم العام الخامس من عمرهم ، كانوا يدرجون تحت رعاية أحد كبار الكتبة ليقوم بتعليمهم أصول الكتابة الهيراطيقية والنصوص المصرية القديمة . فهم على سبيل المثال ، يدرسون فن الكميت الذى يرجع إلى ما قبل المسيح بحوالى ثلاثة آلاف عام ، كما يدرسـون أيضا « ترانيم النيل » ونصائح أمنمحات الأول» . بل ويقومون بكتابة أمثال وحكم حرجدف ؛ من أجل استيعابها وحفظها . ثم يبدءون بعد ذلك ، بتعلم الكتابة التى ترجع إلى الدولة الحديثة . وأحيانا ، يقومون بالتدرب والممارسة لدى بعض كبار موظفى الدولة ، شأنهم كشأن الطلبة الصغار البسطاء . ولإكمال مثل هذه الدراسة ، يقومون أيضا بكتابة بعض النصوص المركبة .

ومثلهم كمثل الصغار الذين يتم إعدادهم لكى يكونوا كتبة ، فإنهم يلقنون أيضا علوم الجغرافيا ، والأساليب الأدبية المختلفة ، والإملاء والخط .

وعادة ، يدرج أبناء الملوك الذين أسرتهم مصر خلال الحروب فى نطاق هذه الدراسة . فإنهم يأملون بذلك ، أن يعودوا إلى أوطانهم فى يوم ما ، وقد أفعموا بهذا العلم . ولقد تقدم أحد هؤلاء « التلاميذ » نحو الفرعون وشكره على ما قدمه له من هدايا قيمة ، حيث قال له :

- « أيا حبيب آمون ، لتكن على يقين بأننى سوف أدين لك دائما بالمعروف لما قدمته لى من فرص التعلم والتثقيف بمصر » .

وهنا أجابه الفرعون :

- « إنك بفضل هذا التعليم تستطيع أن تصبح مستشارا أو موظفا مرموقا . وسوف ترتدى ملابس من الكتان الفاخر . وستملك العديد من الجياد ، والسفن ، والخدم والعبيد ، وقصوراً ومساكن فاخرة . وسوف تحظى بوظيفة على قدر كبير من الأهمية ، وسيقوم الفلاحون بزراعة أراضيك والعناية بها ، ويهب الخدم والعبيد إلى خدمتك . ولن تقوم أبدا بأى عمل مرهق . ولن تضع يدك أبدا فى الأعمال الخشنة مثل صناعة الصلصال ، ولن تصاب يدك بالخشونة والتسلخ مثل أيدى عمال النظافة الذين يقومون بأعمال غسل الثياب والملاءات فى كل بيت . وسوف تحظى دائما بالاحترام والتبجيل . فالمصريون هنا يعرفون كيف يقدرون الكفاءة والشجاعة ؛ وبالمثل ، لابد أن سكان بلدك يتميزون هم أيضا بالذكاء والإنصاف . سوف تقوم بدراسة تاريخ وطنك ، وقصص السحرة المصريين ، وحكايات بناة الأهرام ، وقصص الشرطة ، والنصوص المتعلقة بفجر تاريخ مصر ، وبطرد الهكسوس من أراضيها . ألم تقم فعلا بزيارة مقابر أجدادى العظام ، ملوك مصر السابقين ؟ » .

- « لقد فعلت ذلك مرارا . وأنا الآن أقرأ النصوص والقصص الشعبية التى حدثنى عنها أبناؤك . لقد أعجبتنى جدا أسطورة « الأخوين » وقصص الأشباح . وأنا أعشق الأشعار الغنائية التى كنت قد سمعتها خلال الاحتفالات التى تقام فى هذا الحريم . وقد وعدنى الكاتب بأنه سوف يلقننى البعض منها ، خاصة أنه هو الذى قام بنظمها » .

– « إذن ، لاتنس مطلقا ما قلته لتوك ؛ وبالتالى ، لن ينتابك أى قلق من غزو الفئران أو القطعان لمزارعك ، فإنك لن تصبح فلاحاً أبدا . بل ستصير أحد كبار موظفي الدولة . فالمزارع قد يتعرض لهجمات اللصوص . بل إن بعضهم يقول ، إن محصلى الضرائب يضطهدونهم ويسلبونهم كل ممتلكاتهم ، ليضطروا ، فى نهاية الأمر ، إلى العمل بالأجر فى المحاجر من أجل لقمة عيشهم . ولكن مصيرك أنت سيكون مختلفاً تماما » .

وبعد أن استمع الفرعون إلى عبارات الشكر والامتنان من جانب هذا الصبى ، قام بتفقد كافة حجرات الدراسة حيث يلقن الأولاد مختلف العلوم والثقافات . وبعد أن أنهى تفقده هذا ، ليتيح لهم الوقت لمواصلة انتباههم إلى مدرسيهم وجه سؤاله قائلا لزوجته السورية :

– « ألا تثقل عليك الحياة بوطئها داخل هذا الحريم ؟ » .

– « مطلقا . ولكن ربما يثير ضيقى بعض الألاعيب من جانب أقارب بعض زوجاتك الثانويات عندما يحضرن للإقامة هنا ، أو من جانب بعض مستشاريهن ؛ أو بسبب مشاعر الغيرة التى تعتمل فى قلوب بعض الأطفال تجاه بعضهم بعضاً .

وربما كان ذلك أمراً طبيعيا ومتوقعاً . فهم لايتساوون جميعا فى المكانة والمرتبة . كما أن الأطفال عامة ، لايستوعبون مطلقا مظاهر التفرقة واللامساواة » .

– « ولكن هذه هى سنة الحياة . وعليهم أن يفهموا ذلك ويستوعبونه وهم فى ميعة الصبا » .

ورمقته المرأة السورية بنظرة كلها عطف وحنان . حقيقة أن الفرعون كان متمرساً فى الشئون القومية والعالمية ، ولكنه لم يكن على دراية كافية لمعرفة مدى مقدرة الطفل على التكيف مع ما يحيط به . ثم وجه سؤاله لزوجته السورية :

– وزوجاتى الأخريات هل هن على وفاق ؟ » .

– « ربما ... عموما ، لم تحاول أى منهن فرض ابنها من أجل إزاحة الأمير ولى العهد . ولكن ، فى حقيقة الأمر ، أن جميعهن ، فى قرارة أنفسهن يودون أن يصبح أحد أبنائهن هو الأمير الذى سيتولى الحكم .

لا شك مطلقا أن ذلك سوف يكون بمثابة شرف عظيم ؛ عندما يصبح ابن أى واحدة منهن فرعوناً لمصر ! .... لاريب أنهن يحلمن دائماً بذلك . وفى نهاية الأمر ، يتسم سلوكهن ومعاملتهن معا بالعدوانية والشراسة . ويلاحظ أنهن ، عند حضورهن لهذا المكان لأول مرة يبدين الكثير من التحفظ والخجل . ولكنهن سرعان ما يبرزن مخالبهن ، وتعتقد كل واحدة منهن أنها المفضلة دون الأخريات ! » .

فرد عليها الفرعون قائلا :

– « فى حقيقة الأمر أنهن جميعاً مفضلات ؛ ولكن آمالهن هذه لاتتسم بالواقعية » .

– لقد سبق أن ذكرت لهن ذلك مراراً بدون جدوى » .

– « عموما فلتأخذى حذرك . فإننى لا أريد أن تتحول هذه المشاحنات إلى مؤامرات ، مثلما حدث منذ سنوات » .

– « أنت تشير إذن إلى ما حدث خلال عهد أمنمحات ، مؤسس الأسرة الثانية عشرة ؟ » .

– « بصفة عامة . أحيانا تلجأ النساء إلى التآمر مع بعض الجنود ؛ من أجل الإطاحة بالفرعون القائم على العرش » .

– « إن أحلامك المزعجة تجعلك تتصور أمورا سيئة للغاية . هل تخشى أن يجذبك أوزوريس نحوه هذا المساء إلى العالم الآخر ؟ ... فلتطمئن ، فالجميع هنا يكنون لك كل الحب ، ولو حدثت ذرة واحدة من التآمر ، لعرفتها على التو . إن ماعت – حور نفرو رع تعرف كل شئ » .

فقال لها رمسيس الثانى :

– « أرجو ذلك » .

بعد ذلك ، أسلم الفرعون مسامعه إلى الوعود الناعمة الخلابة من جانب هذه المرأة السورية . واحتسى معها بعض الشراب . وشاركها لبعض الوقت لعبة « السنت » (الضامة) حتى بدأ الليل يرخى بظلاله الرقيقة فوق جنبات الحريم . وعملت أضواء المصابيح على التخفيف من حدتها .

وعندئذ بدأت الخادمات يجهزن مأدبة العشاء . وتم نثر الزهور فى جنبات وأركان المكان فعطرته بأريج ساحر جذاب . وعبقت الروائح العطرية هذه القاعة الخاصة بالمآدب الكبرى . وتصاعدت روائح الطعام الشهى حتى تسللت إلى مختلف الحجرات ودخل الفرعون ، واحتل مجلسه ، وبدأ بعض الخدم يروحون حوله بواسطة المراوح الضخمة المصنوعة من ريش النعام . وبدأت زوجات الملك يتقدمن الواحدة فى إثر الأخرى ، كانت ثيابهن شفافة هفهافة ، لدرجة أن قسمات أجسادهن البضة قد تراءت من خلالها ، وهن قادمات . وبدت شعورهن المسترسلة على أكتافهن تتألق تحت أضواء المصابيح . وتراءت أسنانهن ناصعة البياض من خلال شفاههن المخضبة باللون الوردى . ولاشك أن كل واحدة منهن كانت تأمل فى تكملة ليلتها مع الفرعون .

ويبدون جميعاً حالمات هائمات وكأنهن بعض اليمامات التى تنتظر لقاء الحبيب . وعندئذ ، بدأت الخادمات يحضرن أطباقاً ضخمة مفعمة بالفواكه الناضجة الشهية المنظر .

ووقتئذ ، لم يكن رمسيس الثانى يستطيع أن يتأمل مشاهد الطيور المرسومة فوق جدران المكان ، وهى تنطلق من أيك نبات اللوتس الكثيفة ؛ ولا حتى الأسماك وهى تقفز من داخل المياه . فلم يكن يشعر وقتئذ إلا بتلك الروائح العطرة المسكرة ، التى تضمخت بها هؤلاء النساء الساحرات ذوات الشعر الأسود اللامع المسترسل والأساور الذهبية .

وبدأت نساء الفرعون يدخلن إلى القاعة ، الواحدة وراء الأخرى ، فى موكب يتكون من حوالى ثلاثمائة امرأة . وكان رئيس الحريم هو المكلف بتنظيم قدومهن . وأخذ رئيس الاحتفالات يساعده فى هذه المهمة ، وهو يبدى اهتماما دقيقاً بالأغانى التى كانت تشدو بها هؤلاء النساء زوجات الملك ، وأيضا بتنظيم صفوفهن . ومن مسافة ما ، وقف الرئيسان المنظمان للحفل يلقيان بتوجيهاتهما ، من خلال إشارات بسيطة من أصابعهما .

وبدأ موكب الزوجات ينساب وراء الفرعون . ثم اقتربن منه ، وألقين بالغلالات الشفافة التى كانت تغطى أجسادهن العارية من تحتها . وبدأن معا بضع خطوات راقصة ، بأجسامهن اللامعة الملساء ، وأظافرهن المطلية بنفس لون شفاههن الأحمر القانى ، وعيونهن المحددة تماماً بالكحل . وأخذت أحداهن زهرة ذات رائحة خلابة

وشبكتها فى رداء رمسيس الثانى . وقامت أخرى ، بقطع ثمرة ناضجة شهية لتضع قطعة صغيرة بأناملها الرقيقة بين شفتى الفرعون . ثم قامت إحداهن بتقريب لعبة « السنت » من رمسيس الثانى ، وأخذت ترص وحداتها وأجزاءها التى تبدو على شكل رءوس حيوانية . وكانت تعلم جيداً أن الفرعون شغوف للغاية بهذه اللعبة . ولكن ، على ما يبدو أن فكر الفرعون وحواسه ، لم تكن موجهة حينئذ ، نحو لعبة « السنت » .

وانتهت حفلة العشاء . وقام الفرعون متجها نحو حجرات زوجاته . وكانت كل حجرة من هذه الحجرات المواربة الأبواب ، يتوسطها سرير ضخم غطى بوسائد رقيقة ناعمة محشوة بزغب الطيور . وهنا ، همست زوجته السورية فى أذنه قائلة :

- « توقف هنا . وسوف أحضر لك بعض النبيذ والجعة . وعند الفجر ، عندما تستيقظ من النوم ، سوف تخرج فى رحلة نيلية بمركبك الذهبية ، ويصحبك عشر من أجمل نسائك وأكثرهن صبا وشباباً ، لايرتدين على أجسادهن سوى إكليل من الزهور . ووقتئذ ، سوف تحصل على قسط من الراحة ؛ وفى نفس الوقت تمتع نفسك بمناظرهن أثناء تجديفهن بالمركب . وبينما تغوص المجاديف الذهبية المرصعة بالأحجار النفيسة فى صفحة مياه النيل ، تكون أشعة الشمس المشرقة قد بدأت تشع بدفئها عليك ، لتمنحك الراحة والاسترخاء بعد هذه الليلة » .

كان الفرعون يشعر وقتئذ ، أن كل امرأة بداخل هذه الحجرات ، تتسارع دقات قلبها متسائلة عما إذا كانت هى التى سوف يقع عليها الاختيار فى هذه الليلة . ومن خلال الظلال الواهية بهذا المكان ، تسللت كافة المشاعر والأحاسيس المتضاربة والمتباينة : الجشع والطمع ، والترقب والأمل ، والحب والطموح . ولاشك أن كل واحدة من زوجات الفرعون كانت تأمل فى إقناعه بأن يختار ابنها ولياً للعرش . بل إن الكثيرات منهن كن يأملن فى أن ينجبن له ابنا يفوق جميع أبناء الزوجات الأخريات فى قوته وبسالته .

كان رمسيس الثانى يعلم جيداً ، أنه كلما زاد عدد أبنائه ، زادت فى نفس الوقت فرص التشاحن والتنازع بين زوجاته . بل لم يكن الفرعون يستبعد أبداً ، والحال هكذا ، أن يقوم أحد هؤلاء الأبناء بمؤامرة ضده ، بعد أن يورط معه عددا من ضباطه وجنوده .

وفى نهاية الأمر ، دخل الفرعون إلى الغرفة التى أشارت عليه بها زوجته الحيثية . وهناك ، وجد أمامه امرأة ممشوقة القوام ، لاتضع على جسدها سوى وشاح شفاف رقيق للغاية . ولم يكن قد رآها خلال مأدبة العشاء . كانت تبدو شابه يافعة ، تتسم ملامحها بالنقاء والبراءة وكأنها لم تعرف من قبل متع الحب ولذته . ووجد الفرعون أنها تكاد ترتجف خجلا واضطرابا . ولذا ، جذبه إليها صباها الغض الظاهر للعيان . وسقط وشاحها الشفاف على الأرض ؛ وهنا ، بدا لرمسيس الثانى ، أنه يسمع ثانيا هذه الأغنية الشعرية العاطفية ، التى كان يسمعها فى الماضى ، خلال لحظاته الحميمة العزيزة إلى قلبه مع نفرتارى : « إن سحرك يشعل الحيوية والنشوة فى كل جسدى ؛ وصوتك يعيد الحياة إلى قلبى من جديد ، إننى مغرم بك طوال الليل وأثناء النهار ؛ وكأننى ثمرة بلح تذوب فى العسل ، سوف نتلاقى معا . فياليتنى كنت خاتما حول إصبعك ، حتى لا أبعد عنك أبداً . لقد استوليت على شغاف قلبى وأنت تنظرين إلى بكل ما تملكينه من صبا وجمال » .

وفى هذه اللحظة فقط ، شعر رمسيس الثانى ، وكان التى بجواره هى نفرتارى ، بفضل الظلال الواهية التى كان إله الظلام قد نشرها من حولهما . ولذا ، فقد شعر أخيرا بالسعادة ....

فى أحد الأيام ، وجهت «بنت عنات» كلامها إلى الفرعون ، وكانت قد أصبحت بالفعل مستشارته القديرة الواعية التى يعتمد كثيرا على آرائها وأفكارها ، قائلة :

« عليك أن توجه دعوة لهاتوسيل للحضور هنا وقضاء بعض الوقت » .

وعلى الفور ، أرسل رمسيس الثانى بخطاب إلى ملك الحيثيين ، ووعده أنه سوف يحضر لاستقباله فى « كنعان » ، ولكن ، على ما يبدو ، أن « هاتوسيل » لم يكن يطيب له كثيراً القيام بمثل هذه الرحلة. فقد كان يعانى كثيراً من التهابات مبرحة فى قدميه ، مما جعله عاجزاً تقريباً عن الانتقال لأى مكان . ولذا ، ففى أحد الأيام ، كتب رسالة إلى رمسيس الثانى يقول له فيها : « لو كان الأطباء الحيثيون فى نفس براعة الأطباء المصريين ، لكنت شفيت مما أعانيه فى قدمى » . بل لقد طلب منه أيضاً ، أن يبعث إليه بطبيب مصرى من أجل معالجة الملك « كوروبتا » وكذلك أخته التى تشكو من العقم وعدم الإنجاب .

حقيقة أن رمسيس الثانى قد بعث إلى الملك بالطبيب الماهر المتمرس فى علوم الأعشاب ومفعولها الساحر ؛ ويدعى «بورى نخاو» ؛ ولكنه ، فى نفس الوقت ، بين له أنه غير قادر على مساعدة أخته العاقر على الإنجاب . ولذا كان يقول لـ « بنت عنات » ساخراً ، وهو يتحدث معها عن مطلب ملك الحيثيين هذا :

- « *إنها فى الستين من عمرها . فأين هو هذا الطبيب الذى يستطيع معالجتها من أجل أن تنجب فى مثل هذه السن ؟!* » .

وهنا أجابته «بنت عنات» قائلة :

- « إذن ، ابعث إلى صديقك ، ملك الحيثيين ، بأحد السحرة المتمرسين فى هذا الشأن . فلا شك أن ذلك سوف يسره كثيراً ، ويعيد بعض الأمل إلى أخته العاقر » .

بعد ذلك ، اقترح ملك الحيثيين على الفرعون أن يبعث إليه بنتاً أخرى من بناته لكى يتزوجها . وهنا ، أسر الفرعون إلى الملكة بنت عنات قائلا :

- « إننى ، كما تعلمين ، لا أستطيع أن أرفض له هذا الطلب » .

فأجابته الملكة بمزيد من الثقة بنفسها :

- « خاصة أن مهرها يبدو هائلا » .

ولم يقل هذا الزواج الثانى أبهة وفخامة عما سبقه . وقدم ملوك البلاد الخاضعة لمصر هم أيضاً كميات ضخمة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة إلى فرعون مصر وقبل وصول الأميرة ، بعث ملك الحيثيين إلى الفرعون بغنائم هائلة ، وبأعداد ضخمة من الجياد وقطعان من الماعز لا أول لها ولا آخر . ووفقاً لما ذكره الشعراء المصريون فى أشعارهم وقصائدهم : ليس الجنود أو كبار موظفى الدولة هم الذين أحضروا إلى مصر كل هذه الهدايا والنفائس ، بل الآلهة نفسها هى التى أرسلتها » .

* * *

واجتمع كبار القوم وموظفى الدولة ، وهم مرتدون ثيابهم الرسمية المتباينة الألوان بقاعة الاحتفالات بالقصر الملكى ، وجلسوا مترقبين ، صامتين حول رمسيس الثانى ، لعلمهم بأهمية هذا الزواج الجديد الذى يتسم بالسمة الدبلوماسية الواضحة . وكان عرش رمسيس الثانى ، قد أقيم لهذه المناسبة ، فوق منصة عالية . وبدت الملكة « بنت عنات » جالسة بجوار الفرعون . وكذلك وقف أبناؤه خلفه . وبدا أفراد العائلة الملكية جميعاً ، عندئذ ، وهم يشعون تألقاً وإبهاراً ، بما يرتدونه من مجوهرات فائقة الروعة والجمال . وقبيل وصول الأميرة الحيثية ، بدأ استعراض أحد المواكب الفخمة الهائلة أمام الفرعون . لقد كان موكباً لانهائياً ، لايمكن للعين المجردة أن تحدد مداه . ففى الوقت الذى كان فيه الأفراد الحيثيون السائرون فى مقدمته يقومون بتحية الفرعون فى ساحة قصره ، لم يكن القائمون فى نهايته ، قد وصلوا بعد إلى أبواب بى - رمسيس . وتضمن الموكب أيضاً ، عدداً كبيراً من الفتيات الرائعات الجمال اللاتى تحلين بعقود وأكاليل الزهور . بل وتضمن أيضاً ، عند نهايته ، عدداً ضخماً من قطعان المواشى والجياد .

وبدا رجال الحرس وهم يرقبون فى همة وتيقظ بالغ ، مرور العربات بهذا الموكب . وحقيقة أنهم قد قطعوا رحلة شاقة مضنية ، ابتداء من العاصمة السورية ، وحتى دلتا النيل ، ولكنهم بالرغم من ذلك قاموا بمهمتهم هذه على خير وجه . فقد كانوا على يقين ، أن ملك الحيثيين ، سيدهم ، وكذلك فرعون مصر سوف يجزلان لهم العطاء ويكافئانهم على حسن أدائهم وشدة تيقظهم . وعندئذ ، أخذت تمر أمام الفرعون بعض العربات المحملة بالالات الموسيقية ، وبصناديق المجوهرات النفيسة ، وبالذهب والفضة والأوانى القيمة والأحجار شبه النفسية .

ثم تراءت الأميرة الحيثية بمرافقة وصيفاتها الجميلات النبيلات وعدد كبير من الخدم صغار السن ، ثم مجموعة أخرى من العبيد الأكبر سناً الذين يتسمون خاصة بقوة البأس والشكيمة . وبدت الأميرة فى رداء ناصع البياض . وحول عنقها وفوق صدرها تدلى عقد كبير ضخم يتألق باللون الأحمر والأزرق والأخضر . وبدا رداؤها على نفس طراز الثنيات الرقيقة السائد لدى المصريات . وفوق شعرها المستعار القصير تألق إكليل بديع من الورود الزكية العطر .

وبدا الفرعون منبهراً بجمال وفتنة الفتيات اللاتى كن يتقدمن الأميرة الحيثية التى بدت جالسة فوق عربتها الخاصة . ثم نزلت الأميرة من مركبتها ، وسارت نحو مقر عرش الفرعون ، وقد أحاطت بها حاشيتها ووصيفاتها ، وصديقاتها ، وكل ما يتضمنه مهرها . بعد ذلك ، تقدمت إحدى العربات الضخمة المحملة بمختلف أنواع الأسلحة وكانت تتضمن العديد من الأقواس ، والسهام ، والرماح ، والخناجر ، والسيوف القصيرة والدروع التى زينت ونقشت عليها بمهارة فائقة مناظر حربية أو مشاهد أسطورية .

بعد ذلك ، تقدمت عربة أخرى تضمنت على متنها كنزاً بكل معنى الكلمة ، بالإضافة إلى عدد كبير من قطع الأثاث الثمينة الفاخرة : صناديق مطعمة من كافة الأحجام والأشكال ، مقاعد فاخرة بزخرفه رفيعة المستوى ، ومناضد صغيرة مرصعة ويمكن ثنيها أو فردها ، مقاعد ذات قوائم منحوتة على هيئة قوائم الأسد ، وأسرة مصنوعة من الخشب الأفريقى المطعم برقائق الذهب والعاج ، وجلود الحيوانات الضارية ، وحقائب من الجلد الثمين .

ولقد أثار انتباه الفرعون عندئذ ، صندوق ضخم عملاق ، تتراءى عند حافته العليا رأس زرافة . ولاحظت الأميرة الحيثية ما بدا على وجه الفرعون من اندهاش وعجب فارتسمت على شفتيها ابتسامة طفيفة غامضة . ثم قامت بتحيته فى احترام وتبجيل واضح ؛ خاصة أن أباها كان قد نصحها بذلك قبيل مجيئها . ثم بدأت توضح له ما أثار عجبه ودهشته منذ لحظات :

- « هذه الزرافة موطنها أراضى النوبة . أما الثيران التى ترافقها ، فإن أبى يهديها إليك بالإضافة إلى ما كان قد وعدك به . إنه يقدمها لك خاصة من أجل احتفالات عيد الأوبت القادمة » .

وعندئذ ، تراءت علامات الارتياح والرضا على وجه رمسيس الثانى . وأجابها قائلا :

– « إن أخى ملك الحيثيين قد أوفى فعلا بعهده . وأنا أشكره كثيراً لكل ما قدمه من هدايا وأيضا لإضافة هذه الحيوانات العجيبة النادرة إلى هداياه العديدة » .

ثم قام الفرعون من فوق عرشه وهو يقول للأميرة :

– « إننى أتقدم بالشكر لآمون ، الذى أرسل إلى بأميرة بكل هذه الفتنة والجمال . فلتعم نضارتها وتألقها بأرجاء قصرى هذا . ولتعمل على إشاعة البهجة والسعادة فى كافة أنحائه . والآن سوف تبدأ المراسم والاحتفالات . فهل أنت على استعداد لتقبل واعتناق العادات والتقاليد المصرية ؟ » .

فأجابته الأميرة فى لهجة واثقة :

– « قطعاً يا ابن الإله رع » .

وأضاف الفرعون قائلا :

– « لقد استيقظت مبكراً خصيصاً من أجل أن أستقبلك . وحينما كنت جالساً فوق مقعدى ، وقد أحاط بى الخدم وهم يحضرون طستا وبعض أباريق المياه لكى أغتسل ، وبعض المراوح الكبرى ، كنت أفكر فيك . و وقتئذ ، كان بعض كتبتى يقرءون على بريدى الخاص ، ويدونون آخر قرارتى وأوامرى ، ومع ذلك ، كنت أعود إلى التفكير فيك : لقد كنت أحر من النار على الجمر ، ومتلهفاً إلى أقصى درجة لرؤيتك . فإن أباك ، من خلال رسائله إلى ، كان قد أشاد كثيراً بجمالك ومحاسنك » .

وعندما لاحظ الفرعون أن الأميرة الحيثية قد بدأت تنظر إليه فى قلق واضح ، قال لها :

– « اطمئنى تماماً . إن الوصف الذى ذكره أبوك عنك ، يقل كثيراً عن الحقيقة الماثلة الآن أمامى . وعليك منذ الآن وصاعدا ، أن تتبعى العادات والتقاليد القائمة فى هذا القصر . إن المصريين يعيشون على إيقاع فيضان النيل ، الذى يقوم بحمايته ورعايته كل من الإله «حابى» وزوجته «ربيت» . وفى شهر يونيو من كل عام ، يهدد الجفاف كافة أنحاء مصر . وبعد ذلك وعلى مدى أربعة أشهر كاملة ، تغطى مياه النيل الأراضى الزراعية بالوادى . وعندئذ ، يحتفل المصريون بهذا الفصل الذى يسمونه

« الآخت » . ثم يحين بعد ذلك فصل بنر الحبوب ، أى فصل « البريت » ، ثم يليه فصل المزروعات . وعندما يستهل النيل فيضانه ، فسرعان ما تبزغ النجمة «سوتيس» فى السماء . ويعتبر ذلك بمثابة أول العام الجديد . وعندئذ ، تقام الاحتفالات بالعيد « أوبت » .

وحقيقة أن الأميرة كانت تلم إلماماً تاما بالعادات والتقاليد المصرية ، ولكنها ، بالرغم من ذلك ، أخذت تنصت إلى الفرعون باهتمام واضح . وأضاف الفرعون قائلا :

– «لقد خلع كهنتنا أسماء محددة على كل ساعة من ساعات النهار والليل . وإذا لم تتمكنى من تذكر هذه الأسماء ، يمكنك أن تستعينى بالأرقام . وإذا ما انتابتك ، أثناء نومك ، بعض الأحلام المزعجة ، فعليك بالاستحمام ببعض الأعشاب المبللة بقطرات من الجعة ، بالإضافة إلى بعض البخور العطرى ، وامسحى وجهك بهذا الخليط ، فإننى لا أحب مطلقاً أن تغزو الكوابيس والأحلام المزعجة مقار حريمى أو قصرى وسوف أقوم بنفسى باختيار أسماء أبنائنا . وسوف أكلف العديد من الخدم والعبيد بخدمتك وتلبية أوامرك . وأخيراً ، عليك أن تعرفى أن المصريين يستيقظون عادة منذ بزوغ الفجر .

وعليك ألا تنصتى إلى شكاوى وتظلمات المزارعين الذين يفدون إلى مقر الحريم لتقديم شكواهم . فهم يدعون أنهم يلقون معاملة سيئة ، ويتعرضون لضرب مبرح ، ويئنون دائما من ثقل وطء الضرائب عليهم ، ومن اللصوص الذين يعتدون على مزروعاتهم وممتلكاتهم . وحقيقة الأمر ، أنهم يغالون فى تظلماتهم وشكواهم هذه . وحتى مزارعو الكروم ، يبدون دائما عدم رضاهم ، بالرغم من أننى أقوم بشراء نبيذهم بأسعار مرتفعة.إننى أفعل ذلك ، بالرغم من توافر مزارع الكروم الملكية بمنطقة الدلتا ، وبالرغم من أن مخازن القصر تتضمن المئات من جرار النبيذ ، التى سجل عليها تاريخ جمع محاصيل العنب وأسماء من يقومون بهذه الأعمال . وفى موعد جمع المحاصيل ، يقوم الكتبة المختصون بتسجيل كل شئ فى دفاترهم . ثم يقومون بإرسال الإنتاج إلى مخازن الغلال الخاصة بمختلف الموسسات وإلى الخزانة الملكية . ولكنى قبل ذلك ، أخصص قدرا كبيرا منها من أجل الفلاحين .

ولقد عملت على زراعة العديد من أشجار الجميز ، وأشجار الچوچوبا ، والتمر ، من أجل أن تضفى ظلالها على الأرض الزراعية . وإذا كانت مياه الرى غير كافية ، فإننى أعمل على تنشيط أعمال الزراعة ، بواسطة المحاريث أو قطعان الخنازير . فهأنت تلاحظين أننى أهتم بتوفير عوامل الرخاء والازدهار بين أفراد الشعب » .

فأجابته الأميرة قائلة :

– « أيا ابن آمون ، إننى لا أشك فى ذلك مطلقا » .

بعد ذلك أشار الفرعون بيده لكبار موظفى الدولة ووجهائها من أجل أن يقتربوا . ثم صعدت الأميرة إلى المنصة من أجل أداء المراسم الرسمية . وهنا بدأ سرد مسهب لما يجب أن تتمتع به الأميرة من حقوق ؛ والهبات والهدايا التى يجب أن يتبادلها الزوجان فى هذه المناسبة ؛ وكذلك ما يتحتم على الفرعون من واجبات تجاهها . وفى نهاية هذا السرد المستفيض ، الذى يتسم إلى حد ما بعبارات الزهو والتفخيم الزائد عن الحد ، والذى استمع الجميع إليه فى اهتمام بالغ ، أعلن الفرعون بصفة رسمية :

– « إنها زوجتى وأنا زوجها من الآن وإلى الأبد » .

وكررت الأميرة نفس العبارة بصوتها الناعم الرقيق :

– « ها هو زوجى . وأنا زوجته من الآن وإلى الأبد » .

وأضاف الفرعون :

– « إننى أشكرك لمساهمتك فى ازدهار مصر وتألقها ؛ فأنت عندما تنجبين لى أبناء آخرين ، ستعملين بالتالى على تقدم مصر وازدياد رخائها . وحقيقة أنك لن تحوزى على نفس امتيازات واختصاصات « الزوجة الملكية المعظمة » ، ولكنك ، بالرغم من ذلك سوف تنعمين بكل مظاهر الحب والاحترام والتبجيل » .

وانحنت الأميرة أمام رمسيس الثانى وأمام العائلة الملكية . وعندئذ ، استهلت مظاهر الفرح والسرور . وأخذ أفراد الشعب يهتفون ويهللون محيين الزوجين الجديدين وقد غمرتهم السعادة لأن هذا الزواج سيعمل على توطيد أواصر الصداقة بين ملك الحيثيين وفرعون مصر . وأخذ التجار والرحالون يعبرون عن ارتياحهم ، لأنهم سوف يتمكنون من الآن فصاعدا ، من التنقل ما بين البلدين فى حرية تامة . وسعدت النساء كثيراً ؛ لأن أبنائهن سوف يبقون بجوارهن ، ولن يتركوهن من أجل الاشتراك فى المعارك الحربية .

وأقيمت المـآدب والأعياد فى كل بيت . وقام كبار القوم ووجهاؤهم القاطنون فى ضياعهم المترامية الأطراف ، بضواحى مصر المختلفة ، بإقامة الحفلات الكبرى ودعوة جميع أصدقائهم ومعارفهم . وارتدى المصريون أجمل أثوابهم وأكثرها فخامة والمصنوعة من أرق وأغلى أنواع الكتان ثمناً . وزينت المنازل الفخمة الفاخرة الواسعة الأرجاء بالورد والرياحين . وكذلك الأمر بالنسبة لمنازل العامة البسطاء . وجهزت كلاب الصيد المدربة ، وأخرجت الجياد من أجل القيام برحلات الصيد ، وعندئذ ، كان كبار الملاك ينطلقون من أجل اقتناص بعض حيوانات الصحارى التى يكرسونها من أجل الإله رع . وهرع النبالون من أجل المساهمة فى رحلات الصيد ، وانطلق الصيادون بمصاحبة جامعى عسل النحل والراتنج الصمغى . واندفعت أسراب الإوز والغزلان والوعول تمرح فى أنحاء البساتين بكامل حريتها .

وجهزت الحدائق المترامية الأطراف التى تظللها أشجار مختلفة الأنواع والأشكال ، وتحيط بها كروم الأعناب ، وكذلك ، الجواسق المتعددة من أجل استقبال المحتفلين . وفى كل مكان ، أعدت وجهزت أكواخ خشبية تقدم بها مختلف المشروبات المنعشة . وقام العديد من الخدم على العناية بأحواض المياه التى تتألق على صفحتها زهور عرائس النيل ، وحيث تسبح أسراب البط ، وتنساب بعض القوارب الصغيرة من أجل النزهة والترويح عن النفس ، تحت أشعة الشمس الدافئة .

وفى منف وطيبة ، كما هو الحال فى بى – رمسيس ، بدا كبار موظفى الدولة ووجهاؤها على أتم استعداد لاستقبال ضيوفهم . فقد حلقوا ذقونهم ، ودلكوا أجسامهم بالبخور العطرى ، واغتسلوا بمياه النطرون ، وتمضمضوا بالمياه المالحة (بد) ، وزينوا صدورهم بالعقود الرائعة المتعددة الصفوف المصنوعة من اللآلىء وأحجار الجاد النفيسة ، وصففوا شعورهم المستعارة . بل وارتدوا أفخر ثيابهم الطويلة المصنوعة من أجود أنواع الكتان ، ذات الثنيات العديدة . وأعدوا أدوات المائدة الخاصة بالمناسبات الكبرى ، والمصنوعة من المرمر والخزف الملون ، والمزينة بمناظر الورد أو ببعض الرسوم الهندسية . ونسقت الموائد بالعشرات من أطباق المأكولات الباردة . وجهزت الحصائر من أجل من يرغبون فى تناول طعامهم على انفراد . أما من يفضلون الجلوس أمام المائدة ، فقد أعدت من أجلهم العديد من المقاعد العميقة ذات الظهر العالى والمسندين ، أو المقاعد البسيطة الدارجة الاستعمال .

وفى منازل الأثرياء الفخمة ، نثر الورد فوق أسطحها وغطاها تماما . و وزعت فى كافة أركانها المقاعد ذات الوسائد من أجل استقبال المدعوين . وبدت النساء وقد ضمخن شعورهن المستعارة بالدهانات العطرية .

وأخذت الراقصات تتمايلن على أنغام عازفي العود والفلوت .

وبداخل بيوت العامة المتواضعة ، المشيدة من قوالب اللبنة ، والمكسوة بغرين النيل ، بدت الفرحة والأبتهاج مماثلة تماماً .

بعد أن تناول الفرعون غدائه المكون من اللحوم الحمراء ، والأسماك المجففة المملحة تحت أشعة الشمس ، والسمان المشوى ، توجه بعد الظهيرة إلى جناحه الخاص بمصاحبة عروسه الجديدة . هناك قام أحد خدمه بخلع قميصه ، وألبسه خفاً خفيفاً مذهباً . وكان رمسيس الثانى ، حينئذ ، ما يزال يضع الحية الحامية وتاج مصر العليا والسفلى . قدم الفرعون باقة ورد صغيرة إلى زوجته الأميرة . وأخذ يتضمخ ببعض العطور المنعشة ، حيث نثرها فوق ذراعيه وكتفيه . قامت الأميرة لتركع عند قدميه . وجلست فوق وسادة مخملية وردية اللون . وتركت ردائها الهفهاف الناعم ينساب عن كتفيها ، ليبين عن جسدها الرائع البياض ، الذى يروق خاصة للفرعون .

عندئذ بدا الخادم اكثر حذراً وحرصاً فى تحركاته بالغرفة واحضر بعض المزاهر الفضية من اجل طرد الارواح الشريرة ؛ بالإضافة إلى بعض الصناديق المتضمنة لمهر الاميرة ، وبعض مساند الرأس الخشبية التى رسم عليها الإله « بس »، الذى يبدو قبيح الشكل ؛ ولكنه يتسم بالطيبة والود ، ويعمل على إبعاد الارواح الضارة .

وقام الخادم بإطفاء بعض الشموع ، ثم سكب قليلاً من العطر على الباقى منها الذى ظل مشتعلاً . وفى النهاية جلس بجوار سيده وأخذ يروح له بواسطة ريشات النعام الضخمة . ولكن الاميرة ، برغم حداثة سنها ،كانت تتسم بالفطنة والذكاء فأشارت له بأن يعطيها المروحة التى فى حوزته وأخذت تدغدغ بها كتفى رمسيس الثانى فى حركة رقيقة منتظمة وعندئذ ، قال رمسيس الثانى لخادمه :– «يمكنك ان تخرج الأن» .

وهنا ، مدت هذه العروس الجديدة يدها إلى زجاجة صغيرة أنيقة كان الخادم قد وضعها بجوار سيده، وبدأت تضمخ جسد الفرعون ، ببطء وبرقة متناهية، ببعض ما تحتوية من زيوت عطرية أخاذة . وخلال عملها هذا ، كانت تهمس فى أذنه قائلة :– « اليوم ، انا المفضلة لديك .لقد كنت ، وانا فى سوريا ، اقوم بزراعة الكثير من النباتات؛ فلتضع انت النبتة التى سأنجب بها ابناً قويا ، بداخل جسدى المتعطش لذلك .لتتحسس كل أجزاء جسدى بيدك هذه »، فإننى سعيدة بارتباطنا معاً . إن عبيرك يسكرنى ويخلب لبى. وكأنه نبيذ مسكر » .

وصوتك يدغدغ حواسي ، وكأنه صوت احد الشعراء. أريد ان ارتوى منك . ولا اعيش إلا من أجل حبك »

وتمدد الفرعون قليلا فوق اوراق الزهور التي غطت كل ارضية الغرفة. ثم قام ، بعد ذلك ، في غرفته شبه المظلمة هذه ، واصطحب الأميرة إلى سريره الذهبي . وعلي مقربة من السرير كان يتراءى تمثال اله الخصوبة والولادة . وعمل احد المصابيح الخافتة بجوار سريرهما ، علي اظهار ظل الفرعون وزوجته فوق جدران الغرفة . وهمس الفرعون في اذنها :

– « إن ثدييك يشبهان فى عبيرهما كافة عطور أشجار مصر . وقلبى شغوف ومتعطش لرغباتك » .

ولقد سجلت بعض الكتابات علي عدد من اللوحات التذكارية احياء لذكري هذا الزواج. ولكن ، سرعان ما انضمت هذه الملكة الجديدة إلى أختها الكبري في حريم الفيوم .

* * *

كان رمسيس الثانى يشعر بأنه قد حصل فعلا على ما يتمناه . فها هو قد كون أسرة كبيرة ، وفقا لما كان يرغبه دائما .

أنها أسرة ضخمة تتضمن العديد من الزوجات اللاتي يطبْن له كثيرا ، واللاتي أنجبن له عدداً هائلاً من الأبناء. لدرجة أنه يصعب الآن تحديد عددهم تحديداً مؤكداً ، وذلك لكثرتهم . ولكن ، واحدة فقط ، ضمن كل هؤلاء الزوجات هى التى جعلت الدموع تنساب من مقلتيه : إنها نفرتارى .

وبالرغم من ذلك ، فإن هذا الفرعون قد عاش حياة مفعمة ومليئة بالأحداث . إنه من عظماء البناة والمنشين . بل هو محارب مغوار لايشق له غبار .

ولم يكن للفراغ أو التراخي فى حياته وجود ، ومع ذلك فإن حريمه كان بالنسبة له من الأمور الحيوية المهمة . وكان له فى كل بلد من بلاد مصر ، مقر خاص بحريمه ينزل به وقتما يشاء ؛ خاصة خلال رحلاته التفتيشية ، بل كان لرمسيس الثانى حريمه الخاص منذ أن كان شريكاً لأ بيه فى الحكم . وخلال فترة حكمه المديدة ، صاحبته على العرش ست ملكات معظمات . وعسى ألا يعتقد البعض أنه ، لتعدد زيجاته هذه ، كان لا يقدر المرأة حق قدرها . بل على العكس ، إن رمسيس الثانى كان شغوفاً جداً بالنساء ومحباً لهن إلى أقصى درجة .

ولاشك أن أول من أحبها ، هى أمه تويا » ، التى مثلها من خلال العديد من الرسوم البارزة فوق جدران المعابد والنصب . وهناك العديد من تماثيلها بمعبده بالرمسيوم بطيبة ، وأيضا فى بى – رمسيس ؛ وغالبا كانت تمثل بجواره بمصاحبة نفرتارى وأبنائهما ، بصفة خاصة فى أبو سمبل . ولقد كرس من أجلها عدة معابد . وبذا ، نجد أنه قد شيد من أجلها ومن أجل نفرتارى معبداً صغيراً فى طيبة بتميز بقمته الرائعة المصنوعة من الحجر الجيرى ؛ ومثلت فوق جدارنه مشاهد لأجداده العظام ، وخلد الفرعون الإله آمون الذى أنجبه .

بعد أن توفيت « بنت عنات » « ومريتآمون » أصبحت « نبتاوى » « الزوجة الملكية المعظمة ولقد شيد الفرعون من أجلها مقبرة فى وادى الملكات مثلها مثل بقية زوجاته ، ولقد أدرجت الأميرة « هنتمنرع » أيضا ضمن قائمة زوجات الفرعون . وحقيقة أنه اتخذها هى أيضا ، « كزوجة ملكية معظمة » ، ولكنها لم تكن تصاحبه فى الاحتفالات والمراسم . ولقد مثلت مراراً فوق جدارن المعابد والنصب ، ويمثلها أحد التماثيل بمصاحبة الملكة الأم « تويا » ولقد شيد الفرعون مقبرة خاصة بها فى طيبة . وكان للفرعون أخت تدعى « تى » . وقد شغلت وظيفة « كاهنة آمون » . وتزوجت ممن يدعى « تى عا » ، قبل أن يرتقى رمسيس الثانى العرش . وبعد ذلك ، خلع الفرعون على « تى – عا » لقب « رئيس خزانة الرمسيوم » .

لقد امتد العمر برمسيس الثانى إلى ما بعد وفاة الكثير من بناته . وكان يخص البقية منهن بمعاملة كلها ود وحنان . وهكذا ، نجد أنه قد أنعم على الأميرة « إيزيس نفرت » الصغيرة » بضياع مترامية وقطعان هائلة من المواشى .

أما عن الأمراء أولياء العهد ، فقد تتابعوا الواحد بعد الآخر ، دون أن يعتلى أحدهم العرش . لقد توفى رمسيس الثانى فى العام السادس والخمسين من فترة حكمه . ولقد حمل « خع إم واست » ، ثانى أبناء « إيزيس نفرت » ، لقب وريث العرش خلال خمس سنوات . بعد ذلك ، خلفه فى هذا المنصب ، أخوه « مرنبتاح » . وهو الذى اعتلى العرش بعد ذلك ، بالرغم من أنه لم يكن يتصف بأيه صفات تؤهله لذلك . خاصة أنه لم يكن سوى الابن الثالث عشر لإحدى زوجات رمسيس الثانى الثانويات .

ولاريب مطلقاً أن رمسيس الثانى كان يفضل كثيراً أن يخلفه على العرش أحد أبناء نفرتارى . ولكن القدر كان قد قرر عكس ذلك .

ولقد امتدت سنوات عمر رمسيس الثانى إلى ما بعد وفاة زوجته الملكية المعظمة « الأولى » نفرتارى ، بحوالى أربعين عاماً .

الملكة " تى "

و

رمسيس الثالث

- ١ -

كان الليل قد أرخى سدوله منذ فترة ما على قصر بى - رمسيس ، مقر الفرعون رمسيس الثالث . وبدا كل شئ ساكناً . والجميع نيام . ولكن ، بداخل الأجنحة الخاصة بنساء الحريم الذى يتبع الفرعون فى كافة تنقلاته وأسفاره وحملاته الحربية ، قضت إحدى زوجات رمسيس الثالث ليلتها ساهرة ، لم يغمض لها جفن . أخذت تتأمل السماء المبرقشة بالنجوم ، وأحياناً كانت ترنو بنظرها ، نحو ابنها المستغرق فى نوم منتظم عميق ، هذا الابن الذى أنجبته من فرعون مصر . إنها تكن لابنها « بنتاورت » هذا عاطفة جياشة لاحدود لها . وربما أن كل هذا الحب الذى تكنه له مبعثه أنه ابن فرعون مصر ؛ ولكن لاشك أنها كانت ترى أنه يتمتع بمزايا وصفات طيبة كثيرة أخرى . لقد مضت عليها أشهر عديدة وهى تفكر فى هذا الأمر : من حق « بنتاورت » أن يعتلى العرش بعد موت أبيه . ولكنها ، بالرغم من ذلك ، ترى أن هذا الحلم لايمكن تحقيقه ، وأن الأمير ولى العهد على وشك أن يتسلم مقاليد منصبه كفرعون على عرش مصر . فها هى بعض الأقاويل قد انتشرت عن قرب وفاة رمسيس الثالث . بل لقد رأته فى كثير من الأحيان وهو لايكاد يستطيع السير على ساقيه من شدة ما يعانيه من آلام .

وأخذت تقول لنفسها : سوف ينتقل الفرعون إلى العالم الآخر . فلماذا إذن ، لا يحل مكانه فوق العرش ابنى « بنتاورت » بدلاً من الأمير ولى العهد ؟! أليس « بنتاورت » هو أيضا أحد أبناء رمسيس الثالث ؟! .

وتناهى إلى سمعها وقع أقدام قادمة من الممر . ويبدو أن إحدى نساء الحريم كانت مستيقظة هى الأخرى . وجاءت لملاقاتها ، متوخية الحرص الشديد حتى لايراها أحد . وتسللت المرأة بداخل غرفة « تى » ، ثم اصطحبتها إلى الخارج . وهنا ، سألتها زوجة رمسيس الثالث قائلة :

- « إذن ماذا عساك فعلت ؟ » .

- « هناك ثلاث نساء قبلن الانضمام إليك . وهن يشترطن انضمام مفتشى الحريم إلى المؤامرة . ولكن ماذا تزمعين بالتحديد ؟ » .

- « وماذا عن رمسيس الثالث ؟ » .

– « إنه طاعن فى السن فلو أننا عملنا على إرساله إلى العالم الاخر قبل موعده المحدد ، فربما أن الالهة لن توقع علينا أى عقاب . ولكننى ، بالرغم من ذلك ، لا أريد أن أفرض « بنتاورت » على عرش مصر ، دون أعد أذهان الشعب بأسره لتقبل هذه الخلافة » .

– « إذن ، أنت تحتاجين إلى تواطؤ كبار موظفى القصر معك . فبدون مساعدتهم لن تحققى شيئا مطلقاً » .

– « ولكنى أود أيضا أن أشرك أسرتى فى هذا السر » .

– « عليك إذن ، أن تتحدثى فى ذلك مع كبير المديرين بالحريم فهو الذى يقوم بإرسال خطاباتنا إلى أهلنا ، ربما قد يساندك وينضم إليك » .

فقالت لها « تى » :

– « ولكنى لا أريد أية مخاطرة ؟! فلقد أحببت رمسيس الثالث كل الحب ولكن ، كيف قابل حبى له . فبعد أن حقق انتصاراته الحربية ، قام بإرسالنا للإقامة فى هذا الحريم . ولكن ، هل عساه كان ينظر إلينا باعتبارنا زوجاته الفعليات ؟ ألسنا فى حقيقة الأمر مجرد سجينات بداخل سجن ذهبى القضبان ؟! إن كل تبجيله وتوقيره يوجهه خاصة نحو الزوجة الملكية المعظمة » .

وهنا ، توقفت تلك المرأة عن التحدث مع « تى » فى هذا الشأن . فعلى ما يبدو أنه قد انتابها بعض الخوف لخطورة المنحنى الذى اتخذته الأحداث . ولذا ؛ فقد اقترحت عليها « تى » فكرة جديدة :

– « ربما إستطاع أخوك أن يمد لنا يد المساعدة . فهو يقود إحدى الفرق العسكرية فى النوبة . ابعثى إذن ، إليه برسالة . وقبل أن نفضى بالسر إلى كبير الحجاب ، لنحاول جذب زوجات الحرس إلى جانبنا . فالمراسلات قد تمر من خلالهن » .

وعندئذ ، بدا بعض التردد والقلق على المرأة النوبية . ولكنها ، فى نهاية الأمر ، قبلت هذا الاقتراح . فقالت « لتى » :

– « سوف نرى ذلك . ولكن الشئ الأساسى هو ألا يكشف أمرنا . ولن أعجز مطلقا عن استقطاب النساء إلى قضيتنا . ولكن ، ربما أن أزواجهن لن يقبلوا مطلقاً فكرة خيانة الفرعون » .

– « عندئذ ، سوف نجد وسيلة فعالة . فسوف نستعين ببعض المستحضرات الدوائية . بل سوف نلجأ إلى السحر من أجل إقناعهم ! ... ألا تعرفين أن هناك بعض المشروبات والعقاقير التى تؤجج الحب وتشعله ؟ ... ولاشك إذن ، أن السحرة والكهنة لقادرون على تكوين تركيبات من العقاقير تسبب الاضطراب والتشويش لمن يشربها » .

– « ومن الذى سوف يطلب إليهم إعداد مثل هذه العقاقير ؟ .. أنت ؟ » .

– « لا . أحد الخدم » .

– إذن ، فها هو شخص آخر سوف يطلع على سرنا .. لو أننا سرنا على هذا المنوال ، فإن الفرعون أيضاً ، سوف يعلم كل شئ » .

– إذن ، علينا أن نتصرف بسرعة وفعالية . بل ويجب أيضا أن نستقطب الكاتب إلى صفنا . إنه « بير» كاتب الخزانة ، وكذلك « كييز » « مفتش الحريم » .

– « أجادة أنت فيما تقولين ؟ ... إن الفرعون يثق ثقة هائلة فى « بير » . إنه يرافق رمسيس الثالث فى كل مكان يذهب إليه . بل ولقد أشرف بنفسه على عمليات بناء معبد الفرعون . وأما عن « كييز » فقد أنعم الفرعون بنفسه عليه بلقب « مفتش مقر الحريم » ، ووعده بأنه قد يعينه رئيساً له فى يوم من الأيام من الأيام . وبالقطع ، هما لن يوافقا أبداً على خيانة مليكهم » .

وهنا أجابتها « تى » :

– « إنك لساذجة حقاً . لقد تسبب رمسيس الثالث فى إثارة مشاعر الغضب والضيق بين رجاله المقربين . فهو لم يسدد مرتبات عمال دير المدينة . بل ولقد أسرف إسرافاً هائلاً فى النفقات الخاصة بالأعياد التى تقام من أجله . وهو أيضاً لا يحاول تبين الاستتباعات ، التى تمخضت عن سياسته هذه ، خاصة أنه قد بعث بوزير عديم الكفاءة والمقدرة ، من أجل أن يتحدث إلى أفراد الشعب بدلا عنه . وهكذا ، خلق رمسيس الثالث العديد من الأعداء حوله . وأنا لا أستبعد أبداً أن الكثيرين من رجال بلاطه يرحبون باختفائه ؛ لكى يعتلى « بنتاورت » العرش مكانه » .

– « إننى أشعر بالخوف مما تقولينه . فها هو الفرعون يستعد لإقامة حفلات يوبيله بين مظاهر البهجة والسرور . ولذلك ، فقد هب كبار موظفيه معبئين كل جهودهم ونشاطهم ، من أجل أن يكون الاحتفال بيوبيل الملك يوماً لا ينسى أبداً ... فهل أنت على يقين تماماً بأن رمسيس الثالث قد فقد حب الشعب له ؟ .

فأجابتها « تى » قائلة :

- « إن نيران الغضب تكمن تحت الرماد . إننى أشعر بتزايد مشاعر الضيق وعدم الرضا تجتاح الشعب ، وكأنها موجة عاتية تزداد فى ضخامتها لتنقض فى نهاية الأمر على الساحل وتدمر كل شئ فى طريقها » .

وهنا ، هزت المرأة النوبية كتفيها . وبدا عليها أنها غير مقتنعة تماماً بما تسمعه . وقالت :

- « لقد سبق قبل ذلك أن قام العمال بحركة تمرد . والفلاحون يشكون دائما من أن الفرعون يأمر باقتطاع كميات ضخمة من محاصيلهم . ومزارعو العنب يرون أن جرار النبيذ التى يحتفظون بها فى مخازنهم غير كافية ؛ لأن الكتبة يتعاملون معهم بتعسف شديد خلال عمليات الجرد . ومع ذلك وبالرغم من مظاهر الشكوى والتظلم هذه ، فمازال النظام قائماً والاستقرار مستتباً » .

ومن بعيد جدا كانت تتناهى أصوات طيور الظلام . وتسللت بعض الرياح الساخنة بين سعف أشجار النخيل التى ألقت بظلالها القائمة فوق نوافذ الحريم الملكى . ظلال عملاقة تبعث على الخوف والرهبة . وبدا الليل أكثر سوادا ؛ والجو بأكمله ، فى نطاق قصر الحريم هذا يبعث على الضيق والأسى .

وبعد لحظات من الصمت ، قالت المرأة النوبية لـ « تى » وهى تشعر ببعض القشعريرة :

- « وماذا لو أن أحدهم قد سمعنا ونحن نتحدث ؟ » .

فأجابتها « تى » على الفور فى حدة واضحة :

- « إننى على أتم استعداد لأن أقدم حياتى من أجل مستقبل ابنى » .

* * *

فى فجر هذا اليوم ، بدت جدران معبد وقصر مدينة هابو وقد تزينت ببصيص ذهبى ضئيل من أشعة رع المشرقة لتوها . وها هو رمسيس الثالث قد استيقظ من نومه فى هذا الصباح الباكر . فعلى ما يبدو أن الفرعون لم ينم إلا فى ساعة متأخرة للغاية فى تلك الليلة البارحة . فلقد استقبل عدداً من الكهنة ، وكبار موظفى الدولة ،

وقادة الفرق العسكرية ، من أجل الإعداد ليوبيله الذى لايقل عن ثلاثين عاماً فوق عرش مصر .

كان الفرعون يشعر بإرهاق شديد بعد الكلمة التى ألقاها من شرفة قصره ، لدرجة أنه قد أغفى قليلا خلال الاستعراضات الخاصة بالقتال والمصارعة بين جنوده المصريين وبعض أسرى الحرب . لم يكن ذلك قد حدث له أبداً من قبل . وخلاف ذلك ، كان الخدم والعبيد يروحون ويجيئون وهم يؤدون أعمالهم ، ما بين قاعة الطعام ، والممر المستطيل ، وقاعة الاستقبالات ، وحجرة الفرعون . وبالرغم من ذلك ، فلم تعمل هذه الجلبة والضوضاء على إيقاظه من نومه . وعندما لاحظ أحد الخدم أنه على وشك الاستيقاظ ، قال له :

– « لقد أُعد حمام الفرعون ، محبوب آمون » .

أخذ الفرعون يتمم قائلاً لنفسه :

– « إننى مازلت أشعر بارهاق شديد . هل سيمكننى الاحتفال بهذا اليوبيل ؟ ... لقد كانت قسمات وجه طبيبى الخاص تعبر عن التشاؤم بالرغم من أنه كان يحاول أن يتصنع غير ذلك » .

وتوجه الفرعون إلى غرفة الحمام الصغيرة . وجلس بداخل الحوض المصنوع من الحجر الرملى فى وسط الحجرة . وعندئذ ، بدأ بعض خدمه ليسكبوا المياه المخلوطة بالأملاح فوق جسده . وعندما دخل كاتبه الخاص إلى حجرة الحمام فى هذه اللحظة ، بادره رمسيس الثالث بأنه لن يستقبل أية شخصيات استقبالا خاصاً . فهو منهك ومرهق إلى أقصى درجة . وقال له أيضا : « الأفضل لى أن أستريح باحدى الشرفات المطلة على البركة الصناعية بحديقة القصر » .

وهنا قال له الكاتب :

– « ربما أن مولاى قد أصيب بلفحة برد ، لجلوسه بشرفة القصر إلى وقت متأخر من الليل » .

فتنهد رمسيس الثالث تنهيدة عميقة وأجابه .

– « ربما كان الأمر كذلك ... » .

– « أنك يامولاى شجاع وباسل ، إنك تفيض ذكاء وفطنه ، إنك الملك الذى

استطاع حماية مصر من الغزاة . إنك سيد قوى البأس والشكيمة ، دحر الأعداء لمرات عديدة . إنك أسد مقدام جسور ، وثور يثير الهلع والرعب بين الأعداء ، إنك ملك مصر العليا والسفلى » .

وهنا ، قال كاتب آخر كان قد حضر لتلقى أوامر الفرعون :

- « إن بيرى على حق . إنك تشع تألقاً وروعة وأنت تقاتل فى ساحة القتال ، وتهاجم بجسارة وشدة بأس أعداء مصر . إنك فى تلك اللحظات تبدو وكأنك الإله الشمس أو الإله ست ... بل إن سبايا الحرب القادمات من الدول الأجنبية يستحوذ عليهن الإعجاب عندما يدمجن فى حريمك الخاص . وعندما ترتدى الريشتين العاليتين فوق رأسك ، تبدو وكأنك رع وهو يشع بضيائه . إنك حصيف ومثقف، وعادل وحكيم ، وتتشابه برمسيس الثانى فى علمك الغزير وعطفك . إنك الأسد الذى يهاجم من أجل حماية المصريين . بل أنت الراعى الذى يحيط بقطيعه ، ويحميه بدرع نحاسية » .

فقال الفرعون :

- « لقد عملت بالفعل على حماية مصر من غزوات الليبيين ، ومن تلك الشعوب المهاجمة من ناحية الشمال ؛ هؤلاء الذين كانوا يدمرون كل شئ فى طريقهم .

وباعتبارى فرعوناً ، فأنا قد جئت إلى هذه الحياة الدنيا من أجل أن أقاتل . وخلال معاركى الحربية ، تعمل الآلهة على أن أتجسد فى أشكال أخرى غير هيئتى البشرية . لقد منحتنى الآلهة هذه الهيئة حتى قبل انتقالى للعالم الآخر . إننى من خلال تجسدى فى صورة حيوان ضارٍ سريع العدو، أو ثور ذى قرنين رهيبين ، أو طير جارح كاسر خاطف السرعة ، أو حيوان أسطورى مخيف له صوت جهورى مرعب ، أو ذئب ماكر مفترس - قد استطعت أن أثير هلع الأعداء وخوفهم . أما جيادى ، فكانت تبدو وكأنها صقور ضارية تريد أن تنقض على طيور ضئيلة ضعيفة » .

-« بل كنت تستطيع أن تتجسد أيضا فى صورة نجمة متألقة تسطع بنورها فى ظلام الليل . كنت تستطيع أن تتحول إلى ضوء ساطع ، أو رياح عاتية ، أو مياه ، أو نار حامية . لقد كان وجهك يبدو وكأنه وجه أحد الآلهة . ورائحتك وعبيرك تشبه رائحة

وعبير الآلهة . بل كانت رماحك ونبالك تحمل الموت والهلاك فى أطرافها . وكان آمون يمهد لك الطريق الذى سوف تسلكه. وبذا كان يزيل كافة الأشجار الشائكة والحجارة » وهنا قاطعه رمسيس بإشارة من إصبعه . وقال له :

- « لا داعى إلى أن تذكرنى بكل ذلك . لقد كنت ، فى ذاك الوقت أنظر إلى أعدائى وكأنهم مجرد قطرات من مياه النيل . ولكن الآن ، ها قد مضى هذا الزمن وها هى الأوجاع والآلام تستحوذ على كل أعضائى » .

لا يهم مطلقا إذا كنت لا تستطيع الآن خوض القتال ؛ فإنك قد جعلت السلام يستتب ويقوى . لقد عملت على إعادة تشييد المعابد التى كانت قد تحولت إلى أطلال.

لقد أقمت العديد من المدن . وجهزت قصرك الخاص بملايين السنين من أجل حياتك الأبدية . وبفضل صلواتك وابتهالاتك للإله رع التى أمرت بنقشها فوق جدران معبدك ، سوف تعيش فى العالم الآخر ، برفقة من يرشدك ويدلك . إنه « رع » الذى يفيض دفئة بالحيوية والحياة » .

وبدأ بعض الخدم يتقدمون من أجل المشاركة فى المراسم الخاصة باستيقاظ الفرعون من نومه . وشرع أحد مصففى الشعر فى تهذيب أطراف لحيته ، وأخذ يحلق شعر رأسه بواسطة مشرط حاد . ولكن ، على ما يبدو ، أن هذه الموسى لم تكن حادة بما فيه الكفاية ، ففتح مصفف الشعر علبته المصنوعة من الخشب ، وأخرج منها عدة أدوات آخرى مغلفة بأغلفة من الجلد .

وعندئذ ، كانت الخادمات يقمن بإحضار بعض الأوانى العميقة المنحوتة من المرمر . وكان البعض يحتوى على أنواع من العطور الطيبة الرائحة ، أو بعض من الملاخيت الفاقع الاخضرار ، أو مسحوق أسود اللون من أجل تخطيط العينين . وبدأت الخادمات يدلكن جسد الفرعون بمزيج من البخور العطري ، حتى تكتسب بشرته الناعمة البيضاء الرائحة العطرة . ثم يغطين بشرته بمركب مكون من مسحوق المرمر ، واللبن ومسحوق الحلبة . وأخذن يدلكن فروة رأسه وشعره بالزيت العطرى ؛ وهو عادة زيت الخروع المجدد لخلايا الشعر . وفى نهاية الأ مر ، وضعن فوق رأسه « باروكة » بسيطة الشكل من الشعر المستعار وفوقها إكليل .

وأخيراً ، خرج رمسيس الثالث من حوض الاستحمام . وترك الخادمات يقمن بإلباسه مئزراً ذا كسرات متعددة . وقام هو بنفسه بتثبيت حزام فوق وسطه ، رسم فوقه أحد خراطيشه . ثم بدأ يختار بعض المجوهرات من أجل زينته . وفى نهاية الأمر وضع على كتفيه رداء طويلاً يصل حتى قدميه . ثم قال « لبيرى » كاتبه الخاص :

- «اقرأ لى رسائل اليوم . وسوف أملى عليك الردود عليها . ولن أوزع اليوم أية مكافآت ولن أعقد أى مجالس . وسوف تقوم بالإنابة عنى ، من خلال شرفة القصر ، بتقديم بعض القلادات أو الأطباق الذهبية إلى كبار موظفى الدولة الذين كنت قد وعدتهم بمكافأة . وبالتالى ، فهم يستطيعون بذلك الاحتفال بهذه المناسبة مع عائلاتهم ». فأجابه «بيرى » كاتبه الخاص :

- « ولكننا أقمنا المنصة بفناء القصر . أرجو ألا تكون قد نسيت هؤلاء المبعوثين من النوبة ، ومن سوريا ومن بلاد بونت . لقد وعدتهم بأنك سوف تستقبلهم ! » .

- «قم بجمع ما أتوا به من هدايا . ووزعها على كافة المعابد . وسوف ينوب عنى ابنى الأكبر لشكرهم . وحالما تتحسن حالتى ، سوف أتوجه للاطمئنان على جيادى . إننى أتوق إلى رحلات الصيد وأشتاق إليها كثيراً . أما فى هذه الليلة ، فسوف أذهب إلى «حريم المصاحبة » . فإننى أريد أن أستمتع باستعراضات الرقص » .

وبعد ذلك أخذ الفرعون يملى على كاتبه تعليمات محددة من أجل عيده اليوبيلى الذى سوف يقيمه فى منف . وكانت أوامره موجهة خاصة لوزيره المدعو «تا » . وكان قد عينه مسئولاً أول « لاحتفالات اليوبيل الملكى » . وهنا قال له «بيرى».

- لقد جمع الوزير « تا » أجمل تماثيل الآلهة التى وجدها فى كافة مدن مصر من أجل أن يضعها فى معابد منف . وقد رافق الكاهن « سيتو » تمثال الإلهة «نخبت » . بل إن العديد من رجال الدين الآخرين قد رافقوا أيضا تماثيل آلهتهم . ولقد وصلت بعض السفن من مصر السفلى محملة بتماثيل أخرى ، حيث تسلمها الوزير « تا » .

كما تقوم بعض السفن الخاضعة لقيادته بسحب عدة زوارق محملة بالتماثيل وسوف يصل الوزير إلى بى - رمسيس فى خلال يومين » .

وأجابه رمسيس الثالث وقد انبسطت أساريره بعض الشئ :

– « أى بالضبط فى موعد الاحتفالات بذكرى تتويجى . هذه الأخبار تبعث على السرور » .

ولكن ، فى نفس اللحظة التى كان الفرعون يهم فيها لملاقاة الملكة ، استأذن أحد المراسلين للدخول إلى جناح الملك . وأبدى الفرعون ضيقه من هذا الاضطراب فى المواعيد . وهنا ، قال له المراسل القادم إليه :

– « أرجو معذرتى يا مولاى . لأننى ، بمجيئى هذا ، قد عملت على تعكير صفو تركيزك فى مهامك . لقد أرسلنى الكاتب « نفر » إلى جلالتك . وهو الذى يعمل فى عمليات تشييد مقابر أبناء جلالتك بمنطقة دير المدينة . ولقد سبق للكاتب « نفر » أن توجه بشكواه للوزير « تا » ولكن دون جدوى . ولذا ، فقد كلفنى ، بأن أعلم جلالتك بأن العمل فى تشييد المقابر الملكية يسير على خير وجه ، وأنه يبذل كل جهده وطاقته . ولكن العمال هناك محرومون من كل شئ » .

وعندئذ ، أجابه الفرعون بكل هدوء :

– قطعاً لا يرجع ذلك إلى خطأ من جانب الوزير . فهو مشغول إلى أقصى حد ، فى هذه الآونة بالاستعدادات من أجل الاحتفال باليوبيل » .

فأجابه المراسل وهو يتوخى الحذر الشديد فى كلماته :

– « بالقطع يامولاى ، ولكننا لا نجد مطلقاً ما نقتات به . فالعمال مكلفون بحمل أحمال ثقيلة فكيف عساهم يجدون القوة اللازمة من أجل ذلك إذا كانت بطونهم خاوية ؟!

وقبل ذلك لم نحصل على مرتباتنا . وهناك العديد من المصريين يعانون آلام الجوع . والبعض الآخر يقعون صرعى، من جراء ذلك تحت أشعة الشمس الحارقة » .

– « لم أكن أعلم أن الموقف قد وصل إلى مثل هذا الحد المأساوى » .

– « ألم يحطك الوزير « تا » علماً بأن جموع العمال قد تحدوا قوات الحراسة القائمة على مداخل دير المدينة ومخارجها ، وهم يصيحون قائلين بأنهم جياع ، وإنهم لم يحصلوا على مرتباتهم منذ أكثر من بضعة أشهر ؟ » .

– هذه إذن هى الاضطربات والقلاقل التى امتدت حتى بى – رمسيس . ووصل تبجح القائمين بها إلى درجة التجمع بداخل المعبد ؟ » .

- « نعم يامولاى . . وعندما علم الكاتب أمون نخت بذلك ، أسرع بالمجئ إلى بى - رمسيس ومعه المسئولون عن ساحات العمل الخاصة بالمقابر . ولكن العمال كانوا مصرين على التحدث إلى الفرعون . بل لقد رفضوا الرجوع إلى ديارهم طوال هذا اليوم » .

- « ومن الذى تمكن ، فى نهاية الأمر من إقناعهم بالرجوع إلى ديارهم ؟ ... فإننى لم أستمع لمطالبهم » .

- يقال إن الوزير « تا » قد وعدهم بوعود خلابة ، ولكنه لم يوف بعهده . وفى العام الماضى ، كان الكاتب « نفر » قد اضطر أن يكتب للوزير عن هذه المطالب . فلقد تأخرت رواتب العمال حوالى خمسة وعشرين يوماً ! وبعد هذه الإضرابات التى حدثت فى بى - رمسيس ، عاد العمال ثانية بعد بضعة أشهر ورابطوا أمام القصر الملكى وقضوا ليلتهم هناك فى انتظار أجولة الغلال التى لم يحصلوا عليها بعد ، بل لقد دخلوا إلى المعبد . وبالرغم من أن « بنتاورت » قد عرض عليهم حمولة بعض السفن من الغلال ، فقد رفضوا صائحين : « إنها غير كافية لاحتياجاتنا !» . ولقد حاول العمال أن يستقطبوا إلى جانبهم بعض الكهنة العاملين بالمعبد. وكذلك بعض كبار رجال الشرطة » .

عندئذٍ قال رمسيس الثالث لبيرى :

- أحضرلى التقرير الخاص بهذا الشأن ؛ والذى كان قد سلم إلى الحاكم المختص فإننى تبينت الآن أن البعض قد أخفوا عنى حقائق خطيرة » .

وهنا رد المراسل قائلاً متوسلاً :

- « فلتكن عطوفاً رحيما يا مولاى . إن هؤلاء العمال يتصفون بالشجاعة والإقدام . إنهم لم يفعلوا ذلك إلا لأنهم جياع وعطشى . ومن الطبيعى جداً أن يطالبوا باحتياجاتهم من الشراب ، واللحم والملابس ! ... فهم عندما حصلوا فى نهاية الأمر ، على بعض الأغذية ، سرعان ما هدأت نفوسهم . فعندما قدم لهم الحاكم المختص أيضاً كميات من الغذاء ، وعندما نصحهم مأمور الشرطة بأن يغلقوا أبواب منازلهم لكى يتوجهوا ومعهم زوجاتهم وأطفالهم إلى بى - رمسيس سرعان ما عادت إليهم الثقة والطمأنينة » . فأجابه الفرعون :

- « لقد فهمت وعليك أن تتابع هذه المشكلة » .

ولكن ، لسوء الحظ ، أن رواتب العمال لم تسدد فى الشهر التالى . وفى خلال بضعة أيام . لم يحصلوا إلا على قدر ضئيل من الخمر والشعير . كانت الكميات فائقة

الضالة ، لا يمكن أن تعيش عليها أية أسرة مصرية ! ... ولذا ، فسرعان ما قاموا ثانيةً بإضرابات . وفي تلك الفترة ، كان الحاكم المسئول قد وعدهم بأنه سوف يكتب التماساً إلى « سيد القطرين » ، الفرعون الذي يحبه الجميع . وحقيقة أن العمال قد حصلوا على رواتبهم ، في نهاية الأمر ، لكن في الشهر الذي يليه ، تجمهروا من أجل مغادرة قريتهم ، بل وهددوا بسلب ونهب إحدى المقابر الفاخرة .وبعد مضى عدة أيام ، توجهوا مجتمعين نحو بي – رمسيس . ولقد حاول الكاتب المختص بدير المدينة أن يثنيهم عما يعتزمونه . فأرسل إليهم اثنين من رؤسائهم في العمل من أجل إقناعهم بالعودة ، ولكن ، بدون جدوى . وأخذ العمال يعبرون عن ثورتهم صائحين ، بأنهم يقومون بإضراباتهم هذه ، لأن الفساد قد انتشر وساد بين كبار المسئولين بالحكومة » .

وازدادت دهشة الفرعون وعجبه مما يسمعه . وأخذ ينظر إلى كاتبه متسائلاً ، لماذا لم تصل إليه معلومات وافية عن كل هذه المشاكل فربما كان قد استطاع أن يجد لها حلاً ؟ ! .

– لقد صدقهم « أمون نخت » فيما يدّعونه ، ولذا فقد توجه إليهم لاستجوابهم . ولقد أصر العمال على اتهاماتهم . فلقد ذكروا جهرا وصراحة ، أن بعض كبار موظفي الدولة تنقصهم الأمانة والشرف . وطالبوه بأن يخبر جلالتك بذلك » .

– « لقد علمت بمثل هذه الاتهامات . ولكنني لم أولّها الاهتمام اللازم . كما أنني لا أستطيع تفهم سلوك وتصرف الوزير « تا » . ألم يتوقف ، خلال رحلته ، عند طيبة من أجل اختيار تماثيل بعض الآلهة وإحضارها إلى بي – رمسيس ؟ ... لقد كان لزاماً عليه أن يهتم بهذه الشكاوى » .

– « لقد أكد الوزير أنه كان وقتئذ غارقا في العمل حتى أذنيه ، ولم يكن لديه أي وقت للاستماع إلى تظلماتهم هذه . ولكنه ، بالرغم من ذلك ، أرسل إلى العمال بضعة أجولة مليئة بالغلال ، ووعدهم بالمزيد ، بشرط أن ينتظروا قليلاً . ولكن العمال كانوا قد سأموا من طول الانتظار ! ... ولقد رفض الوزير مقابلتهم والتحدث معهم . وانتدب مكانه قائد شرطة النظام ؛ من أجل أن يلقي عليهم الكلمة التي كان قد أعدها ، ومن أجل أن يخبرهم أيضا أنه ليس في مقدوره أن يقدم لهم أي شئ » .

وهنا ، بدأ رمسيس الثالث يشعر بالضيق والغضب ؛ لأن تصرفات الوزير « تا » لم تَرُقْ له وأكمل المبعوث كلامه قائلا للفرعون :

– « واضطر العمال أن يقبلوا تلك الكميات الضئيلة من الغلال التى قدمها الوزير إليهم . ولكن عندما حاولوا إثارة النقاش والجدال مع مندوب الوزير الجليل « تا » سارع « أمون نخت » بمنعهم من ذلك ، وأخبرهم بأنهم إذا فعلوا ذلك فسوف يعتبرون مخطئين للغاية . ولذا فقد أخذوا يوجهون توسلاتهم وابتهالاتهم إلى الوزير . ولكنه أجابهم بتعالٍ وغطرسة : « لقد سبق وأعطيتكم بضعة أجولة من القمح من أجل أن تقتاتوا بها . ألم يكفكم هذا ؟!...عموما ، عندما يتمكن الفرعون من ذلك ، فسوف يعطيكم كميات أخرى » .

وعندئذ بدا المبعوث مترددا فى إكمال كلامه . وهنا ، شجعه الفرعون على الاسترسال فى حديثه ، قائلا له :

– « هات ما عندك ؛ حتى لو بدا ثقيلا على النفس . لا تخش شيئا . ما دمت لا تكذب ، فلن يحيق بك أى شر ».

– « لن أكذب عليك أبدا ، يا مولاى حبيب آمون !» .

– « إذن ، أكمل كلامك » .

– « لقد علم « آمون نخت » أن الوزير والحاكم المسئول قد استبقيا لأنفسهما المرتبات التى يخصصها الفرعون ، متع بالحياة والصحة، من أجل عمال دير المدينة» .

وعندئذ صاح الفرعون غاضبا :

– « هذا كثير جدا !... إن ما تقوله يثير الغضب والحنق ؛ لدرجة أننى لا أكاد أصدقك. ومع ذلك إذا كنت تذكر الحقيقة ، فلابد أن أضع حدا لمثل هذا الموقف . ولاشك أن الاحتفال باليوبيل سوف يستتبع الكثير من النفقات الباهظة الاستثنائية . ولكن ، لاشك أن الشعب الجائع لا يستطيع أبداً أن يهتف لمليكه أو يحبه . ولقد كنت أسعى دائما لإسعاد المصريين . فعليك إذن أن تعود إلى « آمون نخت » وتقول له : إننى سوف أعمل على أن يلقى عمال المقابر أفضل معاملة . وسوف أنزل عقابا صارما بكل مسئول ، بينت التحقيقات أنه قد أساء التصرف » .

- ٢ -

قبيل مغادرته لمكتبه، كان رمسيس الثالث يراعى إقفال خزائنه التى تحتوى على العديد من الملفات والسجلات . وكانت هذه الخزائن تتضمن أيضا لفائف من البردى المختومة والموضوعة بداخل علب خاصة بها . ونفس هذه العلب كانت توضع بداخل حقائب للوثائق مصنوعة من الجلد . وكانت الخزائن تتضمن أيضاً بداخلها كافة أدوات الكتابة ، وقد وضعت بداخل حقائب من الجلد تسمح بحملها هى والمستندات اللازمة خلال السفر .

وفى هذا المساء ، عندما توجه رمسيس الثالث إلى مقر حريم المرافقة ، كان يشعر بضيق وغضب شديد .إنه ، على ما يعتقد ، كان يعمل لصالح شعبه وسعادته . وأخذ يقول لنفسه في شئ من المرارة « لقد قمت بالمهمة التى أوكلها إلىّ الإله آمون . ولقد حاربت الكثير من الشعوب والقبائل الشرسة العاتية . واستطعت أن أجعل الأراضى تتألق وتزدهر بالمحاصيل والمزروعات ، من أجل غذاء الشعب . وبذلت كل طاقتى من أجل ألا ينتشر الجوع والفاقة بين المصريين . وأضفيت الجمال والروعة على كافة أنحاء مصر . وأوليت اهتمامى ورعايتى للآلهة والبشر على حد سواء . ولم أستحوذ على الممتلكات الخاصة بعامة الشعب وهأنا قد قاربت على الانتهاء من رحلة حياتى ، وأنا وأشعر أننى قد أديت واجبى كما يجب . والآن ، هأنا أعلم أن المصريين ثائرون . إنهم يتظاهرون . ويسقطون صرعى الإعياء لأنهم لايحصلون على رواتبهم ! » .

وبعد أن حصل رمسيس الثالث على قسط من الراحة في فترة ما بعد الظهيرة ، تحت ظلال إحدى أشجار الجميز الضخمة ، أحس أنه يود أن ينفرد بنفسه . وعندئذ ، كان الوقت قد أزف للعودة إلى قصره ، لمشاهدة عرض غنائى تقدم خلاله بعض المغنيات الشابات أغانى رقيقة حالمة على أنغام الطبل والقيثار . وأخذ يسير ، وهو يحلق بخياله فى أمور عدة ، فى جنبات بساتينه المترامية الأطراف التى إصطفت على جوانبها كروم العنب و أشجار الزيتون ، وأحواض الزهور والرياحين ، ومختلف الأنواع والأنماط من الأشجار النادرة .

وعلى ما يبدو ، أنه قد عاد إلى نفس تساؤلاته السابقة : « إننى لم أبخل بشئ من أجل إدخال البهجة والسعادة على قلوب أفراد شعبى ! .. لقد أمرت بغرس وزراعة

مختلف الأنواع من الأشجار بالحدائق ، وعملت على أن تزين البساتين العامة بمختلف المزروعات ؛ لكى يستمتع كل مصرى بظلالها ونسيمها ، بل وأمرت بتنظيف وتطهير كافة البرك والترع . وعملت على أن تزال منها كافة النفايات والقاذورات التى كانت قد تراكمت بها على مر السنين . وأردت أن تمتلئ أنحاء مصر ببساتين الفاكهة ، ومزارع الزيتون التى تنتج أحسن الزيوت وأجودها التى يستعين بها الرياضيون خلال تأديتهم لتدريباتهم الرياضية . وكان معبد حورس ، قبل ذلك ، قد تحول إلى أطلال . فأمرت بإعادة بنائه وإصلاحه . وحالياً ، يقوم عدد من المفتشين والإداريين بإدارته ، من أجل العمل على تقديم الكثير من القرابين للإله . وها هى الكروم تنتج كميات هائلة من العنب ، تسمح لأفراد الشعب بالحصول على قدر منها . ولم أهمل أبداً معابد الآلهة . إنها مليئة بالخدم والعبيد لرعايتها وتنظيفها . وهى تتضمن العديد من مخازن المؤن الغذائية . بل هى تملك الكثير من قطعان الماشية التى لا تحصى ولا تعد ، بل هى أكثر عدداً من النجوم اللامعة المتألقة فى السماء . وكل بيت من بيوت المصريين ، تحيط به ، حدائق الخضراوات ، والفاكهة . ويتضمن إسطبلا للجياد ، وحظيرة للطيور الداجنة » .

وفى خاطره ، أخذ الفرعون يعدد أيضاً ، الأعمال العديدة التى أمر بتنفيذها فى نطاق كافة معابد مصر؛ والنصب والمنشآت التى أمر بتشييدها وتكريسها من أجل الآلهة . بل لقد عمل على أن تطعم جدرانها بالجرانيت النادر والذهب ؛ وأن تزين بأوانٍ فضية منمقة من أجل القرابين .

وأقام بها العديد من تماثيل الآلهة المزخرفة بالمجوهرات ، ومقصورات فاخرة ومراكب للآلهة من الذهب الخالص . وكل ذلك أحاطته حدائق غناء بديعة التنسيق ، زينت بالورود العطرية النادرة التى جلبت من كافة بلاد العالم . ولا شك أن المصريين ينعمون بالسعادة وهم يتنزهون فى أرجاء هذه الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء المقدسة ، ويستظلون تحت أشجار النخيل ، وعند حضورهم من أجل تقديم القرابين للآلهة ؛ حيث يصلون إليها من خلال طرق معبدة تصطف على جانبيها الأيك ذات الأزهار العطرية » .

ولا شك مطلقاً أن رمسيس الثالث ، كان يستطيع ، وقتئذ ، أن يزهو ويفخر بما فعله من أجل مصر ، ولرفعة شأنها وازدهارها ، بعد أن كانت قد أوشكت أن تتردى فى الحضيض . بل لقد جعل جنود جيشه ينعمون هم وأسرهم بمساكن أنيقة جميلة .

وحتى الجنود المرتزقة الذين يعملون فى جيشه يتمتعون هم أيضا بحياة رغدة ويحبوحة من العيش هم وزوجاتهم وأطفالهم . بل إن بعض قدامى أسرى الحرب ، قد رحبوا وسعدوا بإقامتهم بمصر ، ولا يندمون مطلقاً على إقامتهم الدائمة بها بدلاً من أوطانهم الأصلية . ويعم أنحاء مصر قوانين قضائية عادلة للغاية .

حقيقة أن الفرعون كان يطيب له كثيرا البقاء فى قصره الفاخر ، ولكنه ، فى هذه الليلة خاصة ، بدا عازفا عن كل شئ . وفى نهاية تجوله هذا ، وصل الفرعون أخيراً إلى البناء الفخم الخاص بزوجاته الملكيات . ولقد زينت جدران هذا الموقع برسوم بارزة لحروب الفرعون وفتوحاته وأمجاده . فها هو، ممثل ، على سبيل المثال ، وهو يقود إحدى معاركه الكبرى فى بسالة وشجاعة ؛ أو وهو يتفقد جياده ؛ أو مع بعض كبار موظفيه وحاشيته .

وعندما أوشك أن يصل إلى حجرات هذا القصر، الفسيحة الأرجاء المفعمة بأريج الحب ، والجمال ، والفخامة ، أحس بكاتبه الخاص « بيرى » يجرى نحوه متلهفا مضطربا . وقال له :

– « مولاى ذا التاج المزدوج ، سيدى ، لقد بحثت عن جلالتك فى كل مكان . لقد توغلت أكثر من اللازم فى ظلمات هذة الحدائق والبساتين المترامية الأطراف ، خلال ساعات الليل البهيم وعندئذ قد يستطيع أى شخص أن يختبئ بين الأشجار ويهاجمك »

فأجابه الفرعون :

– « إننى لسعيد لاهتمامك بى . ولكن ، هناك العديد من الحراس عند مدخل القصر . وبذا ، فلا خوف علىّ مطلقا » .

– « ولكن ، من المعتاد يامولاى ، أنك تخرج من جناحك الخاص ، وتصل مباشرة إلى جناح « حريم المصاحبة »

– « ولكننى فى هذا المساء ، أردت أن أتنزه قليلا وأفكر مليا فى بعض الأمور . وأنا أعرف ، أننى اليوم لم أتبع ما اعتدت عليه دائما ؛ خاصة أننى شديد الحرص عادة . ولكن ، هناك أمور كثيرة كدرتنى فى هذا اليوم »

وعندما وجه الكاتب « بيرى » ناظريه نحو الباب الذى نقشت عليه صورة ممثلة لأبى الهول من الذهب الخالص جالسا فوق عرشه ، وقد ارتمى تحت قدميه عدد من الأسرى المكبلين بالسلاسل ، قال له الفرعون :

– « إن أبى الهول لا يخشى ولا يخاف شيئا مطلقا . إنه أحد تجسداتى العديدة ، التى جعلت السوريين والليبين يصابون بالهلع والرعب » .

وهنا فتح الكاتب « بيرى » الباب أمام مولاة ، متنجيا جانبا ، ثم انسحب فى هدوء وأدب . فالان لم يعد رمسيس الثالث فى حاجة إلية . ولذا ، فقبل أن يذهب « بيرى » إلى غرفتة ، أشار إلى مسئول الحريم من أجل أن يلبى طلبات الفرعون .

وهناك ، تتابعت العديد من الزوجات الشابات حول رمسيس الثالث ، وهن يحملن زجاجات العطور وأوانى الفاكهة . وجلسن جميعا فوق مقاعد أنيقة ذات زخارف ورسومات بديعة دقيقة للغاية . وبدت جوانب هذة المقاعد وقد زينت بمشاهد دينية محفورة فى الخشب . بل وزينت أخشابها أيضا بالأحجار الكريمة ، فأبرزت جمالها .

ثم دخل القاعة فريق من الأقزام ، الذين، كانوا قد جلبوا قبل ذلك من بلاد « بونت » وأخذوا يرقصون ويقفزون وهم يدقون على طبولهم الصغيرة .

وجلس الفرعون فوق مقعد ضخم ذى مسندين ، صنعت أرجلة على هيئة مخالب الأسد .

وأخيرا ، دخلت « تيى » إلى القاعة . وكانت أخرمن دخلها . وبجمالها وفتنتها الضارية المتنمرة المتعالية ، استطاعت أن تحجب جمال باقى زوجات رمسيس الثالث تماما . وقال لها الفرعون :

– « تعالى بجانبى . إننى أتوق إلى الإحساس بك بجوارى هذا المساء »

فأجابته « تيى » بجسارة وجرأة واضحة :

– « هذا المساء فقط ؟ ! ... إننى لم أرك منذ أيام عديدة » .

– « كنت مريضا . وخلاف ذلك ، فإن المصرين يسببون لى بعض القلق . لقد سمعت عن حدوث بعض الإضرابات بمنطقة وادى الملوك . فالعمال يرفضون مواصلة أعمالهم».

– « ولهم الحق فى ذلك !... فهم لا يجدون غذاء يقتاتون بة ! » .

– « إذن أنت أيضا كنت تعلمين بذلك ، بالرغم من أنك لا تغادرين مقر الحريم أبدا ! » .

ونظرت إليه « تيى» نظرة تفيض بالتهكم والسخرية . إنها الآن، ولأول مرة تلاحظ أنه قد طعن فى السن وازداد نحافة . ولقد اندهشت مما أبدته من رد فعل تجاهه . فقد

كانت تكن دائما للفرعون أسمى مشاعر الاحترام والإعجاب وها هي الآن تشعر أن حبها له ، قد تحول بغتة إلى مجرد شفقة . ولكن . على ما يبدو ، كان ذلك بمثابة إحساس عابر . فسرعان ما تأججت عاطفتها القوية وكأنها حريق لم يطفأ تماما ، يمتد إلى كافة أطراف إحدى الغابات بكل عنف وقوة .

وقالت له :

- « أرجوك المعذرة ، يا سيدالقطرين . لقد تعدت كلماتي الجريئة ما يدور بفكري » .

عموما ، كان الفرعون مستغرق في التفكير في مشاغلة فلم يلتفت كثيرا إلى ما قالته له . ولكن « تيي » أكملت حديثها قائلة بمزيد من الثقة بالنفس :

- « أريد أن أحدثك عن « ينتاورت » إنه يزداد تألقا وبراعة .أنه أكثر أبنائك ذكاء وفطنة » .

- « أنت تقولين ذلك لأنه ابنك » .

- لا . إنني أحدثك بموضوعية . لماذا لا تجعله وليًا للعهد ؟! » .

وحتى لا يضايقها ، وعدها رمسيس الثالث بأنه سوف يفكر في هذا الأمر . وبدأت الخادمات يحضرن أدوات المائدة المصنوعة من الذهب والفضة الخالصة . وعلى ما يبدو ، أن الفرعون ، كان عادة ، يتناول بعض المشروبات الساخنة بعد غذائه . وسرعان ما أحضرت الخادمات آنية الشاي ، وبعض الأواني المليئة بالحليب الساخن ، وكؤوس النبيذ ، ووضعها أمامه فوق منضدة صغيرة من الخشب المحفور عليه رسوم بارزة .

والجدير بالذكر ، أن كل قطع الأثاث في هذه القاعة ، قد طعمت بالأحجار الكريمة الواردة من النوبة أو من سوريا . وزينت بمناظر تمثل بعض الغابات ، وأشجار النخيل وحيوانات كاسرة ، وغزلانا أثناء مطاردتها ، وقردة ماكرة ، وماعزاً تتغذى ببعض النباتات .

وقالت « تيي » للفرعون وهي تمسك بيده :

- « تعال في إثري . سوف تشرب نبيذك الدافيء في حجرتي . فهناك سوف تكون على سجيتك » .

ولم يمانع الفرعون فى ذلك . وترك نفسه لقيادة « تيى » ، تاركًا وراءه جميع زوجاته الأخريات اللاتى شعرن وقتئذ ، بشىء من خيبة الأمل . وتمددت « تيى » فوق سريرها . ولقد تراصت على جانبى الحجرة بضع خزائن للملابس ؛ وصناديق من العاج تحتوى على أدوات الزينة ، وباروكات الشعر بكافة الأطوال .

كما توجد أيضاً قيثارة ضخمة بإحدى الأركان . وسألته تيى قائلة :

– « أتريد أن تستدعى إحدى الموسيقيات ؟ » .

هز الفرعون رأسه موافقًا . وأخذت « تيى » تدلك له كتفه وجبهته بحركات دائرية رقيقة ، سرعان ما جعلته يسترخى فى هدوء . قال لها رمسيس الثالث :

– « إننى سعيد لوجودك هنا فى منف خلال حفلات يوبيلى القادمة . فإننى أرغب أن تكون هذه الحفلات ناجحة . إن الحياة بدونك تبدو باهتة لا طعم لها » .

فردت عليه تيى :

– « أليس ذلك هو الدور الذى يجب أن يقوم به حريم المصاحبة ؟ ... أن يتبع الفرعون فى سفره إلى كل مكان ؟ ... عموماً ، لن أكون الزوجة الوحيدة التى سوف تحضر الاحتفال بذكرى تتويجك » .

– « ولكنك تعرفين أنك المفضلة بالنسبة لى » .

– « لكنك ، بالرغم من ذلك ، تختار أبناء زوجتك الملكية المعظمة لشغل أهم المناصب وأعلاها شأنًا » .

– « كفاك نميمة . هيا تمددى بجوارى » .

بعد ذلك ، لم يكن يتناهى لسمعهما ، سوى ضحكات الزوجات الأخريات ، وهن يلعبن النرد ، ويغنين بمصاحبة الموسيقيات اللاتى جئن خصيصاً للتسلية عنهن .

* * *

فى منف ، كان كل شىء قد أعد من أجل الاحتفال بالفرعون وبالإله آمون . كما أعدت بضعة تماثيل للفرعون ، لتمثل بعث الملك من جديد وشبابه الدائم أبداً . وتم إعداد أحد الطرق ، وتنظيفه ، ورشه بالمياه من أجل أن يكون بمثابة ساحة سباق ؛

لأن المصريين كانوا يأملون دائماً أن يروا مليكهم وهو يثبت جدارته وقوته على التصارع والعدو . ولذا ، فقد أتوا إلى هذا المكان ، قبل مجيء الفرعون بيومين . وهناك ، وزعت عليهم كميات ضخمة من الأغذية والنبيذ .

لقد وصل رمسيس الثالث إلى منف بعد عدة أيام من علمه بواقعة تظاهر عمال دير المدينة . وشعر بشيء من الاطمئنان وهو يسمع هتافات أفراد الشعب وشكرانه لما قدمه لهم من هبات وعطايا . وأخذ الأولاد يتبعون عربته ، وهم ينادونه فى بهجة وسرور وكانوا يهتفون أيضا للملكة ولأبنائها .

وأول ما فعله رمسيس الثالث عند وصوله ، هو التوجه إلى قصره لتغيير ملابسه وتاجه . بعد ذلك ، توجه هو وأسرته ، حيث أقيمت كافة الاستعدادات والتجهيزات من أجل الاحتفال باليوبيل . والبعض منها كان قائما من قبل ، ولكن أضيفت إليه بعض الزخارف والزينات . وتوجه الفرعون نحو البناء الذى أحيط بعدة بناءات صغيرة تتضمن بداخلها تماثيل للآلهة قامت مجموعة من المراكب بنقلها عن طريق نهر النيل .

وتقدم حاكم المدينة نحو الفرعون وركع أمامه ، رافعا ذراعيه إلى الأمام لتحيته وبدت الملكة بجوار رمسيس الثالث ، وقد ارتدت هى أيضاً الملابس الملكية الرسمية .

وقال الحاكم للملك :

– « لقد أعلنت عن مناسبة الاحتفال بيوبيلك فى كافة المحافظات » .

فأجابه الفرعون :

– « هذا حسن للغاية . فقد استقبلنى أفراد الشعب وقد غمرتهم البهجة والسرور » .

بعد ذلك ، تأكد رمسيس الثالث من أن كافة الاستعدادات قد تمت على خير وجه من أجل الغد . ثم توجه إلى قصره ليحصل على قسط من الراحة ، ليتمكن من الاستيقاظ مبكراً فى اليوم التالى ، لبدء الاحتفالات . وفى طريقه إلى قصره كان يرى المصريين وهم مصطفون لاستقباله وهم يمدون بأيديهم ممسكين بتماثيل صغيرة لعدة آلهة ويهتفون له .

وهنا ، قال رمسيس الثالث وقد بدت علامات السعادة على وجهه ، لابنه خع إم واست الذى كان قد ساهم هو أيضاً فى الاستعدادات والتنظيمات من أجل هذا الحدث الكبير :

– « هذا يبين لى أن شعبي مازال يكن لى بعض الحب » .

فسأله أبنه مندهشاً :

– « وهل كنت تشك فى ذلك ؟! » .

– « نعم . وأنا أقر بذلك . فبعد أن علمت ببعض الأمور ، انتظرت أن يستقبلنى الشعب بصيحات الاستياء والاستنكار والاستهزاء » .

– « لا . إن الجميع يحترمون الفرعون الذى اختارته الآلهة من أجل حكم مصر » .

وأمضى رمسيس الثالث ليلته كلها بجوار « تيى » . وفى صباح اليوم التالى ، استيقظ مبكراً . وارتدى ملابسه الرسمية . ولم يرتد تاج الجنوب والشمال الذى كان قد وقع عليه اختياره مساء أمس . ولكنه فضل تاجاً أبيض وأسود يعلوه قرنان ذهبيان ، يتوسطهما قرص شمسى متألق . ثم ثبت لحيته المستعارة فوق ذقنه بحيث ترتبط بشعره المستعار . وهنا قالت له « تيى » :

– « ولكننى أفضلك حليق الذقن تماماً » .

– « وأنا أيضا أفضل ذلك . ولكن على أن ألتزم بأصول « البروتوكول » . والآن ، يمكن؛ أن تذهبى فليس من اللائق أن تكونى معى عند حضور الملكة » .

فرمقت « تيى » الفرعون بنظرة نارية . إنها تعتقد بأنها تفوق هذه « الزوجة الملكية المعظمة » فى أهميتها وتميزها . خاصة أن تلك الملكة لم تنجب من الفرعون ، سوى بضعة أبناء يتسمون بالغرور والتفاهة . وهنا قال لها الفرعون :

– « إننى أكاد أقرأ ما يجول بخاطرك من خلال هاتين العينين السوداوين . ولكن عليك أن تعلمى ، أن أبنائى يعتبرون محاربين أشداء . وسواء أقادوا سلاح العربات الحربية أم البشر ، فقد ولدوا لكى يقودوا ويحكموا ! » .

وهنا مطت « تيى » شفتيها معبرة عن اشمئزازها ومعارضتها تماماً لهذا الرأى ولكن رمسيس الثالث أضاف قائلاً وهو يثبت تاجه فوق رأسه :

– « ليس من المعقول أبداً أن أبقى هذه الليلة مع حريم المصاحبة . بل من المفروض أن أقوم بزيارة حريم منف » فأجابته « تيى » وقد انتابها الغضب والتمرد :

– « لقد كنت أشك فعلاً فى أنك لا تولينى أى اهتمام » .

وأخذ الفرعون ينظر إلى جسدها الرشيق الفارع ، وساقيها اللتين تشبهان فى رشاقتهما قوائم الغزلان ، وعينيها السوداوين الواسعتين الحالمتين . وبدا ثوبها فائق الشفافية ، لدرجة أنه كان يعبر عن أدق تفاصيل جسدها .

وعندئذ ، أعلن الحاجب عن وصول الملكة . ولذا فقد انسحبت تى من حجرة الفرعون فى تردد وتثاقل واضح . فلم يعجبها مطلقا تنحيتها جانباً بمثل هذا الأسلوب ولذا فقد حاولت جاهدة أن تراها الملكة عند دخولها الحجرة من خلال المرآة التى كان الفرعون يعدل من ملابسه أمامها . وعندما رأتها « الزوجة الملكية المعظمة » وهى تتوارى من خلال الأبواب الجانبية المستترة المؤدية إلى ممر ينتهى عند جناح الحريم ، ابتسمت ابتسامة خفيفة تدل على التسامح . فهى تعرف أن زوجها الفرعون يعانى من بعض الأمراض ، ولكن ذلك لم يمنعه أبداً عن اندفاعاته العاطفية . بل هى ترى أنه من الطبيعى جداً أن يفضل الفرعون عليها النساء الشابات صغيرات السن ويكفيها أنه كان ، نعم الزوج بالنسبة لها . ولكن ، ها هى الآن قد ذبلت نضارتها وشبابها ، بعد أن أنجبت له العديد من الأبناء .

وعلى الفور أمر الفرعون بإعداد عربة الاحتفالات الرسمية . وانطلقا معا إلى المكان الذى أقيمت به . وهناك وجد رمسيس الثالث فى استقباله جمعاً كبيرا من القضاة وهم يعلقون على صدورهم ، تماثيل صغيرة تمثل النقاء والطهارة . وهب لاستقباله أيضاً عدد كبير من كبار الكهنة . وبعدئذ ، دخل الفرعون ، لبعض الوقت ، في مبنى صغير وخلع ملابسه ، من أجل أن يرتدى مئزراً بسيطاً للغاية . فهكذا ، سوف يحضر الاحتفالات ، لأن هذا الزى الأبيض البسيط يشير إلى وفاة الفرعون وصحوة خليفته فى يوم التتويج .

عموماً ، لم تستمر المراسم وقتاً طويلاً . فقد دعا الكهنة الملك إلى القيام بعملية التطهر . وبواسطة بعض الأوانى المصنوعة من الفضة ، أخذوا ينثرون قطرات من المياه على جسده ، وهم يتمتمون ببعض التراتيل الدينية . ثم أخذوا يمسحون على جسمه ببعض الزيوت العطرية . وأخيراً ، قدموا له ثوباً أبيض اللون . ثم قالوا جميعاً معاً فى آن واحد :

– « فليختف أوزوريس إله الموتى . وليعمل حورس على بعث الفرعون من جديد فوق عرش مصر . وليتمتع ابن الإله الشمسى بفترة حكم أبدية » .

ومن أجل أن يكون حكم الفرعون متناسقاً تماماً مع الإله آمون ، تقدم بعض الكهنة وهم يحملون الرموز والشعارات الخاصة بالإلهة « موت » ، زوجة الإله . وأخذوا يهزون الصلاصيل ، وقادوا رمسيس الثالث لكى يجلس بوسط الفناء ، وهم يحرقون بعض البخور العطرى . ثم تقدموا حاملين تمثال الإله آمون . وبذا تمكن الفرعون من توجيه حديثه إليه :

– « فلتغمر السعادة والبهجة جميع آلهة مصر ، فإننى ، فى هذا اليوم أتسلم ثانياً المروحة والصولجان . وبداخل هذا الصندوق ، توجد ورقة البردى التى دون عليها أن الإله ست والإله حورس قد أسبغا على القوة والنفوذ ، وعليها دونت أيضاً كافة الالقاب والوظائف التى منحها لى الإله تحوت . إن الاحتفال يتم بذكرى تتويجى فى كل عام بمدينة هابو . ولكن هذا اليوبيل يحيى ذكرى ثلاثين عاماً من حكمى لمصر تحت رعاية الإله آمون ؛ فإننى لم أستحوذ على الملك بالعنف أو بالقوة . لقد ولدت من أجل أن أكون ملكاً » .

وعندئذ ، أخذ أفراد الشعب يصحيون هاتفين :

– « المجد لك ، يا رمسيس ، أنت بن رع ، سيد هليوبوليس ، الذى ترعاه آلهة مصر السفلى ومصر العليا » .

بعد ذلك ، توجه رمسيس الثالث إلى نفس المكان الذى كان قد استقبله فيه حاكم منف . وجلست الزوجة الملكية المعظمة بجواره ، فوق عرش من الذهب الخالص ، مرتفع إلى حد ما ، عن سطح الأرض . وأمامه ، تم رص تماثيل مختلف الآلهة . وتقدم الكهنة الوافدون من كافة أنحاء مصر بمصاحبة تماثيل آلهتهم ؛ لتحيته . وبدا رمسيس الثالث وقتئذ ، وقد إرتدى التاج الأبيض الخاص بمصر العليا . ولكن ، عندما بدأ يقدم القرابين والهبات إلى الآلهة الحاضرة بهذا المكان إرتدى أيضاً التاج الأحمر الذى يرمز إلى مصر السفلى . ثم قام بتطهير قدميه .

وفى البداية ، التزم أفراد الشعب الحاضرون السكون التام . ثم سرعان ما انطلقوا هاتفين بحياة الفرعون ، وهم يلوحون بشارات متعددة الألوان .. وعندئذ ، بدأ تمثيل كافة خطوات عملية تتويج الفرعون ، بدقة متناهية . وهنا ، قال الملك فى حماس واضح :

– « ها هى اللحظة التي سوف أبين لهم فيها أننى لست بطاعن فى السن » .

وحقيقة أن الملكة قد سرها كثيراً أن ترى زوجها مفعماً بكل هذه الحيوية والحماس ، ولكنها طلبت منه هامسة أن ينأى عن إرهاق نفسه . ولكن سرعان ما انطلق الفرعون بخطوات واثقة ثابتة إلى مكان خلع وتغيير الملابس . وهناك ، أخذ أحد الحجاب يساعده فى خلع ملابسه وارتداء مئزر قصير . وأمسك رمسيس الثالث بصولجانه ، ثم انطلق إلي الساحة التي كانت قد أعدت من أجل الاستعراض الرياضى . وهناك ، فوق مساحة من الأرض اللينة ، قام بعرض مصارعة مع أحد أبنائه . وبعد ، بدأ يؤدى قفزات هائلة ، وكأنه بطل رياضى في فورة حيويته وقوته . وعندئذ ، تعالت الهتافات بحياة الفرعون ، عند نهاية هذا العرض الرياضى . وعاد رمسيس الثالث ، وقد تلاحقت أنفاسه ليجلس بجوار الملكة التي أخذت تهنئه قائلة :

– « إنك تبدو وكأنك شاب فى الثلاثين من عمره ؛ بفضل ما يسبغه عليك كل من رع وآمون من رعاية » .

– « إننى أشعر بوجودهما داخل كيانى ، مثلما كنت أشعر وأنا أخوض معاركى الحربية . إنهما الآن ، ينقلان إلىّ قدرا كافياً من القوة والحيوية ؛ من أجل أن أستهل مرحلة جديدة من الحكم » .

وبعد أن ارتدي الفرعون ملابسه الرسمية الخاصة بالاحتفالات ، أخذ حربة ووجهها نحو السماء قائلا وهو يقذف بها إلى أقصى مدى ممكن :

– « فلتبدأ المرحلة الثانية من حكمى . النصر للفرعون الذي لا يضاهيه أحد فى ساحة القتال ! ... لقد كرمت الإلة بتاح من خلال المئات من القرابين ! ... فليساعدنى ويعاوننى حتى نهاية حياتي الدنيوية ! ... لقد بوأنى أبى آمون العرش من أجل أن أحى العديد من اليوبيلات ، وفقاً لرغبة بتاح تانن » .

وقتئذ كانت « تيى » تجلس بمصاحبة بقية زوجات رمسيس الثالث ، على الجانب الآخر من المنصة . كانت ترمق بكل الحب والإعجاب هذا الملك الذى تبوأ عرش مصر طوال ثلاثين عاماً ، وتزوج الملكة المعظمة وهى لم تناهز الخامسة عشرة من عمرها . حقاً لقد أضفت عليه هذه الاستعراضات وقتئذ ، نضارة وشباباً متألقاً . وحقيقة أن بعض التجاعيد كانت تتراءى على قسمات وجهه ؛ وبدت نظراته أحياناً ، هائمة فى

لاشيء ، ومع ذلك فإن «تيي » كانت تكن شغفاً وغراماً بهذا الرجل الذى يكبرها سناً ؛ ولكنها ، فى نفس الوقت ، كانت تشعر نحوه بشىء من الكراهية والحقد ؛ لأنه لا يريد أن يقر بأحقية ابنها « بنتاورت » كوريث للعرش . إنها ، حقيقة ، تهيم غراماً بالفرعون ، ولكنها ، فى نفس الوقت تكن لابنها حباً عميقاً . في هذه اللحظة ، بدأ رمسيس الثالث يقول : - « أقسم أننى سوف أمضى دائماً فى حماية مصر والدفاع عنها ، من منطلق ما تنادى به « معات » ربة العدل ، والمساواة والتوازن والسعادة وسوف أسير علي نفس نهج . رمسيس الثانى ، وسيتى الأول ، ورمسيس الأول ، وكل من سبقونى على عرش مصر . أنا ابن رع . بل أنا أيضا خادمة ومعاونه ! » .

وهنا ، أخذت « تيى » ترمق هذا الفرعون الذى تجله وتهيم به حباً بعينيها الواسعتين الخلابتين ، وهى تحدث نفسها :

- « إذا لم تطعنى ، وإذا رفضت أن يكون « بنتاورت » وريثاً لك فوق العرش ، فسوف أقتلك ولن أتردد فى ذلك أبداً ! » .

وقام الفرعون من مقعده فى نفس تلك اللحظة ، وكأنه يريد أن يهرب من نظرات « تيى » الرهيبة . وعندئذ ، بدأ مرور المواكب . وهى تشير خاصة إلى مراحل حياة وحكم الملوك القدامى السابقين . وقام بعض الكهنة ، بوضع العمود « چيد » ، رمز البعث بجوار الملك . وبدأت عملية تقديم العديد من الشخصيات البارزة وكبار موظفى الدولة إلي الفرعون . وأعلن الوزير « تا » أن الاحتفال سوف يعم كافة معابد مصر ، وأن يوبيل رمسيس الثالث سوف يدعم ويقوى من فيضان النيل .

وأخذ الموسيقيون والمغنون ، ولاعبو الأكروبات ، يؤدون عروضهم لفترات ممتدة . وأندفع أفراد الشعب يرقصون ، وبدت زوجات الفرعون وهن يتناولن الشراب ابتهاجاً بهذه المناسبة ؛ في حين تقدم أبناء الفرعون نحوه ليهنئوه ويحيوه . ولكن ، « تيى » بدت وكأنها قد تسمرت فى مكانها ؛ وركزت نظراتها نحو ابنها بنتاورت ، الواقف خلف رمسيس الثالث ، منتصب القامة ، مرفوع الرأس . أما رمسيس ، وهو أحد أبناء الفرعون من زوجته الملكية المعظمة ، الذى كان قد تعدى الأربعين من عمره فقد وقف بجوار أبيه ، وأخذ يحيى هو الآخر ، أفراد الشعب .

شرعت « تيى » تتجرع ، فى عصبية واضحة كأساً من الجعة . ها هو الفرعون منذ أن رجع إلى منف ، لم يتنازل بزيارتها ولو مرة واحدة . وخلاف ذلك ، فيما زاد من إيلامها أنه لم يعد يوفى بوعده لها بخصوص ابنهما « بنتاورت » وأخذت تحدث نفسها قائلة : يبدو لى أنه يحاول أن يتلافى مصاحبتى ، منذ أن بدأت أحدثه عن « بنتاورت» .

وأخذت تغدو وتروح فى جناحها الخاص ، وكأنها أسد حبيس فى قفصه . فهى تنتظر قدوم المجموعة التى استقطبتها نحوها واستمالتها شيئاً فشيئاً إلى قضيتها . وأخيراً ، فتح باب حجرتها ، ودخلت مجموعة من كبار موظفى القصر ، وبعض أعضاء أسرة الفرعون ، بل وأيضاً بعض حراس القصر المعتادين . وتقدم كبار موظفى القصر نحوها لتحيتها ، وقد بدا عليهم الوجوم والحيرة . إنهم من أكبر حجاب القصر منزلة وأهمية ، ويحظون بثقة لا نهائية من جانب الفرعون . وجلسوا على الأرض ، فوق حصيرة من القش . وعندئذ ، أخذت « تيى » تقدم لهم أكوابا من النبيذ وأطباقاً من الفاكهة . ولزم الجميع الصمت التام .

بعد لحظات وجيزة ، حضر أيضاً مساعد رئيس الحريم وساعده الأيمن بمصاحبه الكاتب « بيرى » ، ومعهم ستة آخرون من كبار الموظفين . وعلى الفور ، بدأ « بيرى » كلامه . ولقد بدا الإرهاق واضحاً على قسمات وجهه ، وكأنه أمضى ليله سوداء كلها أرق وقلق . وقال لـ « تيى » :

- « لا تعتقدي مطلقاً أننى قد انحاز لجانبك . لن أخون مليكى مطلقاً . ولكن يمكننى أن أعدك فقط ؛ بألا أنطق بكلمة واحدة أو أبلغ الفرعون عنك » .

وسارع مساعد رئيس الحريم يقول هو أيضا :

- « وكذلك الأمر بالنسبة لى » .

وعن الرجال الستة الآخرين ، فقد بينوا عن انضمامهم هم أيضاً إلى رأى « بيرى » بإيماءة من رؤوسهم دون أن ينطقوا بكلمة واحدة . ثم هموا جميعاً بمغادرة حجرة « تيى » ، وقد ارتسمت على وجوههم علامات الضيق والتأفف .

وهنا ، تقدمت « تيى » منهم واعترضت طريقهم قائلة ، وكأنها تمنعهم من الخروج : « أنتظروا ! .. ألا تعرفوا أن ابن رئيس الخزانة الملكية ومفتش الحريم المدعو « كبيز » ، قد قبلا الإنضمام إلينا ؟

فقال لها « بيرى » وهو يهز رأسه معترضاً :

« – لايمكننى أن أصدق ذلك .. لا هذا مستحيل ! » .

وعندئذ ، دخل الحجرة أحد ندماء الفرعون المقربين وقال :

– « ولكنها الحقيقة فعلاً » .

وهنا شعر الكاتب « بيرى » بفزع وقلق شديد وهو يرى مجموعة الرجال الذين دخلوا لتوهم حجرة « تيى » انهم عدد من ندماء الملك ورجال حاشيته ، يتسم تصرفهم وسلوكهم هذا بالعداء والإصرار الواضح . فقال محتداً :

– « إبنى » ، أنت ، هنا ؟! .. وأنتم أيضا ؟! » .

ثم أضاف قائلاً :

– « إذن ، ليس الأمر مجرد غيرة أو تنافس ؛ بل إنها لمؤامرة بمعنى الكلمة » .

وهنا قاطعه أحد الندماء الحاضرين بقوله :

– « وأنا أنصحك بألا تبوح بشئ مطلقاً لأى إنسان » .

وقال واحد آخر من هؤلاء الرجال :

– « وسوف تشعر بمزيد من الدهشة ، لو أننى ذكرت لك أن كبير حجاب رمسيس الثالث ومساعدة قد انضما إلينا » .

عندئذ ، قال « بيرى » وهو يغادر غرفة « تيى » :

– « لا أريد أن أعرف شيئاً ..... إنكم إذا تآمرتم على الفرعون ، فسوف تمحوكم الآلهة من الوجود ! .. لا تسببوا للملك أى آلآم . إنه لايستحق ذلك ! » . هنا ، سارع نحوه أحد هؤلاء الندماء ، وأمسكه من ذراعيه قبل أن يغادر الحجرة ..

وقال له : – « أقسم بآمون ، أنك لن تتحدث مع أحد فى هذا الأمر ! » .

– « لا تنطق باسم الآلهة ، فى حين أنك تتآمر من أجل الاعتداء على ابن رع ، الذى احتفل لتوه بيوبيله الذى يثبت قواعد حكمه إلى أبد الدهر . سوف أفعل ما أراه مناسباً » .

وحينئذ ، قالت « تيى » لهذا الحاجب :

– « اتركه يمضى . إنه لن يفتح فمه مطلقاً . إننا سوف نستحوذ على السلطة فى خلال بضعة أيام . وسوف يتبوأ ابنى بنتاورت حكم مصر . فإذا حاول « بيرى » إفشاء

سرنا ، فهو يعرف ما سينتظره . إننا سنعمل ، بدون رحمة أو شفقة ، على إلقائه إلى التماسيح ، ليلقى أبشع ميته » .

فأجابها « بيرى » على الفور :

– « إن تهديداتك لن تخيفنى أو ترعبنى » .

– « لا أعتقد ذلك . عليك فقط أن تعلم أن هناك فرقاً عسكرية قد تأهبت لدخول بى – رمسيس ، من أجل خلع رمسيس الثالث عن العرش . إنها قادمة من النوبة وتتكون من أمهر الجنود المدربين على أعلى مستوى . أذن ، فربما تساعدك هذه المعلومة ، على التزام الصمت التام » .

وهنا قال لها بيرى وهو يصحب معه أصدقاءه إلى خارج الحجرة :

– « لا يهمنى مطلقاً سماع المزيد » .

وفى نفس لحظة خروجهم من باب الحجرة ، حضر اثنان من قادة الجيش وكاهنان من المختصين بالمراسم الدينية المهمة ، وكانا قد ساهما لتوهما فى احتفالات يوبيل رمسيس الثالث . وبدا الكاهن المختص بإقامة شعائر آلهة بوباستس وقد غطى وجهه بطرف ردائه ؛ حتى لا يتعرف عليه أحد .

ووفد أيضاً إلى جناح « تيى » الخاص بعض نساء الحريم ، من أجل المشاركة فى التآمر . وحينئذ ، وجهت « تيى » إليهن كلامها قائلة :

– « وماذا تم بخصوص السحرة ؟ » .

فأجابتها إحدى زوجات الفرعون الأخريات :

– « لقد وعدونى بأنهم سوف يلاقوننا هنا » .

وهنا سألهن « إينى » متهكماً .

– « وسحرة أيضاً ؟! » .

فأجابته « تيى » بصرامة وحزم :

– « نعم . سحرة . فربما قد نحتاج إلى مساعدتهم . ولقد استقطبت إلى جانبنا أيضاً الكاتب « مسوى » فهو عليم بالعديد من الطلاسم والوصفات السحرية ، وكذلك

الكاتب « إيرى » الذى يسكن على مقربة من القصر . ولقد أقسم لى بالإله رع أنه لن يفشى سرنا هذا لابنه ولا لزوجته ، ولكنه سوف يفتح لنا الخزائن التى تتضمن الوصفات السحرية « ببيت الحياة » . بل ، لقد نجح لتوه فى جعل حرس القصر يغطون فى نوم عميق ؛ من أجل أن نتجمع هنا بدون أى عائق » .

وعندئذ قاطعها « إينى » متسائلاً :

– « كيف بحق الآلهة ؟ ! » .

– « ربما بواسطة بعض المشروبات النباتية » .

– « حقا ؟ ! ... ، عادة ما توصف المشروبات الساخنة من أجل جلب النعاس إلى العيون » .

– « كفاك تهكماً من السحرة . إنهم لن يتركوك سليماً إذا سمعوك تتحدث عنهم بهذه الكيفية . لقد شاهدتهم بعينى وهم يؤدون أموراً خارقة . كما تضم مكتبة الفرعون الكثير من الوصفات لعمل مشروبات سحرية لها فعالية على التماثيل الشمعية الصغيرة نفسها » .

حينئذ ، انفجر « إينى » ضاحكاً . وهنا دخل « مسوى » من باب الحجرة ، وقال بصوت ذي نبرات عميقة رخيمة ، وكأنه يأتى من أعماق إحدى المقابر :

– « إنك ترتكب خطأ جسيماً باستهزائك هذا . فإننى كفيل بأن أجعلك تبتلع ، فى آن واحد ، هذا الكلام السيئ وضحكات الاستهزاء هذه » .

وشعر « إينى » بقشعريرة تجتاح أو صاله عند سماعه لنبرات صوته الرهيبة . فانزوى ساكناً بأحد الأركان ، وتمدد فوق السرير بدون أن ينطق ثانياً بكلمة واحدة .

وأضاف « مسوى » قائلاً :

– « لقد استوليت بالفعل من المكتبه على بعض البرديات التى سوف تعود علينا بالنفع . ولكن ، الضرورة تحتم ألا يلحظ ذلك أى كاتب من الكتبة « ببيت الحياة » ولذا فعلى أن أقوم ، هذه الليلة باستنساخها وإرجاعها ثانيةً إلى مكانها . ولهذا السبب كنت متردداً فى الحضور هنا » .

وعند اجتماع جميع هؤلاء المتآمرين مرة أخرى ، قاموا بوضع خطة محكمة لتنفيذ مؤامرتهم . ووعدهم « مسوى » بأنه سيقابل فى اليوم التالى « باخنوم » المشرف الأعلى بالقصر . وكان هذا الأخير قد قام بمهمة المراسل الموزع لخطابات النساء المتآمرات مع « تيى » إلى الخارج ، وهكذا ؛ تكونت فئات خارجية مناهضة للفرعون وعلى أهبة الاستعداد للثورة والتمرد .

* * *

وتم الاتفــاق أيضــاً بين أفـراد المؤامـرة ، على أن يقـوم المشـرف الأعلى على القطعان ، المدعو « بنوى » بمحاولة سرقة أحد النصوص السحرية المهمة من مكتبة الفرعون . وكان « مسوى » قد عجز عن الحصول عليه ، بالرغم من كونه على درجة كبيرة من الأهمية من أجل تفسير الكثير من الكتابات السحرية .

وتم كل شئ وفقـا للتخطيط المتفق عليه . وحضر « مسوى » إلى جناح كبير مشرفى القصر ، بعد الظهيرة ، أى فى الوقت الذى يخلد فيه الفرعون قليلاً إلى الراحة . وكان المشرف الكبير « بنوى » قد نجح بالفعل ، فى اختلاس النص السحرى النفيس الذى يريده « بباخنوم » وقال « مسوى » « لبنوى » .

– « أريد أن تكون كافة الأمور واضحة تماماً . الأمر يتطلب تغيير سلوك وتصرفات ندماء الملك . فلو أننا نجحنا فى جعلهم يركنون إلى التراخى واللامبالاة ، نكون قد حققنا نتيجة طيبة . أما إذا استطعنا أن نؤجج نيران الحقد والضغينة فى قلوبهم ضد مليكهم ، يكون ذلك أمراً رائعاً » .

ويبدو أن « بنوى » كبير حجاب الملك ، كان لايميل كثيراً إلى الأخذ والرد والثرثرة . فتمتم ببعض كلمات غير مفهومة من خلال شفتيه المقفلتَين .

عندئذ أضاف « مسوى » قائلا :

– « إذن ، افعل كل ما تستطيع . إننى أعرف ذلك جيداً . ولكن ، فى موضوعنا هذا ، حاول أن تتفوق على نفسك » .

لم يهتم « بباخنوم » بالنظر إليه . ووضع أمامه صندوقين خشبيين يحتويان على أدواته ومتعلقاته . ويبدو أنهما كانا بمثابة كل ما تتضمنه غرفته الصغيرة من أثاث ،

بالإضافة إلى سرير خشن بسيط ، ومقعد قديم له ظهر متوسط الارتفاع . وجر المقعد نحوه ليجلس عليه أمام أحد الصندوقين . ثم بدأ يفرد البردية فوق الصندوق المقفل باعتباره منضدة يعمل عليها . وأخذ يقرأ النص فى اهتمام وتركيز بالغ . ثم وجه كلامه إلى مسوى قائلا :

– « حاول أنت أن تركز فى تفسير تلك العلامات والعبارات المطلسمة . وسوف أقوم أنا بالباقى » .

وظل الرجال الثلاثة منكبين على هذا المخطوط القديم ، حتي مالت الشمس نحو المغيب . وخلال قراءته به ، كان « بباخنوم » يدون عنده بعض الملاحظات . أما الاثنان الآخران ، فكانا ، بين لحظة وأخري يطلبان منه بعض الإيضاحات والإجابات . ولكنه كان يكتفى ، للرد عليهما ببعض التمتمة ، وهو يركز تركيزاً كبيرا على ما يقرؤه من طلاسم سحرية . ثم بدأ يجمع بضعة أوانٍ مرمرية ، ويرفع غطاءها ليتشمم جيداً ما بداخلها .

وفى نهاية الأمر ، قام برص ثلاثة أوعية أمامه . وطلب من « بنوى » فى لهجة مقتضبة صارمة أن يحضر إليه إناء آخر أكثر اتساعا مصنوعاً من الزجاج الثقيل . ثم قال « لمسوى » بصوت آمر حازم :

– « لف هذه البردية . وضعها بعيداً بمنأى عما يلطخها » .

ونفذ « مسوى » على الفور ما أمر به .

وأخذ « باخنوم » بعض العجائن المتباينة الألوان . وكون بها خليطاً عجيباً من العجينة ، وهو يرجع دائماً إلى ما سبق أن دونه من ملحوظات خلال قراءته للنص السحرى المطلسم . وعندئذ ، قال للأثنين الآخرين آمراً :

– « اذهبا بعيداً ! .. إن ما أفعله الآن هو شئ غاية فى السرية . وأنا أعرف أن «مسوى» على دراية كبيرة بفنون السحر ، وبذا ، ربما يستطيع أن يتبين مكوناته ، وحقيقة ، إننى أعمل هنا ، على الاستعانه ببعض الوصفات السحرية التى جاءت بكتاب السحر الذى قرأته لتوى ، ولكنى ، مع ذلك ، أضيف إليها الكثير من معلوماتى ومعرفتى الخاصة . والسحرة لايحبون أبداً أن يكشف أحد عن أسرارهم »

وهكذا ، استـغرق « باخنوم » فى عـمله هذا ، لبـعض الوقت . وأخـذ يخلط ، ويسحق بعض المواد ، ويمزج بعض السوائل ، أو يتذوقها بطرف لسانه ، أو يضيف إليها بعض الإضافات الأخرى .

ولما وجد أن الشراب قد أصبح على خير ما يرام ، طالب شركاءه فى المؤامرة بمعاونته .

- « والآن يجب صنع بعض التماثيل الشمعية . وسـوف تفـعل أنت ذلك يا « مسوى » ».

وعندئذ ، أخذ « مسوى » كتلة من الشمع ، كانت قد عرضت لأشعة الشمس لكى تلين ، وانتزع منها جزءاً بسيطاً ، وأخذ يشكله ويطوعه فى مهارة فائقة تدل تماماً على أنه ليس مبتدئاً أبداً فى هذا المجال .

وتكونت أمامه كمية ضخمة من التماثيل الصغيرة التى تمثل بعض الآلهة والإلهات ، وقال مسوى مشيرا إليها :

- « سوف تقوم هذه التماثيل الصغيرة بدور الوسطاء . فإننى أفضل الاستعانة بمساندة الآلهة . ولا أميل كثيراً إلى فكرة عمل تماثيل مشابهة لأشكال من نريد النيل منهم . ووسيلتى هذه هى الأكثر فعالية » .

وتم رص التماثيل الصغيرة بجوار الشراب السحرى ومجموعة من الإبر الرفيعة ، كانت « تيى » قد قدمتها لهم من أجل هذا الغرض .

حينئذ ، قال « مسوى » :

- « يمكننا الآن أن نبدأ مهمتنا . فالتجهيزات قد تمت تماماً » .

ولكنه لاحظ أن « بنوى » كان يرتجف هلعاً ورعباً . فسكت لحظة ، ثم قال له :

- « هل أنت خائف . وهل تستطيع المضى فيما بدأته معنا ؟ » .

فقال لها بيرى وهو يهز رأسه معترضاً :

- « نعم . لقد طرأت إلى فكرى فكرة ما . وربما أن رع هو الذى أرسلها إلى قبل أن أسرق المخطوط السحرى » .

– « إننى أتبين حقيقة مخاوفك . إنك تعرف أن القتل هو مصيرنا المحتوم إذا ما اكتشف أمرنا . فإن أى إنسان يقترب من هذه النصوص السحرية ، باستثناء كتبة بيت الحياة أو كبير الكهنة « الواعب » يحكم عليه بعقوبة الإعدام . ولاشك أننى قد ألقى نفس هذا المصير ؛ لأننى قد استنسخت بعض النصوص التى لايجب أن تخرج أبداً من نطاق « بيت الحياة » . فإذا أردت أن تنسحب ، يمكنك أن تفعل ذلك . ولن نخبر أحداً بتورطك معنا فى هذا الشأن . بل إننى ، سأقوم بنفسى بإرجاع المخطوط إلى مكانه .

– « لا تشغل بالك . سوف أكمل ما بدأته . ولكن الخطورة بالنسبة لى تتراءى خاصة ، من خلال تنقلى فى أجواء الحريم . فإننى لا أشغل أية وظيفة بالقصر . فماذا عسانى أقول للحراس . إذا ما استوقفونى وسألونى عما أبغيه من وجودى هناك ؟ » .

– « جميع الحراس قد لستقطبوا نحو قضيتنا . وسوف تقوم هذه التماثيل الصغيرة ، بمهمة إخضاع بقية الحراس تحت سيطرتنا الفعالة » .

وهنا شعر « باخنوم » بضجر وضيق من تلك المناقشة التى تعوق تركيزه . فأخذ يرص قواريره بعصبية واضحة . ثم قال :

– « لقد فات أوان التراجع . علينا الآن أن نبدأ ما اتفقنا عليه . وبعد ، سوف نعمل على إدخال هذه التماثيل الصغيرة إلى مقر الحريم . وإذا كان « بنوى » لايستطيع أن يفعل ذلك لجبنه الشديد ، فسوف نقوم به نحن » .

بعد ذلك قام « مسوى » بطبع حروف هيروغليفية وأختام فوق التماثيل الصغيرة ، وهو يتلو عبارات سحرية :

– « ليقفل إلى الأبد أى فم يحاول إفشاء سرنا . ولتشتعل قلوب كل من يعيشون فى هذا القصر بنار الكراهية والبغض للفرعون وبالرغبة فى موته » .

وأخذ كل من « بنوى » و« باخنوم » يرددان نفس العبارات التى نطق بها «مسوى » بصوت خفيض . وأمسك مسوى بقطعة من ورق البردى التى لم تستعمل أبداً من قبل ، وكتب عليها ، بالحبر الأحمر ، أسماء كل من يريدون النيل منهم . ثم قرب ما بين أذرع التماثيل الصغيرة ، وربطها ثم صاح :

– « ولتصبح هذه الوسيلة أمراً فعلياً ! » .

وهنا قال « باخنوم » :

- « تستلزم الضرورة دفن هذه التماثيل الصغيرة فى مكان ما ، حتي يحين وقت الاستعانة بها » .

ثم قام مسوى ، بعد ذلك بصنع تمثال صغير جديد من الصلصال يمثل الفرعون . عندئذ ازداد جسد « بنوى » ارتجافا وارتعاشاً . فإن اقتراف أى عمل يهدد الفرعون ، يعتبر ، فى حد ذاته ، بمثابة انتهاك لا يغتفر أبداً لقدسيته وألوهيته .

وحالما انتهى « مسوى » من عمل التمثال الصغير الممثل للفرعون ، اقترب منه « باخنوم » وبصق عليه . ثم أخذ يثقبه بالإبر التى كانت « تيى » قد قدمتها لهم . وألقى بعد ذلك ، بالتمثال على الأرض . وأخذ الرجال الثلاثة يدهسونه بأقدامهم . ثم غرسوا عصياً صغيرة فى جمجمته ، وبعد ذلك أحرقوه تماما . وقال مسوى : « سوف أكرر هذه الشعيرة السحرية عدة مرات كل يوم ، حتي يتحقق النجاح لخطتنا . وسأقوم بكتابة اسم الفرعون فوق ورقة بردى لم تستعمل أبداً من قبل أو فوق تمثال صغير من الشمع الأحمر اللون ، ثم أمحوه بعد ذلك . وهكذا ، سوف يكون مصيره المحتوم هو الموت . وسوف ينتهى الأمر بمناهضة الجميع له » .

ولكن « بنوى » رد عليه قائلاً :

- « ولكن إذا اكتشف أمرنا ، فإن أسماءنا نحن هى التى سوف يمحوها الفرعون ويغيرها . ويطلق علينا أسماء أخرى ، مقيتة ، كمثل : « الذى يكرهه رع » أو « الحاجب الأعرج » ، أو الخادم الدنئ « وكل ما شابه ذلك » .

فأجابه « باخنوم » :

- « إن تشاؤمك يصيبنى بالإحباط . لو أنك بقيت على هذا المنوال ، فسوف تجعل العين الشريرة تتوجه نحونا » .

وهنا ، قدم كبير الحجاب لمسوى هلالاً سحرياً صنع من بعض أسنان فرس النهر . ونقش « مسوى » على ظهر هذا الهلال السحرى ، إحدى العبارات السحرية ؛ ورسم بجوارها منظراً لجنى من الجان الحامية . وقال لـ « بنوى » و « باخنوم » :

– « احتفظا به معكما . فهو يجلب الحظ الحسن . ويعمل على توفيقنا فى مهمتنا . ولكن ، حاولا ألا يراه أحد معكم . فإن ذلك يثير التساؤل والدهشة » .

واندفع « بنوى » وأمسك بهذا الهلال السحرى ، وأخذ يتمتم ببعض الصلوات للإله رع . ثم قام ، هو أيضاً ، بنقش شكلا يمثل طائر العنقاء وقد أحاط به ثعبان ضخم بالإضافة إلى بعض العلامات التى ترمز إلى الحياة والأمان ، فوق تعويذته المصنوعة من العاج . ثم قال « لمسوى» :

– « ولكن هذه الأهلة لا تحمى إلا من الحيوانات الضارة ! » .

– « إنها تعمل على حمايتنا أيضاً من كل من يعملون على إخفاق مهمتنا ، أو على إيذائنا » .

وفى هذه اللحظة ، تراءت « تيى » عند مدخل الحجرة . وهمت بالدخول . ولكن « باخنوم » بادرها قائلا بصرامة واضحة :

– « لماذا حضرت هنا ؟! ... إننى لا أبغى وجود أية امرأة فى هذه الحجرة ! .. إن النساء يجلبن معهن الحظ السيئ ! .. إن مجيئك هنا قد يعمل على إتلاف وعرقلة كافة الاستعدادات السحرية ! » .

ولم تأبه « تيى » مطلقا للعبارات الجارحة التى وجهها إليها كبير الحجاب . بل دخلت إلى الحجرة ، واقتربت من « مسوى » وقالت له :

– « إننى فى حاجة إلى بعض خدماتك . عندما تنتهون من عملكم ، تعالى إلى فى جناحى الخاص » .

ولكن باخنوم أجابها :

– « ولكننا انتهينا من عملنا ، فيمكنك إذن أن تنصرفى . فإننى أشعر أن هذا الثوب الأحمر الذى ترتدينه ، قد يجلب الأرواح الشريرة » .

فقالت له « تيى » :

– « إذن ساعدنى أنت أيضاً . وسوف أغادر هذه الحجرة ، عندما أتلقى إجابتك على سؤالى » .

وقبل باخنوم طلبها على مضض . وقالت له « تيى » :

- « لا شك أن الفرعون سوف يلقى حتفه . ولكن قبل أن يقتل ، فإننى أريد أن تكون آخر أيامه مفعمة بالمتعة والسعادة . أليست لديك أية وصفة سحرية تجعلة ينجذب نحوى ؟ » .

وهنا ، نظر إليها « باخنوم » بطرف عينه وقال لها :

- « إذا كنت مازلت تحبين الفرعون ، وتريدين أن تجعليه متيماً بحبك ، فلماذا قررت إذن أن تقتلينة ؟ !» .

- « لأننى أريد أن يعتلى ابنى « بنتاورت » العرش . ولكن رمسيس الثالث يعترض على ذلك ! » .

وهنا ، تقدم باخنوم ناحية صندوقيه اللذين يضع بداخلهما أدواته وحاجياته . وبدأ يتلو هذه العبارات ؛ متجهاً للإلهين آمون ورع :

- « فليرتبط رمسيس الثالث بهذه المرأة المدعوة تيى . وليكن مثله كمثل القط الذكر الذى ينطلق فى أثناء الليل باحثاً عن أنثاه ، أو النبات المتسلق الذى يحيط بأعمدة القصر ويحتضنها . وإذا لم تعملا ، أيها الإلهان العظيمان على تلبية هذه الأمنية ، وإذا لم تستجيبا لدعواتي ، فلتحترق الربة « معات » بأكملها ولتسقط النجوم فوق الأرض لتحرقها » .

فقالت تيى : « ولكننـى أريد أيضاً أن أستثير رغبته خلال إقامته فى العالم الآخر » .

- « عليك إذن أن تقومى بوضع تمثال صغير يمثلك فى مقبرته . ولكن لن يكون ذلك أمراً سهلاً » .

- « أحياناً ، أشعر وكأننى واقفة على إحدى ضفتى النيل . وهو واقف على الضفة الأخرى . وليس هناك وسيلة لكى نتلاقى . فالتمساح يرقبنا . وفرس النهر يتحفز للانقضاض على من يحاول منا وضع قدميه فى الماء لملاقاة الآخر » .

- إن الحب يحفز على مصارعة أى شئ . حتي لو كان التمساح نفسه . فلو كان رمسيس الثالث يحبك فعلاً ، فمن الممكن أن يعبر النيل دون أن يخشي أى شئ . خذى ، ها هو تمثال صغير ، كنت أحتفظ به دائماً تحت سريرى . لقد كتب عليه :

« فيصبو دائما إلى ملاقاتى » . وسأعطيك أيضاً هذين النصين . فسوف يعودان عليك بالنفع . فالنص الأول يبين لك الوسيلة التى تستطيعين من خلالها إخضاع من تحبين لجعله يتدله فى حبك : أن تغمس إحدى سمكات النيل فى قليل من الزيت العطري لكى تتخذ السمة الإلهية ، وعليك تعليقها بجوار فراشك . ثم قومى بتلاوة العبارات التى ستجدينها مكتوبة فى هذين النصين طوال سبعة أيام متتالية . ثم عليك ، بعد ذلك ، إخفاء هذه السمكة ، بمكان مستتر بحجرة نومك بعد إحاطتها ببعض المر والصبر والملح » .

لم يكن مسموحاً « لتيى » بالذهاب إلى القصر الملكى . ومع ذلك ، فقد عبرت من خلاله للوصول إلى الفناء المؤدى إلى مقر الحريم . وهناك ، كانت تعيش زوجات رمسيس الثالث الأخريات ، على أهبة الاستعداد لمصاحبة الفرعون فى بعض رحلاته وتنقلاته .

وبدت «تيى» وهى تحتضن فى حرص شديد النصوص السحرية الثمينة التى أعارها إياها « باخنوم» . ومع ذلك ، فإن رئيس الحجاب « باخنوم» كان قد دأب على الاحتفاظ بكافة نصوصه ووصفاته السحرية بعناية شديدة وحرص بالغ . خاصة أنه كان يعرف مدى فعاليتها .

أخذت «تيى» تحدث نفسها قائلة :

- « هاأنذا هنا وقد حصلت على مفتاح لكافة مشاكلى . فعسى أن أستطيع إقناع رمسيس الثالث بأن يجعلنى الزوجة الملكية المعظمة ، وبأن الآلهة قد اختارت « بنتاورت» من أجل أن يكون وريثه فوق العرش ! » .

وفى طريقها إلى حجرتها الخاصه ، حاولت «تيى» بقدر استطاعتها أن تتلافى مقابله أحد مطلقاً . وفى نفس الوقت كانت تتساءل فى حيرة بالغة ، كيف عساها تستطيع الحصول على سمكة طازجة من أسماك النيل :

- « ربما أستطيع أن أكلف إحدى الخادمات بشراء سمكة طازجة من بعض الباعة عند شاطئ النيل . ولكن ، كيف أضمن أن تكون السمكة طازجة بالفعل ؟ .. إن هؤلاء الباعة لايمكن أبداً الوثوق بهم . على إذن ، البحث عن أحد الصيادين . ولكن ، كيف عساه يدخل مقر الحريم ؟ » .

وأخذت «تيى» تفكر ملياً . وفى نهاية الأمر ، قررت أن تتحدث فى ذلك مع أحد حراسها الشبان . ونجحت فى رشوته ، من أجل تلبية مطلبها ، بقطعتين من أدوات الزينة الذهبية النفيسة . وقامت بلف التمثال الصغير الذي منحها إياه بباخنوم بقطعة من الكتان الأبيض ، ووضعته أسفل فراشها مع النصين المشار إليهما آنفاً ، ونزلت إلى الدور الأرضى بالقصر ، حيث وجدت الحارس الشاب الذى كانت قد كلفته بإحضار السمكة الطازجة .

وعندما رآها الشاب المراهق قادمة نحوه ، انتابه خوف واضطراب واضح . وقال لها :

– « لا تطلبي مني شيئاً مطلقاً بعد ذلك . فلو أنني قد ضبطت وأنا أنقل رسالتك إلى خارج الحريم بدون إذن ، لقتلت على الفور » .

ولكن ها هي «تيي» تزداد قرباً منه ، لدرجة جعلته يستنشق رائحة عبيرها الخلاب ، ليزداد اضطراباً أكثر من ذي قبل . قطعاً ، كانت «تيي» تجيد فنون الإغراء والغواية ؛ وبالتالي ، فقد عرفت مدى تأثيرها عليه . وابتسمت له ابتسامه ساحرة كشفت عن أسنانها الرائعة الناصعة البياض ؛ وبدت عيناها الجميلتان المسحوبتا الطرف إلى أعلى ، أكثر اتساعا ولمعاناً . وهمست في أذنه وهي تقدم له قلادة ثمينة ملفوفة في وشاح مخملي ناعم :

– « إن مطلبي الجديد لاينجم عنه أي خطر أو مجازفة ، وكل ما في الأمر ، أنني أشتهي وجبه من السمك الطازج . ولذا ، أرجوك أن تذهب إلى شاطئ النيل لتصطاد لي سمكة مناسبة ، حالما تنتهي فترة حراستك » .

– « ولكن لماذا لا تشترين كمية من السمك . إن الطهاة بمطبخ الحريم يقومون بإعداد وجبات من السمك كل يوم ، ويمكنك أن تتناولي وجبة السمك الذي تشتهينه ، هذا المساء ! » .

عندئذ قاطعته «تيي» قائلة :

« أنك لم تفهم قصدي جيداً . إنني أشتهي الآن وجبة مكونة من سمكة طازجة . ولا أستطيع أن أنتظر ذلك حتى مساء اليوم !» .

فأجابها الحارس الشاب ضاحكاً :

– « إذن سوف أشتري لك سمكة طازجة » .

– « لا ، بل عليك أن تقوم بنفسك بصيدها من مياه النهر . سأسر لك بأمر لا شك أن الفرعون عندما يعرفه سوف يطير فرحاً ، إنني أنتظر حادثاً سعيداً ولاأستطيع أن أقاوم شهيتي في التهام بعض أنواع الغذاء . لقد منحتني إحدى الإلهات رؤيا عجيبة الشأن . لقد جاءتني في أحلامي وقالت لي : « عليك أن تأكلي سمكة هذا الصباح ، من أجل أن تلدي ابناً جميلاً قوياً يعيش في نطاق هذا الحريم » . وإذا لم أفعل ما أمرتني

به ، فربما أفقد هذا الجنين . هل تريد أن تتحمل مسئولية إحضار سمكة مضى على صيدها من النهر يوم كامل لتأكلها زوجة الفرعون التى تنتظر حادثاً سعيداً ؟ حقا ، لو أن الفرعون قد علم بذلك فى يوم ما سوف يغضب غضباً شديداً » .

وانحنى الحارس أمام «تيى» ، وأكد لها أنه سوف يبذل كل جهده من أجل تلبية مطلبها . وأضافت «تيى» قائلة :

– « عليك أن تحتفظ بسرى هذا ولا تفشه لأحد مطلقاً . فسوف أنتظر بضعة أيام أخرى ، ثم أفاجئ به زوجي الفرعون سيد القطرين » .

تأكدت «تيى» تماماً من أن الحارس سوف يحفظ سرها . ولذا ، فقد توجهت صاعدة إلى جناحها الخاص . وبدأت تقرأ النصوص السحرية ، المذكورة آنفاً . وكانت العديد من الفقرات قد كتبت بالهيروغليفية ، أى الكتابة المقدسة ، التى كانت «تيى» لا تجيدها تماماً . أما بقية الفقرات فقد كتبت بالهيراطيقية . واستطاعت تيى أن تستوعب القدر الكافى من الفقرات . وبالتالى ، تأهبت لبدء العمل .

وأخذت تحادث نفسها قائلة :

– « على أن أحترس من أن يفاجئني أحد وأنا أعمل فى هذا التمثال الصغير . ماذا أفعل ؟ فلو أننى أقفلت الباب على ، فسوف يندهش من يطرق الباب لأننى لا أرد عليه . إذن ، فسوف أعلمهم أننى متوعكة قليلاً وأننى لن أنزل لتناول الغذاء . وخلال تناول الزوجات الأخريات غذاءهن ، سوف أعمل أنا هنا فى هدوء » .

ولذا ، قامت « تيى » بتحرير رسالة سريعة إلى رئيس الحريم ؛ وطلبت من إحدى الخادمات توصيلها له . وأخذت إناء من المرمر ، وبعض الإبر ، والتمثال الصغير ، وقلادة معدنية ، وبدأت فى تسخين القلادة المعدنية حتى بدأ قوامها يطرى ويلين . ثم تركتها لتبرد بعض الشئ ، وأخذت تثبتها بقدر استطاعتها . ثم قامت بانتزاع أحد المسامير من قاعدة سريرها ، وأخذت تدقه بقطعة من الحديد ، فى القلادة المعدنية الرقيقة السمك . ولكنها عادت تقول وهى تزحف مرة أخرى تحت سريرها :

– « على أن أضيف مسماراً آخر ، فسوف يعمل ذلك قطعاً على تأكيد وقوع رمسيس الثالث فى غرامى » .

بعد ذلك ، تناولت « تيي » كتلة من الصلصال كان « مسوى » قد أعطاها إياها في اليوم السابق . وبذلت كل جهدها من أجل صناعة تمثالين صغيرين . التمثال الأول يمثل إله الحرب أما الثاني ، فيمثل امرأة راكعة على ركبتيها وقد قيدت ذراعيها وكأنها أسيرة حرب تقر وتستسلم لقوة الفرعون وسيطرته ، وغرست أحد دبابيس الشعر في راحة يد الإله ، ووضعت أمامه تمثال المرأة . وقالت : – « كان على بالأحرى أن أجعلها تمسك بسكين في يدها . فهذا يكون أكثر فاعلية » .

وأخيراً ، قامت «تيي » بصنع تمثال ثالث من الشمع ، وكتبت عليه بعض العبارات التي تم نقلها عن النص السحري . وبدأت تغرس ما لا يقل عن خمس عشرة إبرة رفيعة ، في عينيه ، وذقنه ، ورأسه ، وصدغيه ، وفخذيه ، وأسفل قدميه ، وفيما بين ثدييه ، وهي تنطق بعبارات سحرية .

ثم أخذت «تيي» قطعة المعدن المتبقية ، وبدأت تنقش عليها ، بواسطة سن مدبب ، بعض عبارات الحب . ثم ثقبت هذه القطعة من المعدن ، وبواسطة خيط سميك ، علقتها في عنق التمثال الصغير بعد أن أجرت به عدداً من العقد تتساوى مع عدد أيام العام .

بعد ذلك ، أخذت «تيي» تتلو هذه الصيغة السحرية :

– « هأنا أعهد إليكم ، ياآلهة الأرض وشياطينها ، وإليكم أيضاً جميعاً أيها الرجال والنساء المغرمون ، الذين لاقوا حتفهم في ميعة الصبا وبسبب حادث ما ، بهذا السحر العاطفي . احضروا جميعاً من مملكة أوزوريس ، وأدخلوا كل حجرة من حجرات هذا القصر ، وفي كل أركان هذا البستان ، وفي كل مقصورة بكل معبد ، وفي كل مركب يركبها رمسيس الثالث ، حتى لا يرتبط بأية امرأة أخرى ، وألا يشعر مطلقاً بمتعة الحب إلا معي أنا ، «تيي» التي أنجبت له بنتاورت . أنني أتوسل وأبتهل إليكم . إن البحار عندما تسمع أسماءكم سرعان ما تهدأ ، وكذلك الأنهار الزرقاء ، والأعداء . احضروا من مملكة أوزوريس ، وادخلوا كل حجرة من حجرات هذا القصر ، وكل ركن من أركان حديقته ، وكل «ركب ملكية يستقلها رمسيس الثالث . حرموا عليه كل شراب وكل غذاء حتى يحضر ويرتمي ، وقد سلب الحب لبه ، تحت قدمي ، أنا « تيي » . عليكم أن تمسكوه من يده ، وتجروه حتي حجرتي ، لكي لايبعد عني أبداً ، أنا ، الوافدة من ليبيا ، لكي يمتلكني . وسوف أخضع لابن « ست » حتى آخر أيام عمري ، وإلى الأبد . سوف يحبني ، ويرغب في ، ويسمعني كلمات رقيقة حانية . سوف

يداعبنى ، ولن يحب سوى « بنتاورت » . فإذا وافقتم على مساعدتى ، فسوف أطلق سراحكم . وإذا لم تفعلوا ، فسوف تحرقون أو تمزقون كما تمزق الغزال بأسنان الأسد ! » .

وبعد كل هذه التمهيدات ، أحست « تيى » أنها لا تكاد تلتقط أنفاسها . بل لقد شعرت ببعض التراخى فى أوصالها وكأنها تعدو لمسافة هائلة .

وواربت « تيى » باب حجرتها قليلا ، من أجل أن تتأكد أن الممر خال ولا أحد به مطلقاً . كان السكون يخيم على المكان . ولكن بين حين وآخر كانت تتصاعد نحو الطابق الأول أصوات النساء وهن يتناولن طعامهن بصالة المعيشة وأصوات العزف الموسيقى بها . كان العزف يتسم بالرخامة والرتابة ويتكون من جملة موسيقية واحدة تتكرر فى تراخ ونعومة .

عندئذ ، ارتدت تيى خفيها الذهبيين وهبطت الدرجات ببطء وحذر . وتسللت خلف شجيرات الحديقة الوسطى ؛ من أجل أن تتأكد من وصول الحارس . وبالفعل كان الفتى قد رجع من المهمة التى كانت قد أوكلته بها . ولكنه كان يبدو عليه الاستياء والضجر . وعندما لمحها آتيه نحوه بدا وكأنه يتنفس الصعداء قال :

– « هأنت قد حضرت أخيراً ! ... أنا لم أعد أستطيع الاحتفاظ بهذه السمكة أكثر من ذلك . خذى .. خذيها ، ولا تفرضى على عمل شئ آخر بعد الآن ! » .

فأجابته «تيى» بلهجة آمرة وحاسمة :

– « وهل هذا هو أسلوب التحدث إلى زوجة الفرعون . خذ .. إننى أعهد إليك بهذه اللفافة . إنها تحتوى على قربان ، من أجل زوجة الملك التى توفيت العام الماضى ، والتى دفنت فى مقبرة قريبة من القصر . والقربان هو عبارة عن تمثال صغير . ولكن إياك أن تفتح هذه اللفافة . فلقد لففته من أجل ألا يلحق به أى ضرر ، خذه إذن ، وضعة بجوار مقبرة هذه الزوجة المسكينة التى وافتها المنية بغتة . ولاتنس أن تضع معه بعض الورود التى يمكنك أن تجمعها من هذا البستان » .

فأجابها الحارس :

– « ليس لدى أى مانع لعمل ذلك . ولكن ، قد يساورهن القلق لغيابك . وقد أوشك الحارس الذى يتناوب معى مهمة الحراسة على الحضور . ولا شك أيضا أن جميع هؤلاء السيدات ، سوف ينزلن ، بعد الغذاء للتنزة فى الحديقة » .

فقالت تيى :

- « أنت على حق . سوف أنصرف » .

وصعدت المرأة الشابة إلى حجرتها ، وشرعت فى تكملة العملية السحرية التى كانت قد استهلتها . ووضعت أمامها الآنية المرمرية ، بعد أن أدخلت بها ورقة بردى ملفوفة كانت قد سطرت عليها إحدى ترنيمات الحب ، بالإضافة إلى تمثالين صغيرين يمثلان رجلاً وامرأة ربطتهما معاً ربطاً وثيقاً بخيط سميك . ثم قامت بتغطية الآنية المرمرية بورقة بردى أخرى ، وهى تتمتم قائلة :

- « فليصبح هذا الرجل عاجزاً تماماً عن أى انفعال عاطفى أو جماع . فليصبح وكأنه جثة هامدة ، لا أثر عنده لأى مشاعر أو أحاسيس . وليصبح عاجزاً تماما عن أى ارتباط عاطفى . ولتربط وتشل أعضاؤه الذكرية . وألا تستطيع أى امرأة أن تمحى كل هذا العجز والقصور سواى أنا ، « تيى » ! » .

بالرغم من كل ما بذلته من جهد وما أبدته من تصميم وإصرار ، فإن «تيى» لم تستطع جذب الملك إليها . ومرت الأيام وتوالت وهو لايقترب منها مطلقا . ولكن أكثر ما كان يضايقها ويثير حنقها أنه كان يقوم بزيارة زوجاته الأخريات بالحريم . بل على ما يبدو ، أنه كان يمضى كل ليله مع زوجة مختلفة . وهكذا كانت « تيى » تقسم بينها وبين نفسها وقد انتابتها ثورة عارمة :

- « سوف يكلفه هذا الازدراء والإهمال ثمنا غاليا ! .. أما أنتم ، أيها الشياطين وآلهه الجحيم ، فلا فائدة ولانفع فيكم ! » .

عندئذ ، أظلمت السماء . وقصفت الرعود . وانقض وميض البرق والصواعق فوق أشجار الحديقة . ولم يكن هطول الأمطار منتظراً مطلقاً فى هذا الفصل من فصول العام .... ومع ذلك ، فسرعان ما هطلت الأمطار والسيول الغزيزة وأغرقت قصر مدينة هابو .

أرتمت « تيى » على الأرض وأخذت تمزق أطراف ثوبها وهى تصرخ وتئن :

- « اللعنة على الفرعون ! .. فليحرمه رع من نعمة البصر . وليصبح عاجزاً تماماً عن الحركة فليرحل إلى مملكة أوزوريس فى نفس هذا العام ! .. فليُصَب بالشلل التام ! .. أما عن هذه الكلبة ، الملكة ، هذة التفاحة المعطبة فليُمَح أثرها من الوجود كله ! .. وليقع أولادها صرعى فى ميدان القتال ! » .

ولكنها تذكرت وقتئذ ، أن منظمي المؤامرة قد أصبحوا على أهبة الاستعداد وأنهم يوشكون على البدء فى تنفيذ المؤامرة . فقالت تحدث نفسها وهى تمسح دموعها عن وجنتيها :

– « اليوم ، سوف يقوم « بنوى » بإحراق بعض مقتنيات الفرعون عند ضفة النيل . وغداً ، سوف يقوم « بنتاورت » باعتلاء عرش مصر . أما أنا ، فسأكون « الملكة الأم » ! ... إننى لا أستطيع أبداً تحمل هذاالمدعو رمسيس الذى يصدر أوامره وكأنه قد أصبح فعلاً فرعون مصر ؛ وكذلك أخيه قائد كتيبة المركبات الحربية الذى يحاول أن يعيش فى دور رمسيس الثالث نفسه ! .

ولسوء حظ «تيى» أن رمسيس الثالث قد عرف بأمر إشعال بعض النيران على مقربة من بى – رمسيس ، وانتابته الدهشة والذهول . بل وعلم أيضاً أن الفاعل هو « بنوى » . وعلى الفور ، استدعى الفرعون بعض الكهنة « الواعب » وسألهم عن مغزى هذا الحادث فحذروه قائلين :

– « إنها بعض الممارسات السحرية . والضرورة تستلزم إذن العمل على فك هذا السحر وإبطاله ، فربما أن أحد السحرة قد مارس بعض قوته السحرية للنيل منك » .

– « ولكن « بنوى » يعمل رئيسا للقطعان . فماذا عساه يفعل هنا ، وما الصلة بينه وبين السحر الأسود ؟!».

هنا أجابه رئيس السحرة « الواعب » الحاضرين :

– « لعلك تعرف يامولاى أن كل مصرى يعتبر على بينة ببعض فنون السحر . كما أن أسلوب إشعال تلك النيران ، يذكرنى تماما بما يتضمنه أحد النصوص فى مكتبة جلالتك . وإننى قد قمت فى الماضي باستنساخه » .

– « ترى ما الغرض الذى يرمى له « بنوى » ؟ .

– « أن يقتلك ! .. فإن حرق تلك الأشياء يمثل حرق كل ممتلكاتك الدنيوية وضياعها » .

وبدا على الفرعون أنه لا يكاد يصدق ما يسمعه . وبذا ، أكمل رئيس الكهنة « الواعب » كلامه فى إصرار :

– « الضرورة تستلزم يامولاى أن تتم من أجلك عملية لفك هذا السحر وإبطاله . ولن نخسر شيئاً . فليس هناك ما يؤلم فى هذا الشأن . بل إن ذلك سيعود بالفائدة فإننى سوف أستعين من أجل ذلك ، ببعض أشكال حورس ، التى قد تحقق لك الشفاء من أوجاعك » .

« – حسناً ! ولكنى أريد قبلا ، استجلاء هذا السر . فليحضر « بنوى » أمامى الآن » .

وتم القبض بالفعل على رئيس القطيع « بنوى » . ولكنه عندما عرف أن الفرعون يشتبه فيه ، غافل حراسه وانتحر .

وعندما عرف الفرعون بأمر انتحار « بنوى » ، قال للكاهن « الواعب » : إن انتحاره يؤكد أنك على صواب . ها أنا طوع أمرك . وقد أمرت رجال الشرطة بالبدء فى التحقيقات والتحريات فى هذا الشأن » .

وتتالت جلسات فك وإبطال السحر الواحدة وراء الأخرى . وبدأ الكاهن « الواعب » يستعين بأشكال حورس المكتوب عليها عبارات سحرية ، تتعلق خاصة بالسحر الأبيض . وأخذ يسكب بعض المياه فوق شكل الإله الشافى حورس . وكانت هذه المياه تنساب لتسقط فى نهاية الأمر ، فى وعاء يقع أسفل التمثال الصغير . وفى نفس الوقت ، كان الكاهن يتلو بعض العبارات الغامضة والطلاسم المبهمة . ويقول :

– « فليتشبع التمثال الصغير بهذه العبارات السحرية . ولتتعم ، أنت يافرعون مصر بالقوة والصحة عند شربك لهذه المياه . ولتنحر العين الشريرة بعيدا عنك » .

ثم أخذ الكاهن « الواعب » تمثالاً صغيراً آخر للإله حورس ، وأضاف إليه أذنين وعينين من الشمع . وقال لرمسيس الثالث :

– « هكذا سوف تزداد مقدرته على رؤية وسماع ما نرجوه منه » .

ثم أخذ أيضاً تمثالاً صغيراً لرمسيس الثالث ووضع فوقه شكلاً يمثل جعراناً . وقال :

– « فلتعمل الربه سخمت التى سببت لك تلك الأوجاع على إبعادها عنك . فلتسبغ عليك الصحة والعافية . ولتنحر جميع من يودون إيذاءك وإلحاق الضرر بك » .

وقام الكاهن بتشكيل تمثال صغير ذى ثلاثة رءوس ، يمثل كل منها رأس حيوان مختلف عن الآخر ؛ بحيث يعتلى رأس الأول تاج إيزيس والثانى تاج حورس ، والأخير تاج أنوبيس . ثم دون بضع كلمات فوق ورقة بردى وضعها داخل حاوية صغيرة . وقال :

- « سوف أضع هذا التمثال فى إحدى الغابات عند مشرق نجمة الشعرى اليمانية ربة الهلال القمرى . بعد ذلك ، سأقوم بقتل أحد الحيوانات وأقدمه كأضحية من أجل هذه الربة ، بعد تزيينه بأوراق من شجر الزيتون . وسوف تقوم جلالتك بشعيرة سكب اللبن إكراماً للآلهة . وابتداء من غد ، سوف تقيم احتفالاً من أجل تبجيل وتكريم الآلهة الراعية والجان الحامية . والآن كرر ورائى ما أقوله :

« فليعم الهناء والسعادة أرجاء هذا القصر ، ويسوده دائما وأبداً التوفيق والازدهار . ولتعمل ربه الحظ السعيد على مساندة الفرعون ؛ وهو يتعهد بأن يقدم لها قصبان لبن من ضرع بقرة سوداء فتية ! » .

وهكذا انتهت مراسم فك وإبطال السحر السيئ وعندئذ ، فطل الكاهن للفرعون متسائلا :

- « الآن وقد انتقل « بنوى » إلى العالم الآخر ، ماذا عساك أن تفعل من أجل أن تعرف المزيد بخصوص كل ما حدث ؟ » .

- « سوف آمر باستجواب الخدم والحراس . فربما يكونون قد سمعوا عن وجود مؤامرة . ولن يدهشنى أبداً إذا كان مبعث هذا التمرد هو دير المدينة » .

ولكن الكاهن ، بدا غير مقتنع تماماً بما يظنه الفرعون . فإن البعض قد تطلعوا أو سرقوا إحدى المخطوطات السحرية من المكتبة الملكية . وهذا ، يجعله بالأحرى ، يعتقد أن المؤامرة ، قد انبثقت أساساً ، من قلب القصر الملكى نفسه .

ولم يعد الفرعون يتساءل كثيراً فى هذا الشأن . ولكن ، على ما يبدو ، أن بعض الحراس ، بعد سماعهم لخبر انتحار « بنوى » ، بدأوا ينشرون بعض الأقاويل التى سرعان ما وصلت إلى مسامع الفرعون .

بعد فترة وجيزة ، علم الفرعون أن كبار موظفيه وأكثر معاونية إخلاصاً ووفاءً قد تورطوا فى مؤامرة من أجل اغتياله . وحقيقه أن جميع هؤلاء قد أشاروا إلى « تيى » باعتبارها المحرك الرئيسى للمؤامرة ؛ ولكن رمسيس الثالث اكتفى بتعيين اثنى عشر قاضياً وضابط شرطة من أجل محاكمة الجناة ومعاقبتهم .

وبعد أن عقد الفرعون معهم اجتماعاً بقاعة الاجتماعات ، قال لهم :

- « سوف أتولى أنا أمر « تيى » . قوموا أنتم إذن بالتحقيقات مع الآخرين . كما أننى لا أريد أن أعرف حقيقة دوافعهم . فهم غير ملزمين بتبرير أفعالهم أمامى أنا ، بل أمام الآلهة . وعليكم أن تقوموا باستجوابهم جميعاً . ومن تثبت إدانته فليجهز على حياته بيده . وإذا لم يقبلوا هذا الحكم ، فلتطبقوا عليهم الحكم الذى يستحقونه عادة فى مثل جريمتهم هذه . ولكننى لا أريد أن أعلم شيئا مطلقاً عن هذا الأمر » .

ثم أضاف الفرعون ، بنبرة ضيق وحزم :

- « ولتتوخوا الحيطة والحذر . فأنا لا أريد أن تدينوا بريئا لم يقترف إثماً . فليعاقب الجناه إذن . أما أنا ، فسوف أكون دائما وأبداً بمنأى عن السوء والضرر بفضل التعازيم السحرية التى أجراها الكاهن من أجلى . وسوف ألجأ إلى أوزوريس رب العالم الآخر ، وآمون رع من أجل حمايتى ورعايتى . وراعوا ، قبل أن تصدروا أية أحكام على الجناه ، أن تتوصلوا إلى الأدلة والأعترافات اللازمة . وهكذا ، لن يظلم أحد » .

وعلمت « تيى » بما حدث . ولم يخالجها أى خوف أو وجل . وكل ما شعرت به هو شئ من الأحباط وخيبه الأمل . أما عن « مسوى » و « باختوم » فعلى ما يبدو ، أنهما كانا عازمين على المضى فيما بدءوه . عندئذ قالت لهما « تيى » بشئ من الأسى :

- « هذا مستحيل .. لقد ضاع كل شئ ... فها هو الفرعون قد عرف معظم أسماء من تآمروا ضده . بل هو يعرف أيضا اننا لجأنا أيضاً إلى السحر الأسود » .

عندئذ أجابها « مسوى » :

- « لا تنسى أن هناك جيشاً على وشك الوصول لمحاصرة قصر الفرعون . لا .

لم يفلت الأمـر من بين أيدينا بعـد . ولكن علينا الإسـراع فى خطواتنا ... فلقـد أمـر الفرعون بتكوين لجنة من القضاة . ومعظم هؤلاء القضاة ليسوا من كبار المحترفين فى هذه المهنة ، ولكنهم من أكثر المقربين من الفرعون . وتتضمن تلك اللجنة بعض الكتبة ، وبعض رجـال الحـاشـيـة ، وناطقـاً بلسـان الملك . وليس من الصـعب شـراء ذممهم واسـتقطابهم نحـونا ، أو على الأقل إغـواؤهم ببـعض المتع والملذات مع بعض النسـاء اللاتى قد نقدمهن لهم » .

وهنا أجابته « تيى » وقد تراءى بعض الأمل فى نبرات صوتها :

– « إننى على أتم استعداد لتنفيذ كل ما تقترحه » .

– « إذن ، سـوف أتوجـه الآن إلى النسـاء الاتى وافقن على مـساعـدتنا فى هذا الشأن ؛ لكى أعاونهن على الخروج من مقر الحريم . وعندئذ ، سوف يعملن على دعوة هؤلاء القضاة الثلاثة لملاقاتهن فى أحد أماكن اللهو . إننى أعرف جيداً إنهن سوف يقبلن عرضى هذا بدون أى تفكير » .

فأجابته « تيى » متشككة من أحتمال نجاح هذه الطريقة :

– « هل أنت واثق تماما ؟» .

– « صدقينى . فإن الفرعون قد ارتكب خطأ كبيراً باختياره لبعض القضاة غير المحترفين . فإن المحترفين يتسمون بالشراسة والعنف . بالرغم من أنهم قد يعاقبون بجدع أنوفهم وبالنفى خارج الأراضى المصرية إذا ما أخطئوا فى أحكامهم » .

– « إننا لو أخفقنا فى هذه المرة أيضا ، فإن رمسيس الثالث لن يرحمنا أبداً » .

– ولا شك فى أن رجال الشرطة سوف يلجئون إلى أعمال التعذيب ؛ من أجل أن يحصلوا على اعترافات من تم القبض عليهم » .

وانتابت « تيى » رجفه وقشعريرة فى كل جسدها . وقالت « لمسوى » فى وجل واضح :

– « لم أفكر فى ذلك الأمر . فإننى لا أخشى الموت ؛ ولكننى لا أستطيع أن أحتمل فكرة التعذيب هذه » .

وفى مساء نفس اليوم ، قام « مسوى » بمساعدة ست من نساء الحريم على

الخروج من إحدى أبوابه . واصطحبهن إلى أحد شوارع اللهو بالمدينة ، حيث كان الرجال يحتسون النبيذ والجعة ، بمصاحبة بعض الجواري الجميلات .

وفي بداية الأمر، أبدت النساء الست تمرداً ونفوراً من إحضارهن إلى هذا المكان . ولكنهن سرعان ما رضخن لسيطرة « مسوى » وتهديداته لهن .

وفي أماكن اللهو هذه الواقعة خلف مخازن ومحال بي –رمسيس ، كان يتوافد عدد كبير من البحارة والأجانب من أجل المرح والصخب ، وهم يبدون وقد أحاطت بأعناقهم عناقيد الورد ، وهم يغنون بأعلى أصواتهم ، وقد تجمعت حولهم بعض فتيات الملاهي اللاتي كن يفدن خاصة من مدينة « بابل » . وعلى ما يبدو ، أنهن كن يوشمن على أفخاذهن وأثدائهن للإشارة إلى مهنتهن هذه .

ويبدو أن إحدى نساء الحريم هؤلاء قد رفضت بإصرار دخول ذلك الملهى . بل لقد صاحت قائلة ، إن امرأة شريفة مثلها ، لايجب أن تطأ بقدمها مثل هذا المكان السيئ وقد حاول « باختوم » إرغامها على الدخول عنوة . ولكنها قاومت في عنف وشراسة ، وأثارت حولهم ضجة كبيرة . وعندئذ ، بدأ « باختوم » يفكر في حل آخر . وسأل «مسوى» قائلا :

– « هل جاء هؤلاء الرجال الذين سوف يقومون بدور القضاة خلال المحاكمة ؟ » .

– « نعم لقد حضروا . وها هم هناك جالسين في نهاية القاعة ؛ فوق حصائر القش ومتكئين على الوسائد » .

– « إذن ، اذهب إليهم الآن . واقترح عليهم ، أن يتم هذا الموعد في بيت أحدهم ، وقل لهم إن ذلك سيكون أكثر تحفظاً وتحشماً » .

وسارع « مسوى » إلى تنفيذ هذا المطلب على الفور ، خوفاً من أن تثير صيحات المرأة الثائرة انتباه وفضول الحاضرين حولهم .

وفي نهاية الأمر ، حضر الرجال الثلاثة . واتفقوا على التوجه جميعاً إلى منزل أحدهم ؛ خاصة أنه يقطن على مقربة من الملهى . وكان واحد من هؤلاء الرجال الثلاثة يشغل وظيفة « حاجب الملك » ؛ أما الثاني ، فهو « كاتب بالقصر الملكي » ؛ والأخير « حامل العلم » .

وحاول « مسوى » أن يوضح ، بشكل ما ، سبب تصرف المرأة بمثل هذه الطريقة . فقال لهم :

– « هذه المرأة من بنات « بابل » ، وكانت تتمتع بمكانة رفيعة في محيطها الاجتماعي هناك . وبذا ، فهي لم تحتمل فكرة الاختلاط ببنات الهوى اللاتي يعملن في هذا الملهى . إنهن يبعن أنفسهن لبضع لحظات ، لكل من يطلب منهن ذلك ، في مقابل بضع جرار من الخمر ، أو بعض الخراف . ولكنها ، بالرغم من ذلك ، تجيد الغناء والشدو الذي قد يعمل على إخماد نواياكم غير الطيبة » .

فأجابه الكاتب « ماي » وهو أحد أعضاء اللجنه القضائية التي حددها الفرعون :

– « لاشك في ذلك أبداً . وعموماً ، سيتيح لنا ذلك فرصة للتغيير ، فإننا قد مللنا من هذا الملهى الذي دأبنا على ارتياده كل مساء . وهناك خطر جسيم في محاولة الارتباط عاطفياً بامرأة أجنبيه وغير معروفة ، قد تدعى أنها حرة وغير مرتبطة ؛ ولكنها في حقيقة الأمر ، قد تكون متزوجة . لقد تعرضنا ، نحن الثلاثة بغبائنا وغفلتنا ، في كثير من الأحيان ، إلى الوقوع تحت طائلة الحكم بالإعدام ، لسقوطنا في حبائل بعض النساء المتزوجات . وهذا تقريباً ، هو عين ما حدث في العام الماضي . فقد تعرضت لعملية ابتزاز من إحداهن طوال أشهر عديدة . فقد هددتني بأنها ، إذا لم أدفع لها قدراً من المال بصفة منتظمة ، فسوف تبوح بحقيقة العلاقة التي كانت بيننا لزوجها » .

وهنا سأله « مسوى » في ابتسامه خبيثة :

– « وهل كان حقاً زوجها ؟ » .

– « لم يسعفني الوقت للتأكد من ذلك . عموماً ، في هذه الليلة تبدو الأمور مطمئنة » .

وسرعان ما وصلت هذه المجموعة إلى مبني صغير يتكون من طابقين ، ويقع في نهاية صف من المخازن والمحال . وهنا قال الكاتب :

– « إنني أقطن هنا ، بالطابق الثاني . فلنصعد من خلال السلم الخارجي » .

ولشدة ترنحه ، بسبب ما احتساه من خمر ، أخذ يصعد درجات السلم ، في صعوبة واضحة ، وقد تبعه الآخرون . وتقدمت النساء الشابات الثلاث وهن صامتات مطأطأت الرأس .

وهنا وجه « بباخنوم » كلامه للرجال الثلاثة قائلاً :

- « يمكننا الآن أن ننصرف ونترككم وشأنكم . وفى مقابل ذلك نطلب منكم عدم إجراء أية تحقيقات بشأن الأشخاص الذين حدثتكم عنهم ، أو على الأقل ، تقولون للفرعون إنهم أبرياء . وغداً ، سوف نمر عليكم ومعنا مجموعة أخرى من النساء . إن أزواجهن قد تورطن بالفعل فى المؤامرة المدبرة ضد الفرعون ، وتم القبض عليهم . وقد قبلن تمضية بعض الوقت معكم ، لو وافقتم! على مراعاة بعض الرأفة مع أزواجهن . وسوف يقوم الضابط « بائيس » بمصاحبة هذه المجموعة من النساء ».

وعلى ما يبدو ، أن الرجال الثلاثة قد ابتهجوا كثيراً لكل هذه الأحوال المواتية ، فوعدوا بأنهم سوف يلبون كل ما يطلب منهم .

* * *

وفى خلال بضعة أيام ، بدأت المحكمة تباشر هذه القضية الكبرى . وتم نشر الخبر على أسماع منطقة بى-رمسيس . وهكذا اصطف الكثيرون من أفراد الشعب على جانبى الطريق ، من أجل رؤية الجناه وهم يقادون إلى ساحة المحكمة . كان البعض منهم يريدون رؤيتهم لمجرد الفضول فقط . أما البعض الأخر ، فقد أرادوا أن يوجهوا لهم أقذع السباب والشتائم .

من أجل الجلسة الأولى للمحاكمة ، تم تحديد ستة قضاة من بين الاثنى عشر قاضياً الذين كان قد تم اختيارهم . أما بقية الاثنى عشر قاضياً ، فقد أوكلت إليهم مهمة القيام بأمر الجلسات التالية . وأصبح مصير الجناة فى تلك المؤامرة بين أيدى هذه المجموعة .

وسرعان ما مثل المتهمون الرئيسيون أمام هؤلاء القضاة . ووجهت إليهم جميعاً نفس التهمة . وتقدم كل منهم ، سواء أكان رجلاً أم امرأة ، ووضح عن هويته ، واستمع إلى سرد للتهم الموجهة إليه . وضمن المتهمين ، تراءى بعض رؤساء الخزائن ، والكتبة والحجاب المشاركون « لتيى » فى تآمرها ؛ والذين عملوا على تأجيج نيران الحقد والكراهية ضد الفرعون ، خارج نطاق الحريم . وصدر على جميع هؤلاء الحكم بالإعدام .

بعـد ذلك ، تقـدم إلى هيئة المحكمـة بعض كبار موظفى الدولة ، وابن « تيى » الذى ، تلقى فى نهاية محاكمتـه ، الأمر بأن ينتحـر . ثم تلا هذه المجموعة بعض المتآمرين الآخرين . وجميعهم أيضاً ، عوقبوا بعقوبة الإعدام .

وعلى ما يبدو ، أن أحد القضاة ويدعى « حورى » ، وكان قد شارك فى حفلات اللهو والعربدة التى كان قد نظمها « مسوى » ، جاء فى نهاية الأمر إلى زملائه القضاة الصالحين وأخبرهم بأن هناك بعض القضاة الفاسدين الخونة مندسون فيما بينهم . وعلى الفور ، تم القبض على القضاة الثلاثة المشار إليهم . ووعدوا المحكمة بأنهم سوف يعترفون بالحقيقة كاملة ؛ حتى لايتم نفيهم إلى أراضى النوبة أو يوضعوا فوق خوازيق خشبية . وأخذ القضاة القائمون بمحاكمتهم يوجهون إليهم ، بلا رحمة وابلاً من الأسئلة المتلاحقة . ولم يكن هناك جدوي من عبارات الاسترحام التى كانوا يطلقونها معاً فى آن واحد :

– « الرحمة ! الرحمة ! » .

ولكن ، تبين ، بالرغم من ذلك ، أن إجابتهم كانت مبتورة وغير كاملة . وبالتالى حكم عليهم جميعاً ، باستثناء « حورى » ؛ بالضرب بعصا خشبية فى نفس قاعة المحكمة . وأخذ الجلاد يضرب كل واحد من هؤلاء القضاة الفاسدين ضربات على ظهرة ، ويديه ، ورجليه . وفى نهاية الأمر ، اضطروا أن يقروا ويعترفوا بكل ما يعرفونه . عموماً ، ففى نهاية محاكمتهم ، تلقوا جميعاً حكماً بالإعدام . واستثنى « حورى » من ذلك .

بدا الفرعون ، وهو فى قصره ، وقد انتابه أسف وأسى شديد وهو يتحدث إلى الملكة قائلا :

– « إن جميع هؤلاء الجناه يدينون لى بمراكزهم ورتبهم . فماذا عساهم كانوا فاعلين بدون ما أسبغته عليهم من كرم ونعم ؟!.. إنهم ناكرون للجميل ؛ بل قد حاولوا إلحاق الضرر بى والقضاء علىّ ! » .

بعد ذلك ، تلقى الفرعون قائمة مطولة بأسماء الجناة . ولكنه رفض النظر فيها . وقال :

– « ليس من حقى التدخل فيما صدر من أحكام . هذا ليس من اختصاصى . وحتى لو كان هؤلاء الجناة قد حكم عليهم بالدفن أحياء ، فإننى لا أود معرفة ذلك » .

وكانت القائمة تتضمن أسماء ، بباخنوم ، أحد المتهمين الرئيسيين المتواطئين مع الملكة « تيى » ، وبعض نساء الحريم اللاتى بعثن برسائل إلى الخارج . أما « مسوى » ساعد « باخنوم » الأيمن ، والمسئول عن الأجنحة الملكية بقصر الفرعون ، ومدير الحريم ، وبعض مفتشى الحريم ، والحُجَّاب ، وزوجات بعض الحراس ، وقائد الفرق العسكرية « إينى » الذى كان قد جهز جنوده من أجل مهاجمة رمسيس الثالث ، والكاتب « بيرى » الذى كان يعرف الكثير ولزم الصمت ، وبعض كتبة « بيت الحياة » المتواطئين فى المؤامرة ، وعدد من السحرة ، ورئيس الكهنة « الوعب » وهو من المتواطئين أيضاً ، و« بنتاورت » ابن « تيى » ، هؤلاء جميعاً عوقبوا بلا رحمة .

وأما عن الحارس الذى تلقى رشوة من « تيى » ، فى مقابل تعاونه معها ، وأحد حجاب الحريم الذى لم يخبر عن حدوث المؤامرة بالرغم من أنه كان يعلم كل شى عنها ، وكاتب الأجنحة الملكية ، فقد انتحروا جميعاً .

ولكن بالنسبة لنساء الحريم لم تصدر عليهم أية أحكام .

* * *

عندما علمت « تيى » بإدانه ابنها « بنتاورت » ، انتابها حزن لا حدود له . وتقوقعت بداخل حجرتها . ورفضت تماماً الخروج منها . وبدت والدموع تسيل من عينيها مدراراً ، بدون توقف . ومن خلال توجعها وأناتها ، تبدَّى الخوف الشديد مما قد تلاقيه من عقاب ، وألمها القاتل بسبب إعدام ابنها . ولكن ، مما أثار دهشتها ، عدم وصول الشرطة إليها لإصطحابها إلى المحكمة .

هنا ، بدت أكثر هلعًا ورعبا عماكانت عليه فى الأيام السابقة للمحاكمة . فقد اقتنعت بأن الفرعون ، ربما يعد من أجلها أقسى أنواع العقاب وأكثرها عنفاً . ومع ذلك ، فلم يحدث شئ مطلقاً . وكان موعد أعياد « الوادى » قد أوشك على الاقتراب .

وعندئذ أخذت الملكة « تيى » تحدث نفسها قائلة فى أسى ولوعة :

« حقاً ، لقد بدأنا مهمتنا فى وقت غير مناسب ؛ وها هو ابنى « بنتاورت » قد أعدم بدون ذنب أو جريمة . وأنا السبب فى قتله ! .. والآن ، سوف يتوجه البلاط الملكى بأكمله إلى طيبة . ليبقى هناك طوال عشرة أيام ، من أجل تقديم القرابين للأجداد

العظام السابقين . وواجبى يحتم على مرافقة الفرعون فى هذه الرحلة . ولكن ، ماذا عساه قد يفعل بى ؟ » .

لم يقم رمسيس الثالث بزيارة « تيى » قبل بدء أعياد الوادى . ولذا ، قررت هذه الملكة أن ترافق حريم المصاحبة فى رحلته مع الفرعون إلى طيبة .

بدت المركب المقدسة الخاصة بالإله آمون المصنوعة من أخشاب الصنوبر ، وقد زينت مقدمتها أشكال تمثل رأس ثعبان ضخم ورأس كبش كبير مصنوعة من الذهب الخالص ، وهى تنشر أشرعتها المربعة الشكل ذات الألوان المتناغمة المتناسقة . وبدأ الملاحون يضربون بمجاديفهم المتعددة الألوان صفحة المياه الرقراقة .

كان الفرعون يرتدى ، عندئذ ، مئزراً بسيطاً للغاية . ووقف أحد الخدم حاملاً مظلة كبيرة ليدرأ عنه أشعة الشمس . وتمت الرحلة إلى معبد آمون بدون أى عوائق أو عراقيل . وحالما وصل الموكب الملكى إلى المعبد ، ارتدى الفرعون التاج ذا القرص الشمسى وقرنى الكبش ، كما بدت « الحية الحامية » وقد استقرت فوق جبهته .

لاشك مطلقاً أن تلك المؤامرة قد زلزلت أركان المملكة ؛ ولكن بالرغم من ذلك ، كان المصريون يطلقون هتافاتهم ودعواتهم للفرعون بكل حماس وإقبال . وأخذوا يصيحون إعجاباً وانبهاراً وهم يرون المركب الإلهية . كانوا جميعاً ، شبه مذهولين ، من فخامة الملابس ، والتمثيل البارع والخلفية المبهرة بهذا الاستعراض العظيم . وفى نطاق نفس المعبد ، تم عرض تمثيلى لقصة أوزريس ، الذى صرعه أخوه ست . ثم تلا ذلك بعض التمثيليات الصامتة عن بعض الأساطير الشعبية الشائعة ، وقد أداها مجموعة من الممثلين البارعين .

وأخذ الفرعون يتفقد كافة المدارس والمعاهد . وتوجه إلى « بيت الحياة » من أجل تشجيع الشباب الصغار ، الذين يتلقون فى نطاقها ، علوم الكتابة ، والقراءة ، والمبادئ الأخلاقية السامية ، واحترام الآخرين وتوقيرهم ، والعلوم ، والجغرافيا ، والطقوس الدينية وتاريخ الملوك الأوائل .

وفى اليوم الثامن ، وفجأة بدون إى إعلان ، قام رمسيس الثالث بزيارة حريمه المحلى ؛ ثم عاد إلى قصره الملكى ، حيث قام أيضا بزيارة حريم المصاحبة . وبدت

الملكة « تيى » حينئذ ، خجولاً متحفظة للغاية . وبدأ جسدها يرتعش ، عندما اقترب منها الفرعون .

أخذ رمسيس الثالث يرمقها بعينيه السوداوين ، ثم قال لها :

- « لقد مزقنى الألم عندما علمت أن أكثر العاملين معى وفاء وإخلاصاً قد خانونى . لقد خاننى هؤلاء الذين أنعمت عليهم بأعلى الرتب وأسمى المناصب . ولكن أكثر ما مزق قلبى ، هو معرفتى أنك كنت المؤجج والدافع الرئيسى لتلك المؤامرة . ومازال جرح قلبى ينزف ولم يندمل أبداً . بالإضافة لذلك ، فإن حالتى الصحية تزداد سوءاً . وأنا على يقين أن أوزوريس يمهد لوصولى إلى العالم الآخر بجوار الإله رع . إننى ، عندما هممت بمعاقبتك على ما اقترفته ضدى ، شعرت وكأن آمون قد أصاب أعضائى بالشلل . وعندئذ ، تيقنت أننى أكن لك حبا جارفاً . سوف تعيشين حياتك بحرية كاملة . وأعتقد أن إعدام ابنك يعتبر بمثابة أقسى عقاب لما اقترفته من جرم » .

نظرت إليه « تيى » وقد اكتسى وجهها بحمرة الخجل ، وأخذت جميع النساء يرمقنها بنظراتهن . فأجابت الفرعون بقولها :

- « ربما كانت هذه آخر ليله فى حياتى . وربما لن تشاهد عيناى ضوء رع وهو يشرق على الوجود . ولكننى ، مع ذلك ، سوف أمضى لحظات ممتعة برفقتك » .

وتبعت « تيى » الفرعون إلى الغرفة الملكية بمقر الحريم . ومع ذلك ، فلم تكن تستطيع الامتناع عن التفكير فى ابنها الذى أصدر هذا الرجل أوامره بإعدامه . وفى نفس اللحظة ، اجتاحتها مشاعر غريبة ومبهمة ، هى مزيج من الكراهية والحب .

* * *

لقد توفى رمسيس الثالث بعد ذلك بوقت وجيز . وخلفه على العرش ابنه رمسيس الرابع . وقد قام رمسيس الرابع بتحرير وثيقة مهمة تعرف حالياً تحت عنوان « بردية هاريس » . ومن خلالها يشيد بإنجازات رمسيس الثالث وانتصاراته . ولقد دفن رمسيس الثالث بوادى الملوك . وتم العثور على موميائه فى القرن التاسع عشر . ثم نقلت هذه المومياء إلى القاهرة وهى قائمة حالياً « بالمتحف المصرى » .

- ١ -

قيصر
و
كليوباترا

عندما توفى الملك بطلميوس الحادى عشر فى العام (٥١) ق.م، عاصرت أسرة البطالمة العديد من حوادث الاغتيال ، والصراعات الداخلية والفساد . وتزايدت مشاعر الغضب والرفض فى نطاق الشعب المصرى .

وكانت كليوباترا السابعة هى الابنة الكبرى لبطلميوس الحادى عشر . وبالتالى ، وكتدرج طبيعى لمجرى الأمور تبوأت عرش مصر بمصاحبة أخيها بطلميوس . وكانت التقاليد المصرية ، تستدعى أن يتزوج الأخ والأخت من أجل الحفاظ على نقاء العنصر الإلهى بأسرتهما . ولكن بطلميوس لم يكن قد تعدى العاشرة من عمره . وهكذا تولى الخصى المدعو بوثاينوس مقاليد السلطة فى مصر . وفى نهاية تلك الفترة نفسها ، كان هناك رجلان آخران يمارسان ، هما أيضاً نفوذاً هائلاً فى نطاق البلاط الملكى بالإسكندرية ؛ وهما : ثيودوردى ثيوس ، وهو يونانى الأصل ، كان يقوم بتدريس علم البيان والبلاغة لبطلميوس ؛ أما الآخر فهو مصرى الجنسية يدعى أشيلاس ، وهو القائد الأعلى للجيش .

ولم تكن كليوباترا على وفاق مطلقاً مع مستشاريها . لقد كانت فائقة الطموح ، ولا تستطيع أن تتحمل أى توجيهات . وهكذا ، واجهها أصحاب النفوذ الثلاثة بقولهم : إنها تحاول جاهدة الاستحواذ على السلطة المطلقة وتنحية أخيها جانباً . وسرعان ما علم أفراد الشعب بتلك النزاعات والصراعات المشتعلة فى نطاق البلاط الملكى . فأجبروا الملكة والخصى بوثاينوس على وضع حد لنزاعاتهما وصراعاتهما التى لا تنتهى أبداً ، وهكذا ، قبلت كليوباترا القيام بمهمة رئاسة الشئون الخارجية . أما بوثاينوس ، فلم يعارض فى قبول مسئولية الشئون الداخلية بمصر . وفى حقيقة الأمر ، أن كل منهما كان يفكر جدياً فى قراره نفسه ، فى الطريقة التى يستطيع من خلالها القضاء على غريمه . ومن أجل تحقيق مثل هذا الهدف ، كان بوثاينوس يعتمد على جيش أشيلاس الموالى له . أما كليوباترا ، فقد ركزت آمالها فى بومبى اليونانى .

ومع ذلك ، فقد كانت كليوباترا ما تزال فى ميعة الصبا . إنها لم تكن فائقة الجمال والحسن ؛ ولكنها فاتنة السحر . وكانت تأسر الألباب بجمال تناسق تقاطيع وجهها ، وبذكائها الفائق ، وعذوبة حديثها . وكانت على درجة رفيعة من الثقافة ، والفكر الثاقب اللماح ؛ بل وتتحدث بعدة لغات . وبذا ، كانت تتميز فى ذلك عن الملوك البطالمة القدامى الذين كانوا لايعرفون سوى اللغة المصرية فقط . أما صوتها ، فكأنهآله موسيقية رائعة متعددة الأوتار ، تستطيع بكل مهارة وبراعة التفنن فى تغيير أنغامها وتنويعها .

ومثلها مثل بقية الملوك البطالمة ، كانت كليوباترا تنحدر من أصل مقدوني . وحقيقة إننا لا نملك أية صورة أو تمثال فعلى لكليوباترا ؛ ولكن ، هناك على أية حال ، هذا التمثال الذى يمثل هذه الملكة فى هيئة الإلهة إيزيس ، والذى عثر عليه فى الإسكندرية فى أواخر القرن التاسع عشر(١) . وقد نستطيع ، إلي حد ما ، أن نتبين ملامحها فوق بعض القطع النقدية الأثرية ؛ إن أنفها يبدو محدباً ، وصدرها ضئيل للغاية . ولاشك أن كليوباترا كانت تتسم بقصر القامة ؛ ولكنها ، مع ذلك ، كانت تأسر الناظرين بسحرها الخلاب وأناقتها المبهرة . وربما أن شخصيتها غير العادية وسحرها الطاغي كانا يعملان على إثارة وارتباك وتوتر بعض الأفراد . ولكن ، بالرغم من ذلك ، كان النظر إليها والإستماع إلى حديثها متعة من أجمل المتع . بل إن صوتها العذب الرقيق ، كان يأخذ بشغاف أكثر القلوب غلظة وصلابة .

وبالرغم من شخصيتها القوية المسيطرة ، كانت كليوباترا تتمتع بسجايا فطرية طفولية ، بل وأيضاً الاندفاع وسرعة الغضب والمشاكسة . وكانت تشبع رغباتها من كافة الملذات التى تبدو فى متناول يدها . وفجأة كانت مشاعرها العاطفية تتحول من السعادة الغامرة ، إلى الحزن والأسى البالغ ؛ من الضحكة المجلجلة الى الدموع الساخنة . أما جسدها ، فكان رقيقاً ممشوقاً يتسم بالخطوط الانسيابية الرقيقة الساحرة . وبشرتها مخملية النعومة ، تعبر عن نقاء وطهارة وجدانها ، ومع ذلك ، فقد كانت تعرف تماماً كيف تحدد هدفها وتصل إليه فى النهاية . ولا شك أن هذه الصفات

---

(١) اعتقد البعض أن الرسوم البارزة بمعبد دندرة تمثل كليوباترا . ولكن ، فى واقع الأمر أن رؤوس هذه الأشكال كانت للربة حتحور ومعها أحد خراطيش كليوباترا ، وعن التمثال - النصف القائم « بالمتحف البريطانى » فهو فى حقيقة الأمر لأمرأة سورية وربما تكون العملات النقدية التى عثر عليها بالاسكندرية وعسكالون ، والمحفوظة حاليا بالمتحف البريطانى » أكثر مصداقية . ومن خلال بعض الرسوم ، تبدو كليوباترا بوجة جاد القسمات ، وأنف ضخم معقوف ، وفك بارز ، وعينان واسعتان .

التلقائية المتدفقة ، قد جذبت وخلبت لب قائد رومانى قدير . وبالرغم من ذلك ، فإن كبار حماة الأخلاقيات الرومانية ، كانوا لا يميلون مطلقاً لهذه الملكة المصرية ، ويصفونها بأنها مجرد ساحرة وامرأة متهتكة . أما المؤرخ بلوتارخ ، فقد وقع تحت جبروت سحرها وفتنتها الطاغية . لدرجة أنه وصفها قائلاً : « إنها تتمتع بجمال لا يضاهى يستحوذ فى التو واللحظة على قلوب وأفئدة من ينظرون إليها . إن كليوباترا تمثل ، بصفة خاصة الحياة بكل أبعادها ، وعنفوانها ، وثرائها » . ولا شك أن العديد من الكتاب والمؤلفين الرومان لم يعطوها حق قدرها ، من خلال كتاباتهم المتعددة .

ولكن ، علينا أن نقر أن من يريد أن يعتلى عرش مصر فى تلك الحقبة الغابرة ، كان لابد وأن يكون على قدر كبير من الشجاعة والجسارة . فخلال هذا العصر ، كانت مصر قد فقدت العديد من ممتلكاتها ومحمياتها ، مثل سوريا ، وقبرص . ولعلنا نعرف أيضاً ، أن الفرعون ، فى تلك الفترة ، كان يمثل الإرادة والسيطرة الرومانية . ومع ذلك ، بالرغم من أن أسرة البطالمة كانت قد توارت وأفل نجمها ، فإن كليوباترا كانت ترنو دائماً إلى استعادة الممتلكات والمحميات المصرية السابقة ، وأن تسيطر تماماً بكل سلطتها ونفوذها على كافة أنحاء مصر . ولكن ، جيشها ، بمقارنته بالجيش الرومانى كان يبدو ضئيلاً ومضمحلاً للغاية . ولم تستطع أن تسير على نفس نهج من سبقها من الفراعنة السابقين : أن تخرج للقتال على رأس جيش قوى ضخم . وعندئذ ، سوف تستعين بكافة أسلحتها من أجل تحقيق طموحاتها .

وكان الهدف الرئيسى أمام كليوباترا ،هو الإطاحة بـ« بوثاينوس » . وعلى مايبدو ، أن ابنى الوالى الرومانى بينولوس ، فى سوريا قد قتلا فى الماضى بأيدى الجند المرتزقة الموالين لبطلميوس « الزمار » ؛ وعندئذ ألقت كليوباترا القبض عليهم وسلمتهم إلى بينولوس حاكم سوريا الرومانى الطاغية ؛ وكان صديقاً لبومبى . ويبدو أن كليوباترا لم تتلق من بينولوس الشكر الذى تستحقة . فقامت بإرسال كميات ضخمة من القمح ، والسفن الحربية وفرق عسكرية إلى ابن بومبى . ولم يعجب مثل هذا التصرف الشعب المصرى من جانب الملكة فقام بثورة . وعندئذ ، هربت كليوباترا إلى طيبة ، ثم إلى الجزيرة العربية ، ومنها ، إلى سوريا . وهناك قامت بتنظيم جيش . واندفعت على رأسه نحو مصر . وفى مصر ، وجدت فى استقبالها وحمايتها كلاً من

بطلميوس وأشيلاس بمصاحبة فرق عسكرية ضخمة . وتم هذا اللقاء بين كليوباترا وأخيها فى منطقة البيلوزيون (بورسعيد) .

وفى نفس ذاك الحين كان « السيناتور » قيصر ، يخوض معارك حربية ضد بومبى ، وعندما وجد قيصر أن غريمه قد تلقى دعماً وعتاداً جديداً ، اضطر إلى التخلى عن منطقة داروزا فى البانيا ، وفى ٩ أغسطس عام ٤٨ ق.م، واجه فى المدينة الرومانية « فارال » جيشاً ضخماً يفوق جيشه عدداً وقوة . ولكن ، بخلاف ما كان متوقعاً ، انتصر قيصر فى المعركة . واضطر بومبى أن يتقهقر ويحتمى فى مقدونيا . ومن هناك رحل إلى جزيرة لسبوس لملاقاة زوجته وابنه . وكانت الضرورة تحتم عليه أن يعثر على دولة ترحب به وتحميه من قيصر . وبما أن سوريا قد أوصدت بابها فى وجهه ، فلم يعد هناك أمامه سوى مصر .

وعندما علم كل من بوثاينوس وتيودور أن بومبى على وشك الوصول للإسكندرية ، لم يترددا مطلقاً فيما اعتزماه . واتفقا قائلين :

– « إن مجرد استقبال بومبى فى مصر هو بمثابة إعلان العداء على القيصر ؛ بل بمثابة قبول بومبى كحاكم متسلط على مصر . ولو أننا منعناه من دخول مصر ، فلن يسامحنا على ذلك مطلقاً ، كما أن قيصر سوف يتبعه لمهاجمته هنا فى مصر . إذن ، فإن الضرورة تحتم ، أن نخرج للبحث عنه وقتله . وبمثل هذه الطريقة ، سوف نرضى أحد الطرفين ، ونأمن شر الطرف الآخر . فإن الموتى لا يستطيعون إلحاق الأذى بأحد » .

ولذا ، توجهت إحد المراكب المتواضعة من إجل استقبال بومبى ، الذى كان قد غادر سفينته الرومانية ثلاثية المجاديف وتركها على مسافة بعيدة من ميناء الإسكندرية . وقام أشيلاس بدعوة بومبى للصعود إلى مركبة بعد أن اعتذر له لما تبدو عليه من حالة متواضعة ، لاستقبال ضيف عظيم الشأن مثله . وبدا على بومبى بعض التردد ، وفضل ترك زوجته وابنه على السفينة الرومانية الثلاثية المجاديف . وفى نهاية الأمر ، وافق بومبى ، وصعد إلى مركب أشيلاس المصرية المتواضعة . وحالما رست المركب ، هجم أشيلاس ورجاله على بومبى وسددوا إليه جميعاً طعنة قاضية بأسنة

سيوفهم . بل لقد قام أشيلاس بقطع رأس هذا الرومانى ، وأمر رجاله بإلقاء جسده فى مياة البحر .

وبعد مضى أربعة أيام ، علم أشيلاس ، أن قيصر سوف يحضر إلى العاصمة المصرية ، فى ١٩ أكتوبر . فسارع بإحضار رأس بومبى وخاتمه وقدمهما له كدليل على الصداقة والود . ولكن قيصر ، على ما يبدو ، كان يشمئز من الجبن والجبناء ؛ وغادر المدينة ومعه جنوده البالغ عددهم ثلاثة آلاف جندى . وبوصوله إلى الإسكندرية ، استقر بقصرها الملكى الفخم . وعند مقابلة بوثاينوس قال له إنه يود أن تحضر إليه كليوباترا وأخوها بطلميوس ؛ وأن يتم حل جيشها وتسريحه . وعمل قيصر على إحضار كتيبتين رومانيتين من سوريا ؛ من أجل دعم الحراسة والمراقبة من حوله . بل وأمر بالبحث عن بقية جسد بومبى فى مياه البحر وإحضاره ، ثم أمر بوضعه بمعبد نمسيس . ثم قام بإرسال رأس بومبى إلى زوجته ، بعد تحنيطه .

وحقيقة أن قيصر قد شغف إعجابا بجمال الإسكندرية ، وبمنارتها الرائعة ، وبمتحفها الذى احتضن بين جنباته أكبر علماء العالم أجمع ، وأيضا بمكتبتها النفيسة . ومع ذلك ، فقد كان يشعر بضجر وتأفف الشعب المصرى منه . فلم يكن المصريون ينظرون بعين الرضا للقادة الرومانيين فى شوارع مدينتهم الإسكندرية . بل ولا يطيقون قائدهم هذا الذى ناهز الخمسين من عمرة ويرتدى عباءة مزينة بخطوط مخملية ، وينظر إليهم من عليائه وهو يدير خاتمه الضخم حول إصبعه والذى يستعين به أيضا كختم يختم به مستنداته . وبدأ المصريون يتآمرون فيما بينهم . بل إن نفس هذا القائد كان ينظر نظرات كلها حسد وحقد إلى الكميات الهائلة من القمح التى تحمل فوق السفن من أجل نقلها إلى أماكن أخرى ؛ فى الوقت الذى تعانى إيطاليا من آلام الجوع ، وتمزقها الحروب الأهلية .

إن روما لم تثبت وجودها كما يجب بمخزن الغلال الضخم هذا ؛ أى مصر . ولقد حان الوقت من أجل أن تفعل ذلك .

لقد بدأ قيصر يشعر بتزايد مشاعر الكراهية والبغض من حوله . ولم يستبعد أن يقوم المصريون بحصاره وهو بداخل القصر . ولكن ، ها هو قد علم أخيراً بوصول

بطلميوس من البيلوزيون (الفرما) وعند مقابلته له قال :

- « سـوف أقـوم أنا بدور الوسـيط ؛ من أجل حل الخـلاف القـائم بينك وبين أختك » .

وعندما سمع بوثاينوس ما قاله قيصر لتوه ؛ انتابه فزع شديد . فلا شك أن الموت سوف يكون مصيره المحتوم لو أن قيصر قد أعجب بكليوباترا ووقع تحت تأثير سحرها وجاذبيتها . ولذا ، فقد أسر لبطلميوس هامساً :

- « كليوباترا يجب أن تختفى . علينا أن نضع المتاريس عند حدود كافة الطرق . بدون أن يعلم قيصر . فإن كليوباترا لايجب أن تصل إلى هنا مطلقاً » .

ولم يكن من الصعب على كليوباترا أن تخمن ما يدور فى خلد أخيها نحوها . ومع ذلك ، فقد شعرت بضرورة الدفاع عن موقفها أمام قيصر . ولذا ، فقد اقترح عليها أحد رجالها المخلصين وهو « أبوللودور دى سيسيل » أن تتوجه إلى الإسكندرية وهى مختبئة بداخل سجادة مطوية .

وعندما وصل « أبو للودور » إلى باب القصر بالإسكندرية ، كان الليل قد أرخى سدوله تماماً على المكان . وسأله الحارس قائلا :

- « ماذا تريد ؟ » .

- « لقد أحضرت هدية من أجل قائدك » .

وتم السماح لـ « أبوللودور » بالمثول أمام قيصر الذى بدا جالسا وهو يعمل أمام مكتبه .

وقام « أبوللودور » بوضـع السجادة الملفوفة تحت قدمى القيصر . وبدأ فى فردها فى حرص وحذر شديد . وانتابت القائد الرومانى دهشة بالغة ، وهو يرى الملكة الشابة كليوباترا تخرج من داخل هذه السجادة ، بكل ما تتسم به من رقة ورشاقة ومكر محبب ، وعلى ما يبدو ، أن هذه الدعابة قد سرته كثيراً ، وأدخلت على قلبه شيئاً من البهجة والسرور .

وحقيقة أن قيصر ، هذا القائد المغوار الذى اكتسح إسبانيا ، وغزا الغال واحتل جرمانيا ، والذى كان يميل دائماً إلى الجدية والصرامة ، لم يستطع أن يخفى بوادر ابتسامه ارتسمت على وجهه . وعندئذ قالت له كليوباترا :

– « لقد أخبرنى مبعوثك الذى أرسلته إلىّ بأنك تمنحنى حمايتك ورعايتكم . وكان علىّ أن ألجأ إلى خدعة ما من أجل الإفلات من الحرس الذين بثهم أخى بطلميوس فى كل مكان . ولكن إذا أردت حقاً ، فإننى على أتم استعداد للمصالحة مع أخى بطلميوس ، وفقاً للشروط التى ذكرت بوصية أبى بطلميوس (الزمار) .

ولاشك مطلقاً أن قيصر قد أعجب بما تتحلى به كليوباترا من ذكاء لماح وفطنة نادرة . وتبين عندئذ ، أنه أمام امرأة لايقل مستوى طموحها عن مستوى طموحاته هو نفسه ؛ بل وتتميز إلى أبعد مدى بالفتنه والجاذبية . وشعر قيصر بمدى القوى التى تنبعث من هذا الكيان الأنثوى البادى الرقة والنعومة . وهنا ، تأكد أنه قد يستطيع ، إذا لزم الأمر ، أن يعتمد عليها من أجل تثبيت وتقوية نفوذه فى مصر . قطعاً أن قيصر قد وقع تحت سحر المشرق عامة ، ومصر الهيلينية خاصة ، التى تختلف اختلافاً كلياً عن إيطاليا ؛ والتى تدعو إلى التأمل ، والحلم ، والثقافة ، والموسيقى ، والمتع الحسية ، والفكر العقائدى . وأخذ يرنو إلى كليوباترا ، وقد شمله شعور بأن هذه المرأة سوف تكون مرشدته ومرافقته ، فى هذا البلد الذى يسحره ويجذبه ؛ ولكنه للأسف لايستطيع أبداً أن يتفهمه ويعرفه .

وعندما علم بطلميوس بأمر المقابلة التى تمت بين أخته وبين قيصر ، قبل مضطرا فكرة التصالح معها . وبعد فترة وجيزة ، أقيمت احتفالات فخمة رائعة بمناسبة زواجهما . ومع ذلك ، فإن بوثاينوس لم يكن ليألو جهداً فى مواصلة تدبير خطته وتنفيذها . وأخذ يؤجج ويشعل ثورة الشعب ضد قيصر . بل ويثير غضب واستياء الجند الرومانيين ، ويستولى على ما تتضمنه المعابد من أموال وذهب ، مدعيا أن ذلك تم وفقا لأوامر قيصر . وتوجه أشيلاس إلى بلوزيون من أجل إحضار جيش بطلميوس الذى كان يعسكر هناك . وبوصوله على رأس هذا الجيش ، قام بمحاصرة قصر الإسكندرية ، حيث نزل قيصر عند مجيئه . وكان هذا الجيش يتكون من عشرين ألفاً من الجنود المشاة وألفين من الفرسان .

يبدو أن قيصر لم يكن يولى أى اهتمام بحركة التمرد هذه التى كان يقودها أشيلاس . وكان يمضى معظم أوقاته مع كليوباترا ، ويشارك معها فى لعبة النرد ، ويحكى لها عن معاركه وانتصاراته العديدة ، وأخيراً ، تم الاتفاق بينهما على التوحيد بين قواتهما .

وبالرغم من كل ما بذله أشيلاس من جهد ، فإنه لم ينجح فى اقتحام القصر . ولذا ، قرر أن يعبئ البحرية المصرية . ومن أجل أن يمنعه قيصر من تنفيذ فكرته هذه ، أشعل النيران فى السفن . وهكذا اشتعلت النار فيما لايقل عن مائتين واثنتى عشرة سفينة حربية بميناء الإسكندرية ، المعروف باسم « الميناء الكبير » . بل لقد امتدت النيران إلى المبانى والمنشآت المجاورة للميناء ، بالإضافة أيضاً إلى المخازن والمكتبة الكبرى القائمة هناك . وقرر قيصر انتظار النجدة عند جزيرة فاروس ؛ من أجل مراقبة المرور البحرى بداية من « الميناء الكبير » إلى عرض المحيط .

واستطاعت أرسينوس ، شقيقة كليوباترا ، أن تهرب من القصر بمرافقة الخصى جانيميد لتنضم إلى معسكر أشيلاس . وعمل أشيلاس على سد جميع المنافذ المائية ؛ من أجل حرمان الجند الرومان من الشرب . ولكن قيصر استطاع التغلب على هذه الحيلة ، وعمل على حفر بعض الآبار .

وأخيراً عرف قيصر ، أن النجدة العسكرية قد وصلت قادمة من آسيا . وعندئذ ، أخذ الجيش المصرى يعبئ قواه مستعيناً بالسفن التى استطاع جانيميد أن يجمعها ويهيئها من أجل خوض القتال . وفى نهاية المعركة ، تحقق النصر لقيصر ؛ وعمل على إطلاق سراح بطلميوس . ولكن هذا الملك الشاب قام ، على رأس جيشه ، بالتمرد على القائد الرومانى ومجابهته فى معركة فاصلة . ويبدو واضحا أن قيصر قد دعم من قوته وعتاده بواسطة النجدة العسكرية التى كان قد أرسلها إليه صديقة ميتريدات من برجام . وهكذا ، تمكن من سحق الجيش الملكى . وقضى أيضاً على بطلميوس .

وحينئذ ، لم يبد قيصر أية شراسة أو عنف تجاه الشعب الذى انتابه الأسى والحزن . فإن كل ما كان يفكر فيه ، بعد معاركه هذه ، هى كليوباترا التى كانت تنتظره على أحر من الجمر بقصرها . والجدير بالذكر أن أرسينوس شقيقتها كانت من ضمن الغنائم التى قدمها قيصر لروما ! .

وخلال هذه الآونة ، كانت الحروب الأهلية تجتاح روما . وهكذا ، تباطأ قيصر فى الرجوع إليها . واستمر بجوار الملكة المصرية الفاتنة طوال ثلاثة أشهر أخرى . وأعاد إليها قبرص ، وزوجها بطلميوس الثالث عشر ، ونعم بما كان يربط بينهما من حب وهيام . وقد اقترحت عليه كليوباترا أن يرافقها فى رحلة لاستكشاف معالم مصر . واستقلا سفينة ملكية صعدت بهما إلى أعالى النيل حتى إثيوبيا . وقامت بمصاحبتهما وحراستهما مالايقل عن أربعمائة سفينة حربية .

لقد زينت جميع حجرات هذه المركب الملكية المصنوعة من أخشاب الصنوبر والسرو برسوم بديعة وبرقائق ذهبية . وزخرفت أيضاً ، قاعات الاحتفالات ، ومقاصير فينوس دبينوسوس ، والحديقة الشتوية ، والكهف . أما قاعة المأدب المصرية ، فهي الوحيدة التى لم تؤثث وفقا للنمط الرومانى .

وبدا قيصر مستسلماً لكل ما أرادته كليوباترا . فهل كان يود أن يستكشف مدى ثراء مصر وثروتها ؟ وهل كانت تود ، من وراء ذلك إبهاره وإثارة إعجابه ؟ عموماً ، لقد ساعدتها هذه الرحلة الممتعة على الابتعاد لبعض الوقت عن مشاكلهما السياسية .

ومر الموكب الملكي البحرى بمنطقة أبيدوس . ثم واصل سيره وتوقف عند دندرة ، من أجل تقديم بعض القرابين للإلهة حتحور . وهكذا قادت كليوباترا القائد الرومانى لمشاهدة كافة معابد ونصب مصر الكبرى . وفى نهاية الأمر ، وصل الاثنان إلى طيبة . وقامت كليوباترا بتقديم عدة قرابين من أجل هرموبوليس . وقررت أن تقيم هناك معبداً جديداً .

ولا شك مطلقاً أن قيصر قد انبهر بضخامه وعظمة أبى الهول ، وأهرام خوفو ، وخفرع ، ومنقرع ، والممرات المعمدة بدندرة ، وصروح ومنشآت الكرنك والأقصر . وبدا هذان العاشقان ، وقد تمدد كل منهما فوق سريره الفاخر ، وهما يتذوقان بعض الفاكهة ويحتسيان النبيذ ، ويستمتعان بما تقدمه الراقصات من عرض خلاب ، وقد أنسابت من حولهما أنغام موسيقية حالمة ناعمة . ولم يكن يعكر صفو هدوئهما وسعادتهما ، سوى صوت المجاديف الرتيب وهى تضرب بانتظام صفحة مياه النيل من حولهما . وكلما كان الحبيبان يتوقفان عند أحد المعابد ، كانت جموع الجماهير تطلق هتافاتها ودعواتها لكليوباترا ، وكأنها إلهة فعلية . واصطف أفراد الشعب على ضفتى النيل من أجل تحيتها واستقبالها بالهتافات .

وعند وصولهما إلى أسوان ، أبدى قيصر رغبته فى استكمال رحلتهما . ولكن ، يبدو أن جيشه كان لايحبذ ذلك . ويبدأ الموكب الملكى يتجه إلى الإسكندرية . عندئذ ، كانت كليوباترا ترمى إلى تحقيق هدف محدد . فهى حقيقة تميل كثيراً إلى قيصر وتشعر بجاذبية شديدة نحوه ، فهو قائد جسور حقق الكثير من الانتصارات الحربية ، ولكنها ترى أيضا ، أنه قد يساعدها على دحر البارثيين ، لكى تستعيد سطوتها ونفوذها على آسيا . كما أن قيصر يقود جيشاً هائل الضخامة . بل ويستطيع أيضاً أن يجتذب إلى جيشه هذا المزيد من الجند من مواطنى البلاد التى غزاها . ولكنه لايملك المزيد من الأموال لتحقيق ذلك . ورأى هذا القائد الرومانى أن التوحيد بين قواه وقوى الملكة كليوباترا سوف يعود عليه بنفع لاشك فيه مطلقاً . أنه بذلك ، قد يستطيع تحقيق الحلم الذى كان يراود دائما الإسكندر الأكبر : ضم الشرق والغرب فى كيان واحد ، ليصبح هو المسيطر الأعلى على إمبراطورية مترامية الأطراف ؛ يقوم هو وكليوباترا بتوريثها لأولادهما من بعدهما . وقالت له كليوباترا :

- « عليك أن تمسك بمقاليد الحكم فى روما ، ليس بصفتك « سيناتور » بل كملك ذى نفوذ إلهى . إن الإسكندر الأكبر قد تحول إلى إله . والشعب المصرى يعتبرنى بمثابة إحدى الإلهات . أذن ، اتبع تقاليدنا المصرية » .

وحقيقة أن البطالمة ، قد أبدوا ، فى نهاية الأمر تحفظاً ملحوظاً تجاه المعتقدات والشعائر الدينية الخاصة بالفراعنة المصريين القدامى ، ولكنهم ، فى نهاية الأمر ، عملوا على اعتناقها وتطبيقها .

لقد أبدى قيصر اهتماماً واضحاً لما تقوله له كليوباترا . ومع ذلك ، وللأسف ، فهو يعرف جيداً نفور الرومانيين من النظام الملكى . كما كان يعتقد أن محاربة البارثيين والانتصار عليهم لا يعتبر من الأمور الهينة . إنه يخشى بأس عشائر وشراذم هؤلاء البرابرة ، بل هو يشك فى أن جيشه وجيش كليوباترا معاً ، بالإضافة إلى عتاد ميتريدات العسكرى ، تكفى من أجل دحرهم والقضاء عليهم ، وخلاف ذلك ، فقد أخبره بعض مراسليه أن أفراد الشعب الرومانى يطالبون برجوع قائدهم إليهم . فما الذى يجعله يضيع وقته سدى هنا فى مصر ؟!.. وقد عرف أيضا أن قائد كتيبة العربات الحربية أنطونيو ، يعمل حالياً على طمأنة وتهدئة الشعب الرومانى . ولكن ، على ما يبدو ، أن تدخله وتوسطه من أجل طمأنتهم لم يعد يكفى . إذن ، كانت الضرورة تحتم

أن يعود قيصر فوراً إلى روما ، من أجل استعادة مقاليد سلطته .

وأخبر قيصر كليوباترا بما يزمع أن يفعله ؛ فانخرطت في بكاء مرير وهي تقول له من خلال دموعها :

– « أهكذا انتهي ارتباطنا معاً ؟!. إنني لن أراك أبداً بعد الآن . إنك سرعان ما تنكب على مشاكل روما وأمورها ، وتنساني تماماً . إنك راجع من أجل لقاء زوجتك كالبورتى لا تتركني وحدى هنا . وما هو إذن مصير خططنا وأهدافنا ؟! ».

وتملك الحزن والتأثر الشديد من قيصر ، لما أحدثه كلامه هذا من رد فعل قاسٍ . فأخذ يطمئنها قائلا :

– « إن الضرورة تحتم على الرجوع إلى روما . وإن لم أفعل ذلك ، فلن نستطيع أن نحقق شيئاً معاً . ولكنني سوف أعود ثانيةً بعد أن أتمكن من تثبيت نفوذي وسلطتي . وأيضا ، بعد أن أتمكن من جمع الفرق العسكرية اللازمة من أجل القيام بحملة ضد البارثيين . وإذا طالت غيبتي عنك ، فأرجو أن تحضرى أنت إلى روما !» .

كانت كليوباترا تشعر وقتئذ ، وكأنها تتمزق ما بين الاحتفاظ بكرامتها وهيبتها وبين شعورها بالألم والأسى . كما أنها تعرف جيداً أن قوة تأثيرها على قيصر سوف تقل عند ابتعاده عنها . ولكنها ، في نفس الوقت ، كانت ترى أن الضرورة تحتم فعلاً رجوع قيصر فوراً إلى روما .

وعندما حان وقت الرحيل ، توجهت كليوباترا إلى الميناء لتودع قيصر ، ثم غادرته ، بكل ما يجب أن تتسم به ملكة مصر من عظمة ووقار . وغادر قيصر مصر بعد أن ترك جيوشه بها . فقد اصطحب معه بعض جنده المخلصين ، الذين شاركوا معه في انتصاراته في موقعة فارسال الحربية ، وعادت كليوباترا راجعة بمفردها إلى قصرها . ولم تكن على يقين أبداً من أن قيصر سوف يفي بوعوده لها .

- ٢ -

بعد ابتعاده عن كليوباترا ، بدأ قيصر يستعيد طبيعته كمقاتل لامثيل له ، فقد تمكن من هزيمة « فارناس» ، ملك بونت . وبوأ على عرشه صديقه المخلص ميتريدات . وبدت أبواب آسيا أمامه مفتوحة على مصراعيها . وبعد توقفه لفترة قصيرة في اليونان ، وصل إلى روما التي غاب عنها أكثر من عشرين شهراً . وهناك ، لم يجد الأحوال على ما يرام أبداً : فها هي الكتائب العسكرية ، والسينات (مجلس الشيوخ) ، بل الجميع بدون استثناء يقابلونه ببرود واضح . ومع ذلك ، فقد عاد منتصراً من معركته بآسيا . إنها المعركة التي قال بصددها جملته المشهورة : « vici , vidi, veni» ، أى « لقد حضرت ، ورأيت ، وانتصرت » ؛ فإن انتصاره كان حاسماً وسريعاً .

وعندما تبين أن بعض الأفراد الموالين « لبومبى » قد قاموا بحركة تمرد فى نوميديا ، قام قيصر بتشجيعهم على مرافقته إلى أفريقيا . ولاشك أن أعضاءً مجلس « الشيوخ » كانو ينتقدون بشدة علاقته بكليوباترا . بل لقد فكروا فى إثارة تمرد الفرق العسكرية بالجيش من أجل القضاء عليه . ولكن سرعان ما فشلت خططهم تماماً . وبذا ، اضطروا إلى مهادنته .

ولاريب أن قيصر كان بارعاً فى فنون الحرب ؛ وبذا ، استطاع أن يحقق انتصاراً عسكرياً خاطفاً وحاسماً . وأمام مثل هذا النصر السريع ، أقر الرومانيون بشجاعته ، وانطلقوا يهتفون له ويحيونه على انتصاراته الأربعة : فى الغال ، ومصر ، ونيوميديا ، وبونت . ، وضمن الأسرى غنائم الحرب ، بدت أرسينوى شقيقة كليوباترا وهى تمر أمام القيصر وقد كبلت قدماها بالسلاسل .

حقاً ، لم تشاهد روما من قبل مثل هذه الاحتفالات الفخمة الباهرة ، حيث تراء ت التماثيل العملاقة الضخمة التى تمثل نهر النيل ، والرون و الرين . ولقد تم إعادة إصلاح مدينة الإسكندرية التى كانت قد أتت عليها نيران الحريق وبدا قيصر مرتديا عباء ته الأرجوانية ، وهو واقف بعربته الحربية التى تجرها جياد شهباء ، وبعد أن انتهى من استعراض الأمراء والقادة الأسري . وفى نهاية المأدبة الكبرى ، عاد إلى قصره ، فى موكب ضخم يضم حوالى أربعين فيلا يقودها بعض الفيالين الذين يرفعون عالياً شعلات متأججة .

ولقد دهش « السيناتورات » دهشة بالغة عند علمهم بخبر انتحار « سينبيون » و « كاتون دى فارسال » . وبعدها بدوا على أتم الاستعداد لتقديم ارفع المناصب وأعلاها شأنا لقيصر . وهكذا تبوأ منصب « حاكم رومانى » لمدة ثلاث سنوات . وهى من الوظائف التى تمنح لشاغلها سلطة لا حدود لها . وأصبح من اللازم أن يرافق قيصر فى غدواته وروحاته ما لايقل عن اثنين وسبعين حارساً . وقام بعض النحاتين بتمثيله فى هيئة بطل جسور يهيمن على كافة أنحاء الأرض . ولقد تم وضع هذا التمثال أمام معبد جوبيتر . وكان قيصر يشارك فى جلسات مجلس « السينات » وهو جالس فوق مقعد عاجى فخم ، مثله مثل أى قنصل أو كبير قضاة .وكان هو الوحيد المكلف بوضع أكاليل النصر فوق رؤوس المصارعين والأبطال المنتصرين بعد انتهاء المصارعات وسباقات العربات . وخلال المناقشات ، أثناء الجلسات ، كان هو الذى يستهل الحديث .

وكان قيصر ، بدون أدنى شك ، يتقبل كل هذا التكريم بسعادة غامرة ؛ ومع ذلك ، فإنه ، فى قرارة نفسه يعتبرها سعادة عابرة زائلة ومجرد مظاهرسطحية . لقد كان يحلم ويفكر فيما كان يمكن أن يلقاه فى مصر . وفى لحظات السكينة والهدوء ، عند عودتة ظافراً من معاركه الحربية ، كان يفكر كثيراً فى كليوباترا . وحقيقة أن زوجته « كالبورنى » ، هى زوجة محبة تتسم بالأناقة والذوق الرفيع ، ولكن ، بالقطع ينقصها شى ما : غرابة الأطوار والتلقائية المحببة . وهنا ، شعر قيصر أن كليوباترا ، كان لها دور كبير فى تغيير نمط حياته الرتيب الباهت . فلماذا إذن ، لايفى بوعوده لها ؟ لماذا لا تحضر إلى روما ؟ ... لاشك أن زوجته الفاضلة « كالبورنى » سوف تتقبل قراره هذا ، وترضخ لإرادته . فهكذا كانت تفعل دائما .

خلال الفترة التى كان قيصر يخوض معاركه الحربية ويستمتع بانتصاراته العسكرية ، وضعت كليوباترا وليداً جديداً ، في ٢٣ يونيو عام ٤٧ ق.م ؛ فهذا بالفعل ما جاء ذكره من خلال إحدى اللوحات القائمة بمتحف اللوفر . ولكن ، من تراه كان والد هذا الطفل ؟!.. إنها حقيقة كانت متزوجة زواجاً رسمياً من بطلميوس ، ولكنها تؤكد أن هذا الوليد هو ابن قيصر . بل ولقد أطلقت عليه اسم القائد الرومانى . ولكن أفراد الشعب كانوا يسمونه « قيصرون » . بل كانت الملكة تؤكد دائما أنه يشبه تماما أباه قيصر . أما الكهنة المصريون ، فكانوا ، من ناحيتهم يؤكدون أنه « أبن

الإله رع » ؛ ولاشئ خلاف ذلك .

وفى هذه الفترة كانت كليوباترا قد أمرت بسك عملات معدنية . وتمثلها الأشكال فوق تلك العملات وقد اصطحبت وليدها مجسداً فى هيئة كيوبيد « إله الحب » ، أما هى فقد بدت فى صورة الإله أفروديت .

ولم تستطع كليوباترا أن تتمالك نفسها من شدة الفرح والسعادة عند علمها بحضور مبعوث قيصر إلى الإسكندرية . إذن ، فهو لم ينساها أبداً . وعلى الفور ، بدأت فى إعداد حقائبها . ولاشك أن الرومانيين سوف يتذكرون دائما يوم وصولها إلى أقوى دولة فى العالم سلطة ونفوذاً ! .

ودخلت ملكة مصر إلى روما فى العام ٤٦ ق.م ، بكل ما تتطلبه مكانتها الرفيعة من مظاهر الأبهة والفخامة . وكانت تحمل ابن قيصر بين ذراعيها . وخرج جميع سكان روما ليشاهدوا وصولها المظفر . وعندئذ ، بدت « كالبورنى » واقفة بجوار « زوجها » ، الذى كان قد قرر أن تكون إقامه كليوباترا فى أملاكه المترامية عن ضفاف التيبر ، أما هو ، فسوف يكون مقره بجوار زوجته بقصره بمدينة روما . إن كليوباترا ليست فقط مجرد ملكة مصر ، بل هى تسود أيضاً على الرومانيين . فهذا ، ما كانت تعتقده فى قرارة نفسها . بل كانت تتعامل مع نبلاء روما وأمرائها وكأن قيصر قد نُصّب ملكا بالفعل على عرش إيطاليا .

وسرعان ما أضمر لها أعضاء « مجلس الشيوخ » « Senateurs » ، مشاعر الحقد والكراهية . فقد كانوا يتساءلون فى دهشة وقلق : ماذا سيكون عليه حال قيصر لو أنه وقع تحت سحر التقاليد الشرقية ؟ ... عندئذ ، لاشك أنه سوف يكتسب نوعا من التراخى ، والميل إلى المتع والشهوات ، والتطلع الدائم لأن يصبح إلهاً .

وحينئذ ، كان قيصر قد اعترف « بقيصرون » كابن له . ولقد أمر بأن يقام تمثال لكليوباترا من الذهب الخالص بمعبد فينوس جنيتريكس . بل أن فكرة تحوله إلى ملك كانت تراوده دائما . وعملت كليوباترا على تأجيجها وبلورتها . فكانت تقول له :

– « لقد هزمت الإغريق ، والغاليين ، والإسبان ، والمصريين ، والأسيويين . ومن الطبيعى إذن أن تصبح ملكاً لهذه الشعوب » .

وبذا ، فإنها إذا تزوجته سوف تصبح ملكة على إمبراطورية مترامية الأطراف .

ولكن يبدو أن بعض القلاقل والاضطرابات الجديدة التى وقعت فى إسبانيا ، قد جعلتها تتخلى مؤقتا عن مشاريعها هذه . وعندئذ قال لها قيصر :

– « إننى مضطر إلى مغادرة روما . فقد تمكن سنيوس بومبى من حصار مدينة « أوليا » حيث توجد بعض كتائبنا العسكرية . وهى تطالب بالنجدة السريعة . ولقد انضم كل من « لابيونوس » « وفاروس» « وسكتوس » إلى معسكر « سنيوس » . ومن الملاحظ أن فاروس على كفاءة عالية فى مجال القتال البحرى . وأما لابيونوس فهو يجيد القتال إجادة فائقة فى المجال البرى » .

وهنا اقترحت عليه كليوباترا قائلة :

– « فلتبعث بقائد آخر غيرك » .

ولكن قيصر كان على يقين أنه هو الوحيد الذى يستطيع أن يحرر إسبانيا . ولذا طلب من أنطونيو أن يقوم بحماية كليوباترا والعناية بها أثناء غيبته . وقال له :

– « هناك الكثيرون جداً الذين قد يطيرون فرحاً لوجاءهم خبر وفاة الملكة كليوباترا . ولذا ، فقد أوكلت إليك بمهمة حمايتها ، إذا ما استلزمت الضرورة ذلك » .

وسارع قيصر إلى جمع رجالة . ورحل بعد أن وعد كليوباترا بأنه سوف يعود بأسرع وقت ممكن . وكعادته دائما سرعان ما وصل إلى إسبانيا خلال فترة وجيزة للغاية . وبذا ، فقد أخذ أعداءه على حين غرة ، لدرجة أنهم لم يجدوا الفرصة حتى للإلتفات حولهم . وكانت خطة قيصر بسيطة للغاية . فعمل على مهاجمة « سينوس بومبى » حتى يجبر أخاه على الحضور من أجل إنقاذه ؛ ويترك خلفه حصار مدينة « أوليا » .

ولكن لسوء الحظ ، أن تقدم سنه وإرهاقه الشديد من معاركة السابقة المتعددة لم يسعفاه فى هذا الصدد . أنه قد ناهز الخامسة والخمسين من عمره . كما أنه قد قطع لتوه ، من أجل الوصول إلى إسبانيا ، مسافة هائلة فوق جواده ، فى فصل الشتاء القارص البرودة . ولذا ، فقد اضطر للرقاد عدة أيام ليستريح بعض الشئ فى مدينة قرطبة .

ويبدو أن سنيوس قد علم بالخطر الذى يحيق به ، فتمكن من تنظيم صفوفه ، وأن يصيب جيش قيصر بالإرهاق والتعب بواسطة هجمات سريعة وخاطفة ومتتالية .

واستمر القتال لفترة مديدة . وأشتد الصراع بين الأعداء المقاتلين . وقد جر ذلك فى أعقابه إصابة كتائب قيصر وفرقه بالتوتر الشديد والفوضى . وفكر قيصر فى حسم هذا الموضوع ، فأصدر أوامره لجنوده بالهجوم الكبير فى ١٧ مارس عام ٤٥ ق.م ولكن عند مواجهتهم لجيش سنيوس بومبى الهائل ، انتابهم الخوف والوجل . لقد كان جيشة الضخم يعادل ضعف عددهم . ولكن قيصر تمسك بكل شجاعته وجسارته ، وحاول إقناع جنوده بخوض المعركة وأخذ يعدو بجواده خلف الهاربين ، ويشجع المهاجمين منهم ، ويحاول إعادة تنظيم صفوفهم . بعد ذلك ، تقدم قيصر ، مترجلاً نحو الأعداء وهو يحتمي بدرعه .

ورشقه الأعداء بسيل من السهام والحراب ، ولكنها لم تصبه بأذى وعندئذ ، قرر جيشه أن يتبعه ويشاركه القتال . وانتهز جنوده لحظة من لحظات التشتت والاضطراب بين صفوف الأعداء بقيادة « سنيوس بومبى » ، فانقضوا عليهم مهاجمين بشراسة وعنف وبدت المعركة مروعة دامية . وتبين بوضوح أن الكفة الراجحة ناحية قيصر . وعن جيش « سنيوس بومبى » فقد بقى جزء منه فى ساحة المعركة ، أما الجزء الآخر ، فقد أندفع نحو مدينة قرطبة للاحتماء بها . وتبعهم قيصر على الفور . وهكذا تحقق النصر الكامل لقيصر . وسرعان ما قدم إليه رجاله رأس « سنيوس بومبى » بعد فصلها عن جسده ، مثلما قدمت إليه فى الماضى رأس أبيه أيضا . وبذلك ، وضعت الحرب الأهلية أوزارها وانتهت تماماً .

وعاد قيصر إلى روما فى شهر سبتمبر عام ٤٥ ق.م . وقد أراد أن يكون انتصاره هذا أكبر وأعظم من كل ما سبق أن احتفل به فى العام الماضي . لقد أراده نصرا يبوئه كسيد غير منازع على روما بأسرها ؛ بل وعلى إمبراطورية هائلة مترامية الأطراف . ولذلك ، فإنه فى ذلك اليوم ، رفض الدخول إلى روما منفرداً . بل أصر على أن تصاحبه جميع فرق جيشه وكتائبه . وبذا ، قام بانتظارها حتى شهر أكتوبر فى قصرة الأنيق بـ « لابيكوم » .

وكان يقول لكليوباترا مؤكداً :

– « لقد وافق مقتل « بومبى » يوم نكرى تأسيس روما . ولاشك مطلقاً أن ذلك يعتبر دليلاً واضحاً على مؤازرة الآلهة لنا . فبذلك ، وبفضلى ، ولدت روما للمرة الثانية » .

وبدت كليوباترا وقد غمرها السرور والبهجة . فلقد أضفى « السينات» (مجلس الشيوخ) على قيصر مهام جديدة أكثر سلطة ونفوذاً من تلك التى كان قد أنعم عليه بها عند انتصاراته الأولى . فقد تم تنصيبه « ديكتاتور » مدى الحياة فى ١٤ فبراير عام ٤٤ ق.م . وبداية من هذه اللحظة ، كان هو الوحيد المكلف بتعيين الحكام ، والوزراء ومحافظى الأقاليم . وهو المكلف أيضاً بإصدار الأوامر والقرارات للمحامين وأعضاء مجلس الشيوخ . ويستمع إليهم بالساحة المقامة أمام معبد فينوس ، وهو جالس فوق عرش فخم مهيب يليق بعظمته . بل ويمكنه أيضاً ، الموافقة على مشاريع القوانين التى تعرض عليه ، أو رفضها . وها هو يقول لكليوباترا :

– « لقد كنت فعلاً على حق . هؤلاء الرومانيون يتسمون بضيق الأفق حقاً . فهم يعتقدون دائما أن مدينتهم هى محور العالم أجمع . وأنا أنوى أن أحضر إلى روما هؤلاء العلماء القائمين « بمتحف الإسكندرية » . ومن الممكن منحهم الجنسية الرومانية . وبذا ، يقومون بإلقاء محاضرات بالمؤسسة التى أقوم بإنشائها حالياً وهكذا ، سوف يعملون على إثراء المكتبة التى أزمع بناءها وإعدادها ، بعلومهم وثقافتهم . وهكذا ، وعندئذ ، لن يكتب الطلبة الرومانيون فوق لفائف الجلد ، بل على أوراق البردى ، مثلما يتم فى الإسكندرية فما الذى يجعلنا نلجأ للحصول على مستلزمات الكتابة من « برجام » فى حين أن مثيلاتها فى مصر تفوقها من الناحية العملية وسهولة الاستعمال ؟ » .

ولقد أراد قيصر أن يحيط شعبه بعقائد وتقاليد كليوباترا ، والإغريق أيضاً . فبدأ يعرفه بشعائر الربة إيزيس ، وميترا وديونيوس ؛ وكذلك نظريات فيثاغورث . ولكنه ، فى نفس الحين كان يعتقد ، من ناحية ، أن الشرق فى حاجة ماسة إلى نظام تشريعى أكثر صلابة وقوة . وهكذا كان يقول لكيلوباترا :

– « إننا لن نستطيع أبداً أن نفرض سيطرتنا على إمبراطورية مترامية الأطراف بدون أن نفرض عليها قوانيننا وأسساً محددة ؛ إن الضرورة تحتم إجراء العديد من التغييرات والإصلاحات » .

وبدأ قيصر العمل على سك عملات ذهبية ذات أوزان محددة . وكان الغرض منها هو إحلالها محل العملات المحلية السائدة . ثم قام ، بعد ذلك ، بتعديل التقويم العام . وهكذا أصبح العام يتضمن ثلاثمائة وخمسه وستين يوماً فى كافة البلاد التى تخضع

لسيطرته ، وكذلك ، أعطى الحق لكل سكان هذه البلاد فى الحصول على الجنسية الرومانية .

ولم يتبق الآن سوى اختتام انتصاراته . وكان قد أسرَّ لصديقه أتيكوس فى إحدى رسائله إليه بتاريخ ٢٨ مايو ٤٥ق.م ، أن الأمر يتطلب ثلاث سنوات من القتال القوي وجيشاً ضخماً .

وكان قيصر يرغب فى الانطلاق من ألبانيا فى فصل الربيع عام ٤٤ ، من أجل مقاتلة الداكيين ، ثم يعبر الأناضول ، ويدحر البارثين ، ولا يتوقف إلا عند أوكسوس . وهكذا تم تعبئة ما لا يقل عن ثمانين ألف جندى . وتمركزت بعض الأساطيل على مقربة من الإسكندرية برودس . وأكد « ميتريدات دى بيرجام » لقيصر أنه يسانده ويقف إلى جانبه .

وبذا ، كانت كليوباترا تؤكد له دائماً :

– « كل ذلك حسن جداً ، ولكنك مازلت فى حاجة إلى لقب ملك . فلقد أكدت الآلهة ذلك : لن يتم دحر البارثيين إلا بقوة بأس أحد الملوك . إن سيطرتك عليهم سوف تكون أكثر قوة وفاعلية إذا أصبحت ملكاً يتمتع بالحق الإلهى » .

وبذا ، فمن أجل إقناع مجلس الشيوخ الذى كان يبدى بعض التحفظ فى هذا الصدد ، عمل قيصر على الانتقام لمقتل كراسوس . وكان يقول :

– « يجب أن تستعيد روما شرفها المهدد . علىَّ أن أقاتل البارثيين وأخضعهم لسيطرتنا ونفوذنا » .

ومن أجل تنفيذ ذلك ، كان عليه أن يصبح ملكاً . فإن لقب إمبراطور لم يكن يبين إلا عن أنه قائد مغوار .

ولاشك أن كليوباترا قد قامت بدور حاسم من خلال التغيرات التى وقعت لقيصر بعد ذلك . فلم تكن روما تبدو فى عينيه بالقدر الكافى من العظمة والأبهة . فلقد أصبح أكثر إعجاباً بالمدن الإغريقية والمصرية التى تتميز تماماً عن شوارع روما القذرة العفنة الرائحة . وربما أنه كان يشعر ببعض الخزى والخجل وهو يستمع إلى كليوباترا وهى تنتقد خشونة وفظاظة الشعب الرومانى . كان بالفعل يضيق من تأخر الرومانيين وجهلهم . فكيف عساهم يرضون بحياتهم هذه ، فى حين أنهم يستطيعون ، لو أرادوا أن يسودوا العالم ؟

وبذا أخذ الناقدون والثالبون ينهالون على قيصر بنقدهم اللاذع المرير ، فيقولون :

– « إن قيصر يريد أن يتبوأ عرش إمبراطورية شاسعة تقع عاصمتها بالإسكندرية » .

أما شيشرون ، فكان يقول متهكماً :

– « لقد أصبح قيصر فائق التباهى ، والتعالى . فهو يطمع فى أن يصدر أوامره للشمس والكواكب من أجل أن تشرق أو تغيب وفقاً لإرادته » .

وشعر الرومانيون أن قائدهم الباسل المتأجج وطنية وحماساً قد تبدل وتغير كثيراً . وغالبا ما كانوا يؤكدون قائلين :

– « كل ذلك بسبب هذه المصرية . لقد غيرته وبدلته هذه المرأة . لقد مارست عليه بعض الطقوس السحرية . لابد أنها قد سقته شراباً سحرياً . وهكذا أصبح يماثلها طموحاً وتطلعاً . لاشك أنها تريد أن تصبح ملكة لروما ، وترى القضاة والمستشارين يركعون تحت قدميها ! » .

وتوالت الأحداث التى عملت على تزايد حدة كراهية أعضاء مجلس الشيوخ وتمرد أفراد الشعب . ولقد نصب تمثال لقيصر من الذهب الخالص ، وهو متوج بتاج الملكية . وبعد ذلك بفترة وجيزة ، أى فى شهر يناير عام ٤٤ ، حضر قيصر احتفالاً بأحد الأعياد وهو يرتدى معطفاً قرمزيا وخفين ذهبيين كرمز للملكية .

وفى الشهر التالى ، وخلال أحد الاحتفالات الكبرى ، تقدم من القيصر شخص يدعى لوسينيوس ، وقدم له إكليلاً من ورق الغار وعصابة من القطن الأبيض بمثابة أحدى رموز الملكية . وتعالت الهتافات بحياة قيصر ؛ وبذا ، تشجع لوسينيوس ، وقام بوضع هذا الإكليل فوق رأس قيصر . وقام أنطونيو ، الذى كان قد حصل لتوه على لقب قنصل ، يحث الشعب على الهتاف لقيصر . وعندئذ ، صعد المحافظ كاسيوس إلى المنصة التى يجلس فوقها قيصر ، وخلع الإكليل عن رأسه .

وسرعان ما رد عليه أنطونيو بإعادة الإكليل ثانية فوق رأس قيصر . ولكن قيصر بحصافته وفطنته لم يبقه فوق رأسه . وقام هذا القائد الرومانى من مقعده ورمى

بالإكليل وسط الجموع الحاشدة . وهنا أبدى أنصاره اعتراضهم الشديد ، فلماذا لايحتفظ قيصر بما يقدمه له الشعب الرومانى ؟ وعندئذ ، قال له أنطونيو وهو يقدم له الإكليل مرة ثانية :

- « هذه المدينة تريد أن تتوجك ملكاً عليها . فلتستجب لها »

وهنا ، تعالت بعض الاعتراضات وصيحات الرفض . ووجد قيصر أن مثل هذا الوضع قد يتحول إلى ثورة . ولذا ، قام من مقعده ووجه عباراته إلى الجماهير المحتشدة أمامه :

- « الأحرى بكم أن تضعوا هذا التاج فوق رأس أحد الآلهة . فهى أولى به » .

وأسر ببضع كلمات فى أذن أنطونيو معبراً عن شكره وامتنانه له ؛ لمحاولته منحه ما كان يأمل فيه منذ رجوعه من الإسكندرية . ولكنه أضاف قائلا له :

- « ولكن وا أسفاه ! يبدو أن اللحظة المناسبة لم تحن بعد » .

ثم وجه كلامه لأحد النواب المختصين بالشئون القضائية :

- « فليكتب على صفحات تاريخ روما ، أن قيصر قد رفض العرض الذى قدمه له شعب روما الذى كان يرغب فى تتويجه ملكاً » .

وعندئذ ، قام أنصار قيصر بأخذ الإكليل ووضعوه فوق رأس تمثال قيصر ، ليس فوق رأس تمثال أحد الآلهة ، وفقا لما طلبه منهم هذا القائد الرومانى .

وبالقطع ، لم ينطل هذا التواضع المصطنع من جانب قيصر علي أعدائه . خاصة أنهم على يقين تام بأنه ، فى حقيقة الأمر ، يرنو بشدة إلى تبوؤ عرش روما . ولمسوا جيداً أن خدعة أنطونيو هذه كان من الممكن نجاحها . وبذا ، وجدوا أن الضرورة تستلزم أن يتصرفوا بسرعة ، من أجل عرقلة خطط قيصر ومشاريعه .

وبدا قيصر وهو يقول لكليوباترا :

- لقد أخفق أنطونيو فى محاولته . وأنا أنوى السفر ، فى خلال بضعة أيام من أجل ملاقاة جيشى ، فعليّ أن أقوم ، فى أسرع وقت ممكن بدعوة مجلس « السينات » (الشيوخ) إلى الاجتماع ، والاهابة بأعضائه لاختيارى ملكاً على البلاد » وكانت كليوباترا تبدى موافقتها التامة على ما يقوله لها . وفى هذا الحين طلب بعض

جواسيس قيصر المثول أمامه . ثم قالوا له :

- « هناك مؤامرة تحاك ضدك . ولقد تواطأ بروتوس مع بقية الخونة . وكاسيوس هو المنظم الأول لهذه المؤامرة » .

وعلى ما يبدو أن قيصر رفض تصديق ذلك . وقاطع جواسيسه قائلا :

- « إن بروتوس لا يستطيع أبدا إلحاق الأذى بأحد . ولكن لايدهشنى أبدا أن كاسيوس يريد النيل منى ، فإن ما اقترفه من أعمال سابقة يؤكد لى ذلك . أنه لا يحبنى أبداً . ولكن بروتوس ، يتسم بلين الجانب وطيب الطبع ، وعارف للجميل ! .. فبفضلى أصبح بروتوس حاكما لسيسالبين ووالياً مدنياً » .

ولكن جواسيسه أجمعوا قائلين :

- « إن بروتوس ، يجيد تماماً كيفية إخفاء ألاعيبه وخططه . أنه يتصف بالحقد والغيرة . إنه يمقت النظام الملكى ، ولن يسامحك أبداً لمحاولتك أن تصبح ملكاً » .

- « ولكننى كنت أكن تقديراً كبيراً لأمه . وهو يعرف ذلك جيداً . فكيف عساه ينسى أن أباه المسكين جونيوس بروتوس ، قد قتل بيد بومبى نفسه ، فالأحرى به أن يشكرنى لأننى قد أخذت بثأر أبيه » .

- « ولكن لا تنس ياقيصر ، أن بروتوس قد تزوج « بورسيا » ابنه كاتون الجمهورى ، وأن جده الأول « ماركوس » قد قام بتدمير منطقة « تاركين» !

- « إذا كان بروتوس لا يوافقنى على ما أفعله وأريده ، فليقل لى ذلك صراحة :

بعد حضور جلسات « السينات » التى أرأسها . ولن أصدق أبداً أنه قد ينالنى بسوء !».

فأجابه جواسيسه قائلين :

- « إنك مخطئ فى ظنك هذا ، ياقيصر . إن هؤلاء المتآمرين يرون أن الموت هو العقوبة المثلى التى تستحقها ؛ وأن « المصرية » قد استطاعت أن تقتنصك فى شباكها . وروما قد فقدتك تماما بسببها ! » .

وأخذ قيصر يفكر ملياً بضع لحظات . ثم التفت نحو أصدقائه قائلاً :

– « حقا لا أستطيع أن أصدق ذلك مطلقا !.. لا ليس بروتوس هو الذى يفعل ذلك . وحقيقة ، إنه يبدى أحياناً بعض التردد فى كثير من الأمور ؛ ولكنه ، حالما يتخذ قراره ، فإنه يمضى مباشرة إلى هدفه » .

وفى واقع الأمر ، أن ما لا يقل عن ستين مواطناً رومانيا كانوا يقومون بتدبير اغتيال قيصر . واتفقوا علي أن يقوم ثلاثة وعشرون منهم بطعنه بالخناجر قبيل افتتاح جلسه « السينات » . ولاشك أن هذه المجموعة كانت تتضمن بعض أنصار «بومبى» السابقين ، وبعض أصدقاء قيصر ، الذين أصابهم اليأس وخيبة الأمل لوقوعه تحت سيطرة كليوباترا ؛ وأيضاً بعض الطموحين والحاقدين .

وعند انفراد قيصر بكليوباترا فى نهاية اليوم ، أسر إليها بمخاوفه وقلقه قائلاً : « لا أظن أبداً أن هناك مؤامرة . ولكنى لا أعتقد أن الشعب يفهم جيداً الهدف من وراء محاربة البارثيين . إن الرومانيين لايريدون هذه الحرب ، ولايرون أنها ذات نفع أو فائدة . ولكن ، من المؤكد أنني لو خسرت هذه الحرب ، فإن روما قد تفنى تماماً من فوق سطح الأرض . أما إذا كسبتها ، وحققت النصر ، فسيكون لزاماً على الرومانيين أن يقبلوا مبدأ الاتحاد بين الشرق والغرب . ولكنهم غير مستعدين لتقبل ذلك » .

وهنا بدأت كليوباترا تتيقن بأن قيصر سيصبح ملكاً . لا شك فى ذلك مطلقا . ولا لزوم ، أبداً لشكوكه هذه . إنه الوحيد القادر على حكم روما .

وفى عشيه يوم ١٥ مارس ، قام كاسيوس وشركاؤه بإعادة تمثيل المشهد الذى سوف يتم فى اليوم التالى ؛ واتفق هؤلاء المتآمرون على اللقاء فى مكان قريب من مقر المنصة القائمة بالميدان ؛ ولكن بمنأى من الجموع الحاشدة . وقال كاسيوس لهم :

– « إن الضرورة تحتم ، بكل السبل ، منع أنطونيو من الاقتراب غداً من قيصر . وسوف يعمل كرينونيدس علي إبعاده عن مكان « الديكتاتور » . وعندئذ ، سوف يتقدم توليوس سيمبر من قيصر فور حضوره إلى مقر مجلس الشيوخ ، ويستعطفه من أجل العفو عن أخيه المقيم فى المنفى . وبذا ، فسوف يتشبث فى ذيل عباءته . وفى نفس هذه اللحظة ، سيقوم « كاسكا » بتوجيه الطعنة الأولى بخنجرة إلى صدر قيصر ؛ وفى نفس الوقت ، يعمل بقية أصدقائه الجالسين فوق السلالم المؤدية إلى مقر المجلس على عرقلة وصول أنصار قيصر إليه لنجدته . إن فعالية خطتنا ونجاحها ، تعتمد ، فى المقام الأول ، على سرعة الإنجاز . فلا يجب أن تسنح الفرصة مطلقاً لرجال قيصر للوصول إليه والدفا ع عنه » .

وربما أن قيصر ، فى قرارة نفسه ، كان يستشعر مؤامرتهم هذه . فقد أمضى ليلته هذه فى أرق وقلق واضطراب . بل لقد تراءت لزوجته كالبورنى وهى نائمة بعض الأحلام المزعجة المنذرة بالشؤم . ولذا ، سارعت ، إلى قيصر وهى ملتاعة ومضطربة ، لتقول له :

- « لا تذهب اليوم إلى « السينات » . لقد تراءت لى الليلة بعض الأحلام المزعجة التى تنذر باغتيالك ! » .

واعترت قيصر دهشة بالغة ، وهو يرى مدى اضطراب زوجته وهلعها . ولذا ، عمل على سؤال بعض المنجمين بخصوص أحلامها هذه . وكان ردهم حاسماً قاطعاً : قيصر لايجب مطلقاً أن يذهب اليوم إلى مجلس « السينات » . وفى هذه اللحظة ، حضر بروتوس وقال لقيصر الذى أخبره عن مخاوف كالبورنى وهواجسها :

- « كيف ؟! .. هل ستقوم بإلغاء هذه الجلسة الفائقة الأهمية ، لمجرد أن زوجتك ، قد تراءت لها بعض الأحلام المزعجة ؟!» .

- « ألا تعرف أن الرومان يؤمنون بما توحيه الآلهة إليهم ؟ » .

- « قطعاً . ولكن الأمر اليوم يبدو على درجة قصوى من الأهمية بالنسبة لك . فعندما يعرف أعضاء مجلس « السينات » . أنك قد أصغيت واستسلمت لمخاوف زوجتك وهواجسها ، وتخليت عن توليك العرش ، سوف يجعلونك أضحوكه روما . ألا يكفى ما يشيعونه عنك ، من أنك تطيع كل ما تأمرك به كليوباترا ؟! ربما يستطيع المرء الإنصات إلى امرأة واحدة . ولكن ، من المستحيل إطاعة امرأتين معا» .

وعندئذ ، قال قيصر لزوجته « كالبورنى » ولمجموعة المنجمين الحاضرين معه :

- « إن بروتوس على حق . لن أستطيع التراجع أبدا» .

وهكذا استقل « الديكتاتور » عربته التى أقلته إلى مقر مجلس « السينات» . وهناك ، استقبله كاهن عراف من أجل أن يحيطه علما بما تكشف له من تكهنات . وبالفعل ، حذره هذا الكاهن مما يمكن أن يحدث فى هذا اليوم . فعلى ما يبدو أن مارس (إله الحرب) كان يشحذ سلاحه . والأمور لا تنبئ مطلقاً بأى خير . وعندئذ ، أجابه قيصر متحدياً بالرغم مما انتابه من قلق طفيف :

- « دعك من ذلك ! .. إن الآلهة تمد لى دائماً يد المساعدة ! »

وكانت الساعة الحادية عشر تماماً ، عندما هم قيصر بدخول مقر « السينات » ووقف جميع السيناتورات الحاضرين احتراماً وتكريما له . وكما هو متفق عليه ، تقدم « سيمبر» من قيصر وأخذ يستعطفه ويتشبث بعباءته . ويبدو أن قيصر قد انتابه بعض الضيق من إلحاحه الشديد فى تلك اللحظة الماسة . وقال له : « ليس هذا المكان المناسب ولا اللحظة المناسبة لطلبك هذا » .

ولكن سرعان ما أحاط المتآمرون مع كاسيوس بالديكتاتور الرومانى ، وهم يتصنعون استرجاءه هم أيضاً من أجل قبول تضرعات سيمبر المفتعلة . ووجه له كاسكا طعنة نافذة فى ظهره . وطعنه كاسيوس طعنه فى وجهه . وأصيب السيناتورات بالذهول لما يرونه أمامهم . وعندئذ ، أخذ جميع المتآمرين ينهالون بطعناتهم المتلاحقة على جسد « الديكتاتور » ولقد حاول قيصر أن يدافع عن نفسه لإنقاذ حياته من جلاديه . ولكن ، هيهات . فقد كانوا يحيطون به من كل جانب . ولكنه ، فى اللحظة التى تبين فيها أن صديقة بروتوس كان ضمن قاتليه ، أمسك بطرف عباءته القرمزية وغطى بها وجهه . وأنهار صريعا على الأرض . وعلى ما يبدو أن القتلة كان قد انتابهم سعار وهياج القتل وسفك الدماء ، فأصيبوا هم أنفسهم بطعنات خناجرهم وهم يسددونها اليه . وفى نهاية الأمر ، قاموا بسحب جثمان قيصر إلى جوار قاعدة تمثال بومبى .

لقد اغتيل قيصر بما لايقل عن ثلاث وعشرين طعنة خنجر . وعندما استعاد السيناتورات رباطة جأشهم ، فى نهاية الأمر ، غادروا مقاعدهم ، وخرجوا لطلب النجدة ولكن القتلة كانوا قد ولوا الأدبار .

وطوال هذا اليوم ، استمرت جموع الرومانيين تمر أمام جثمان قيصر المسجى على الأرض ، المغطى بعباءته الملطخة بالدماء . ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منه . وعندما أرخى الليل سدوله ، توجه بعض الخدم والعبيد ، من أجل نقل جثة سيدهم إلى قصره .

وعلى ما يبدو ، أن قتلة قيصر قد استطاعوا أن يفروا هاربين . وتفجرت الثورة العارمة بين جموع الشعب الرومانى . وحقيقة أن الكثير من الرومانيين قد لزموا منازلهم ولم يغادروها ، ولكن ، توافدت جموع حاشدة إلى مكان الجريمة . وأرتفع

نحيب النساء وعويلهن ، منذرا بأن روما سوف تواجه وقتاً عصيباً . وتعالت صيحات الرومانيين :

- « يجب معاقبة القتلة ! » .

ويبدو أن القتلة وقد انتابهم الفزع الشديد ، قد سارعوا بالاحتماء بمصاحبة بعض الجلادياتور (مصارعين) فوق هضبة الكابيتول . بل أن أنصار قيصر كانوا يتوجسون خيفة من رد فعل الجماهير كنتيجة حتمية لهذا الحادث . وأخذوا يتساءلون في قلق بالغ : هل سيقف الشعب الروماني في جانب قيصر الذي اغتيل ، أم في جانب القتلة ؟

وبدأ المواطنون الرومانيون يتيقنون بأن السماء تنذر بما لاتحمد عواقبه . فإن اغتيال قيصر هو كارثة فعلية . ولكن ، بالرغم من ذلك ، كان هناك من يود الاستفادة من هذا الموقف . إنه شيشرون . فلقد سارع إلى تحرير رسالة إلى صديقه مينسيوس باسيلوس قائلا : « إنني أشعر بالبهجة والسعادة » . فربما أنه كان يعتقد أن السيناتورات سوف يقومون عندئذ بانتخابه رئيساً للجمهورية . ولكن أنطونيو صديق قيصر كان يراقب كل شئ . فخلال جلسه « السينات» التي أعقبت حادث اغتيال قيصر ، أكد أنطونيو قائلا :

- « يجب أن تقام جنازة عظمى جديره بقيصر . وأن يلقى القتلة عقابهم على ما اقترفته أيديهم ! » .

ومع ذلك ، فلم يكن جميع أعضاء مجلس الشيوخ يشاركونه الرأي . وبالرغم من تعدد المعارضات ، فقد استطاع أنطونيو أن يصل لهدفه ، وذهب إلى كليوباترا ؛ من أجل أن يعطيها تقريراً مفصلاً عن الوضع القائم وقتئذ . فإنها منذ مقتل قيصر ، انزوت متقوقعة على أحزانها وآلامها . إنها في حقيقة الأمر لم تكن تعرف تماماً ، هل هي حزينة على قيصر أم على تلك الإمبراطورية التي كانت تحلم بتبوئها ، أم على هذا الحلم الذي تحول حينئذ إلى مجرد وهم كبير ؟

وقال لها أنطونيو :

- « لقد أقنعت أعضاء مجلس الشيوخ بضرورة تكريم قيصر ؛ فإنه جدير بذلك . ولكنني استشعرت بعض الكراهية تجاهه من ناحية البعض منهم . لقد طلب مني

قيصر أن أقوم على حمايتك . ومن واجبى أن أخبرك ، بأن حياتك معرضة للخطر ، فى روما ، منذ هذه اللحظة » .

وشكرته كليوباترا على وفائه وإخلاصه .

وبعد مضى بضعة أيام ، أقيمت المراسم الخاصة بجنازة قيصر . وقامت فرق عسكرية بمرافقة جثمانه حتى منطقة « روستر » . وهناك ، تم وضع جسد قيصر فوق منصة كبرى . ثم قام أنطونيو بإلقاء كلمة مديح وثناء جنازي من أجله . وخلال كلمته هذه ، كان أنطونيو على يقين ، بأنه لا يعدد انتصارات وإنجازات قيصر فحسب ، بل يحدد أساساً ، ما سوف يكون عليه مصير روما مستقبلاً .

وبذا ، فقد أخذ أنطونيو يطنب فى تعديد انتصارات قيصر الحربية ، وهو ينظر دائماً إلى جسده المسجى فوق الأرض تحت قدميه . ثم قال للجموع الحاشدة :

– « وأنتم أيها الرومان ، لقد أقسمتم من قبل أنكم سوف تدافعون عن حياه قيصر ؛ وستنالون ممن يمسونه بسوء . وأنا ، سأكون أول من يفى بعهده نحوه ! »
ولاحظ أنطونيو أن أعضاء مجلس الشيوخ (السينات) لايميلون كثيراً إلى الموافقة على ما يقوله ؛ خاصة أنهم بدوا عاجزين تماماً عن إنقاذ قيصر من قاتليه . وبذا ، سارع أنطونيو إلى دعوة أفراد الشعب المتجمهرين أمامه ، إلى مرافقته إلى مكان كومة الحطب الذى سوف يحرق فيها جثمان الديكتاتور الرومانى . ولكنه ، قام ، فى لحظة نزوله درجات المنصة ، بالركوع أمام جثمان قيصر ، ثم أضاف متمتماً ببضع عبارات تنم عن حزنه وأساه البالغ وأخذ يئن ، وينتحب ، ويتأوه ، ويعدد أسماء البلاد التى غزاها قيصر وانتصر عليها . ثم قال بصوت عال :

– « كان طيب القلب ، فائق الكرم والسماحة ، قوى البأس ، شجاعاً جسوراً» .

ثم أخذ أنطونيو العباءة القرمزية التى كانت تغطى جثمان قيصر ، وبسطها أمام عيون الجموع الحاشدة . وصرخ قائلاً :

– « هل ترون كيف تمزقت عباءته بسبب طعنات الخناجر التى سددت إلى جسده ؟!».

وعندئذ ، تعالت ترانيم الحزن والأسى من كافة أنحاء المكان . ثم قام أنطونيو بالإمساك بتمثال خشبى ، وأخذ يحركه فوق المنصة . وكان هذا الشكل يتطابق مع سمات وملامح قيصر !

وسارع أفراد الشعب نحوه وهم يصيحون :

- « سوف يحرق جثمان قيصر أمام معبد « جوبيتر » .

ولكن ، فى نفس هذه اللحظة تقدم عدد كبير من جنود قيصر السابقين نحو المنصة . وقالوا ، وهم يحملون شعلات نارية :

- « بل إن قيصر سوف يحرق هنا ! » .

وهنا ، قام أفراد الشعب بتحطيم المنصة ، من أجل تحويلها إلى مادة للاشتعال ، بل إن البعض منهم قد سارع إلى ساحة مقر « السينات » من أجل الحصول على بعض الألواح الخشبية أو قطع الأثاث الخشبى . واستولوا على منابر القضاة . وحطموا بعض المتاجر للاستيلاء على ألواحها الخشبية . وأخذت النساء يلقين بمجوهراتهن فى كومة الأخشاب المشتعلة ؛ بالإضافة إلى مصوغاتهن وتمائمهن السحرية المقدسة التى كانت تعلق على صدور أطفالهن . وقام الرجال أيضاً ، بإلقاء أسلحتهم ونياشينهم وقلاداتهم فى هذه النيران المتاججة . وأخذت جموع الشعب تطلق أغانيها وصيحاتها ؛ وفى نفس الوقت ، أخذت ألسنة النيران الضخمة المستعرة تلتهم جثمان من كان فى يوم من الأيام سيداً على روما بأكملها .

وفى أحد قصور قيصر ، كانت كليوباترا ، تتساءل فى قلق . كانت تود أن تعرف عما إذا كان أنطونيو قد وصل إلى هدفه أم لا . وفجأة ، شاهدت الملكة دخانا أسوداً كثيفاً يتصاعد نحو السماء . فماذا عساها تستطيع أن تفعل الآن ؟ .. هل تسارع إلى الهرب ؟ أم تراها يجب أن تنتظر قدوم أنطونيو . إنها تشعر الآن ، بمسئوليتها إلى حد ما ، عن مقتل قيصر وأخذت تحدث نفسها قائلة :

- « إن عدم فهمى ومعرفتى للرومانيين ، قد تسبب فى مصرع الرجل الذى كنت أحبه . هذا الرجل الذى كان يستطيع أن يقف دائما بجانبى ويساعدنى . والآن ، ماذا سيكون مصيرى ؟ ... بل بالأحرى ، كيف سيكون مصير مصر ؟» .

ولكن ، يبدو أن أوان عدم التيقن قد فات وانتهى . فها هى الانتقادات وعبارات اللوم قد انتشرت فى كافة أنحاء روما . بل ووصلت إلى الملكة بعض أصدائها .

وفى تلك اللحظة ، وصل إليهاأنطونيو مسرعاً :

– « هيا ، أسرعي . ففي خلال وقت وجيز جداً سوف يصل الرومانيون هنا ، ويحطمون هذه الأبواب أنهم يريدون أن يثأروا منك لمصرع قيصر ! » .

والمرة الثانية ، وجهت كليوباترا شكرها لأنطونيو لمساعدته لها . وأسرعت بجمع وصيفاتها وخادماتها . واستقلت إحدى المراكب النهرية البسيطة . ولكن أنطونيو ، أسرع نحوها وهو يقول لها :

– « بدون ريب سوف تلقين حتفك لو سافرت بهذه المركب الضئيلة المضمحلة بل ربما ، قد يكتشف أمرك سريعاً » ..

وعندئذ ، سألته كليوباترا مندهشة إلى حد ما عما يدفعه إلى مساعدتها والوقوف بجانبها بمثل هذه الكيفية !

– « لماذا تحاول مساعدتي ؟ ... وكنت أعتقد أنك ربما ناقم عليّ لتسببي في مقتل قيصر ؟».

وهنا ، لم يستطيع أنطونيو كبت مشاعره نحوها . وباح لها بما يكنه لها قلبه . ولا ريب مطلقاً ، أنه لم يكن ليسمح لنفسه مطلقاً ، قبل مقتل قيصر ، بأن يرنو إليها بنظرة واحدة من عينيه ، ولكنه الآن ، يستطيع أن يعبر لها عن حبه الدفين .

ولم ترد عليه كليوباترا بكلمة واحدة . واستقلت مركبها في طريقها إلى الإسكندرية . وخلال رحلتها النهرية هذه ، أخذت تستعيد في ذاكرتها يوم وصولها إلى روما منتصرة ظافرة ، وسط مظاهر التعظيم والإجلال .

أنطونيو
و
كليوباترا

خلال رحلة العودة إلى وطنها ، لم تدع كليوباترا الإحباط يستولى عليها . فلقد ذرفت الدموع مدراراً ، خلال بضعة أيام ، حزناً على قيصر . ولكن سرعان ماتغلب طموحها على أحزانها .

وبدت كليوباترا جالسة فوق سطح المركب التى كانت تنساب ، مواصلة رحلتها على مياه البحر الأبيض المتوسط . وأخذت تستمع إلى الأنغام الموسيقية التى يعزفها من أجلها بعض الموسيقيين ، وتتنسم النسيم الدافئ الذى كان يداعب قسمات وجهها الرقيقة . وأخذت تحدث نفسها قائلة : « لا . إن ملكة مصر لم تفقد أبدا سلطتها ونفوذها . فلدى ابني قيصرون ، وكذلك الكتائب الرومانية التابعة لقيصر التى مازالت تعسكر بالإسكندرية ، بالإضافة إلى أنطونيو الذى يتحرق شوقاً لمساعدتى والوقوف إلى جانبى ، وكذلك كل ماأملكه من ثروات وكنوز . وماذا يستطيع أن يفعله أى حاكم رومانى أمام ثراء مصر الشاسع ؟ إن قيصرون يعتبر حاليا ابناً لأحد الآلهة ؛ لأن أباه قيصر يتألق حاليا فى السماء فى وسط النجوم والكواكب الأخرى . ألم تظهر ، حالياً نجمة جديدة فى كبد السماء . ألم يُلاحَظ ، أن الشمس منذ وفاة قيصر ، قد شابتها بعض الغيوم بسبب ظهور هذه النجمة الجديدة ؟ » .

ولاحظت أحدى وصيفاتها المقربات أنها ساهمة بعض الشئ ، فاقتربت منها وسألتها عما إذا كانت ترغب فى أى شئ . فأجابتها كليوباترا بصوتها الرخيم :

« لا . لا أريد شيئا . لقد تحسنت كثيراً الآن . فبالنسبة لملكة مصر ، لم تحن النهاية بعد » .

ولكنها عادت تحدث نفسها قائلة :

« وماذا عساى فاعلة بأخى بطلميوس ؟ ... إننى لا أريده أن يدخل مجال المنافسة مع قيصرون . وبذا ، فحالما أرجع إلى الإسكندرية ، سوف أكوِّن وحدة مع ابنى . وسأعمل على أن يمثل فى هيئة الفرعون بجانبى فوق جدران معبد دندرة . وبذا فسوف

أطلب من الفنان المختص ، أن يضفى على ملامحى سمات وملامح الإلهة حتحور وسيصبح قيصرون هو بلطميوس الرابع عشر . ولكن ، أخى ، ماذا عساه سيصبح ؟ ».

وسرعان ما أخذت الأفكار القاتمة السوداء تتلاحق فى مخيلتها المفعمة طموحاً وتطلعا . وقالت لنفسها : « إن قيصر لم يحسب أى حساب لقيصرون فى وصيته . أو ربما أن زوجته «كالبورنى» قد تخلصت من الوصية التى كان قيصر قد أعدها من أجل قيصرون . وبذا ، فسوف أتولى أمر تدعيم موقف قيصرون أمام العالم أجمع » . وبذا ، فإن أخاها بطلميوس الذى قد يجنح ، فى يوم من الأيام ، إلى منافسة ابنها قيصرون ، يجب أن يمحى من الوجود . وستهتم بتنفيذ هذا الأمر ، فور وصولها إلى الإسكندرية (١) .

وفجأة تبينت أنها أخذت تفكر فى أنطونيو . وقالت متسائلة : « ربما أن قيصر قد طالب فى وصيته بأن يتبوأ ابن أخيه وابنه بالتبنى أوكتافيوس منصبه بعد مماته . ولكنها كانت ترى أن أنطونيو يحتل مكانة مرموقة فى قلوب الرومانيين ؛ ويتميز عنه . وأضافت هامسة : « إن أنطونيو يفوقه فى سلطته ونفوذه . وسيعرف كيف يفرض نفسه على روما » .

وعندئذ أخذت ، تتخيل فى ذاكرتها هذا الرجل الوسيم المشوق القوام ، البادى القوة والصلابة . إن شعره المجعد الأسود ، وقسمات وجهه الجميلة المتناسقة ، وقوامه المشوق ، وعيناه البراقتين بالذكاء ، وابتسامته العذبة الرقيقة ، كل ذلك قد أثار إعجابها واستولى على مشاعرها . وهى تعرف جيدا أن النساء يقعن أسيرات جاذبيته ووسامته وجسارته هذه . بل هو قادر على تحمل المهام الشاقة ، ويتسم بالشجاعة والإقدام ، ويتمتع بشعبية كبيرة . وقد عرف عنه أنه يحسن معاملة جنوده إلى أقصى درجة ؛ ويجيد تدريبهم وتأهيلهم وتشجيعهم على خوض القتال . وأخذت كليوباترا تحدث نفسها قائلة : « لقد كان قيصر يعتبره بمثابة أفضل ضباطه وأكثرهم وفاء وإخلاصاً . وأنا أشارك قيصر الرأى : إنه أفضل الجميع إطلاقاً . بل إن الرومانيين يعتبرونه بمثابة الحاكم المقبل لروما . وقد يقول البعض إنه يميل بعض الشئ إلى المجون والعربدة . ولكن هذا لا يهم » .

---

(١) بطلميوس ربما كان قد رجع هو أيضا إلى الإسكندرية مع كليوباترا ، وفقا لما تذكره النصوص (البهنسا) الصادرة فى ٢٦ يوليو عام ٤٤ ق.م. ويؤكد المؤرخان بورخارت وجوزيف ، أن كليوباترا قد قضت عليه بالسم لحماية ابنها .

حالما وصلت مركب كليوباترا إلى المياه المصرية ، انطلقت إحدى السفن الملكية الفاخرة ، الجديرة بملكة مصر ، من أجل استقبالها ونقلها إلى قصرها فى «لوشياس» وسرعان ماتوردت وجنتاها ثانيةً ، وأخذت ابتسامتها الرقيقة المعهودة تداعب شفتيها من جديد . بل واستعادت كليوباترا ثانيةً ثقتها فى مستقبل مشرق .

* * *

بعد ذلك ، لم تجد كليوباترا صعوبة تذكر فى محاولتها إشراك ابنها قيصرون فى الحكم معها . وتبين بعض الكتابات المحفورة فوق إحدى لوحات الفيوم التى كرست للإله التمساح ، الجد الأول لقيصرون ، وإحدى لوحات «تورين» ، عن مدى التبجيل والتأليه من جانب المصريين لكليوباترا ولابنها قيصرون .

وفى قصرها الملكى ، كانت كليوباترا تتلقى ، دائما وبشكل منتظم تقارير وافية عما يجرى فى روما من أحداث . وضمن ماوصلها من معلومــات ، عــرفت كليوباترا أن أنطونيو يحاول الاتفاق مع أوكتافيوس من أجل الأخذ بثأر قيصر . ولكن ، على مايبدو ، أن الاثنين لايتفقان فى أغلب الأحوال .

وعن الكتائب الرومانية ، التى كانت تعسكر من قبل فى مصر ، فلقد انطلقت إلى آسيا من أجل ملاقاة القائد «دولابيلا» وهو أحد الموالين لقيصر ؛ ولكنها سرعان ما انحازت إلى جانب «كاسيوس» . ووقتئذ ، اضطر كل من أنطونيو وأوكتافيوس أن ينحيا تعارضهما وخلافاتهما جانبا ؛ وانطلقا معا من أجل مجابهة بروتوس فى مقدونيا ولقد لقى كاسيوس مصرعه فى ساحة القتال فى العام ٤٢ ق.م . أما بروتوس ، فقد أنهى حياته منتحرا .

بعد ذلك ، قام مجلس الشيوخ «السينات» الرومانى بتكوين مايسمى بحكومة الثلاثة Trimuirat . وقد تكونت من : أنطونيو ، وأوكتافيوس ، وأحد القادة السابقين فى جيش قيصر ، ويدعى «ليبيد» . والجدير بالذكر أن أوكتافيوس هذا لم يكن يماثل أنطونيو أبدا فى قوته الجسمانية وشدة بأسه وكان لايتمتع بأية شعبية ولايجيد فن الخطابة وبلاغتها . ولايميل الجنود الرومان إليه كثيراً . ولقد أوكلت إلى أوكتافيوس المهام الخاصة بالغرب . واستدعى للرجوع إلى روما . وعن أنطونيو فقد أسند إليه

القيام بشئون المشرق . وفي حقيقة الأمر . أن أنطونيو لم يكن يميل كثيرا إلى تولى مقاليد حكم الدولة ؛ ولكنه كان يفضل كثيرا خوض ساحات القتال والمعارك الحربية حيث يتألق ويصول ويجول . بل إنه كان يشعر بالسأم والملل من المشاكل والمسائل العويصة المتشابكة . ولايجيد البت فى القرارات نهائيا . ويفضل الابتعاد عن كرسى الحكم .

وفى نهاية الأمر . استقر أنطونيو فى مدينة تارس عاصمة صقلية ولقد انتابته دهشة بالغة ؛ لأن كليوباترا لم تبعث له بتهانيها لانتصاره على كاسيوس . ولذا ، فقد بعث إليها بمراسل خاص ، هو المؤرخ «دليوس» ، من أجل استدعائها للحضور إلى تارس .

أما عن كليوباترا ، فقد راعت من ناحيتها ، ألا تنحاز إلى جانب واحد دون الآخر من أصدقاء قيصر السابقين . ولكنها ، بالرغم من ذلك ، وجدت أن الفرصة مواتية للالتقاء بأنطونيو الشجاع المتألق . ولكنها ، مع ذلك ، حاولت ألا تجعله يعتقد أنها هرولت مسرعة للقائه حالما أصدر أوامره بذلك . وبذا ، فقد أبدت شيئا من الرزانة وعدم الاندفاع . وأخذت تحدث نفسها قائلة :

« إن أنطونيو يجرؤ على استدعائى ، وفى نفس الحين يتحالف مع أوكتافيوس . ولكن أوكتافيوس هذا ابن قيصر بالتبنى ، لايعتبر بمثابة تهديد لقيصرون . بل إن أنطونيو قد أمر بأن يكون قيصرون هو الوريث الشرعى لقيصر » .

وأخذت الملكة تحلل الموقف تحليلا دقيقا . إنها إذا فكرت فى الاستعانة بجنود أنطونيو ، فلا شك مطلقاً أن هذا القائد الرومانى لن يقدم خدماته مجانا . ومصر تملك ثروات هائلة . كما أن هناك ميزة أخرى ، ألا وهى : أن الملكة تعرف جيدا أخلاقيات أنطونيو ، فحقيقة أنه شجاع جسور وطيب القلب ، ولكنه يميل إلى الرفاهية والأبهة . إنه يهوى المديح والإطراء . فلقد أثلج صدره كثيراً الاستقبال الذى استقبل به فى اليونان وكأنه أحد الآلهة ؛ بل لقد شُبه أيضا بـ «ديونيسوس» . وأضافت كليوباترا وهى تحدث نفسها : لقد لقى كل من «بروتوس» و «كاسيوس» مصرعهما . والإنسان الوحيد الذى يستطيع مجابهة أوكتافيوس هو أنطونيو . ولاريب مطلقا أن أوكتافيوس هو العائق الفعلى الذى يحول بين قيصرون وعرش روما » .

وفى نهاية الأمر ، وبعد أن انتاب «دليوس» مبعوث أنطونيو بعض القلق والحيرة ، أجابته كليوباترا قائلة :

« سوف أذهب إلى تارس وسط مظاهر الإجلال والتكريم اللائقة بمكانتى ! » .

وهنا ، تنفس «دليوس» الصعداء . فلا يهم مطلقاً الأسلوب الذى سوف تصل به ملكة مصر إلى صقلية . المهم أنه قد قام بالمهمة التى أوكلت إليه : سوف يلتقى أنطونيو بكليوباترا .

وأخذت كليوباترا تعد لهذا اللقاء فى دقة متناهية . فمن خلاله سوف يتحدد مصير مصر ومصير ابنها قيصرون أيضاً . إنها تعرف جيدا أن أنطونيو شغوف للغاية بمظاهر الأبهة والفخامة والمتع . إذن ، فسوف تغدقها عليه ، بشكل لم يكن يتوقعه أبدا .

* * *

وخرجت كليوباترا من الإسكندرية فى موكب يفوق الوصف والخيال . وسرعان ماوصلت بسفينتها إلى مصب نهر سيدنوس . وتابعت رحلتها ، فى سلام حتى وصلت إلى عاصمة صقلية . وتجمهر أفراد الشعب عند ميناء المدينة وقد انبهروا بروعة وفخامة موكب الملكة المصرية المهيب . ومثلها مثل الإلهة أفروديت ، أحاطت كليوباترا نفسها بمجموعة من «الكيوبيد» . وبدت وهى جالسة تحت قبة من الذهب الخالص . وفى نفس الوقت ، كانت مجموعة من الشابات الجميلات ، وقد اتّشحن بأوشحة قرمزية اللون ، يقمن بالتجديف على أنغام الفلوت والقيثار . وقام ثلاثة من الملاحين بمهمة توجيه السفينة والسيطرة على دفتها .

فى بداية الأمر ، وقف أفراد الشعب مشدوهين إعجاباً وانبهاراً بما يرونه . ولكنهم ، بعد ذلك ، أخذوا يطلقون هتافاتهم لتحية الملكة المصرية . كانوا ينظرون بإعجاب بالغ لتلك المجاديف المصنوعة من الفضة الخالصة ، والأشرعة الفارعة القرمزية اللون ، ومجموعة «الكيوبيد» ، الذين يحيطون بعرش الملكة الذهبى ويروحون لها بواسطة ريش النعام الضخم المبرقش .

وحالما علم أنطونيو بوصول كليوباترا ، أرسل إليها بأحد الضباط ليبلغها دعوته إياها إلى تناول العشاء معه . ولكنها أجابته بأنها هى التى تدعوه إلى زيارتها فى سفينتها . واضطر أنطونيو أن يقبل دعوتها هذه . ولكن ، بعد ذلك سرعان ما زال تردده ، وحل مكانه شعور غامر بالمتعة والبهجة بصحبة كليوباترا .

وتم استقبال أنطونيو هو وبعض كبار القوم على ظهر سفينة الملكة المصرية . وحينئذ ، شعر أنطونيو وكأنه قد سحر ، سواء بأنغام الموسيقى الحالمة ، أو بأريج البخور السحرى المسكر للحواس ، الذى يتصاعد من المباخر المتناثرة فى كل مكان ، أو بالمأدبة الفاخرة المتضمنة لألذ المأكولات وأشهاها . بل لقد سهى عليه أن يتحدث مع كليوباترا فى الموضوع الذى كان يشغل باله .

بدا ضيوف كليوباترا وهم جالسون فى استرخاء وراحة تامة فى حجرة زينتها الطنافس القرمزية اللون ، وأرائك مزركشة بديعة . وأخذ الخدم ، يضعون أمامهم ، فوق بعض المناضد المنخفضة ، أدوات المائدة المصنوعة من الذهب الخالص ، والأطباق المطعمة المتلألئة بالأحجار النفيسة ، والكؤوس البراقة المترعة بأجود الخمور . وفرشت الأرض بأكملها ببراعم الزهور العطرية الفواحة . وبدا المكان بأكمله وكأنه حلم من الأحلام أو الإبدا ع الرائع . وأفعم أنطونيو إعجابا وانبهارا بكل هذه الروعة والفخامة . بل إنه فى فجر اليوم التالى ، وهو يغادر سفينة الملكة بصحبة رجاله ، لم يكن على يقين من أن مارآه فى اليوم السابق من سعادة وبهجة ، يتصل بالواقع أم بالخيال .

وهكذا حققت كليوباترا أول انتصاراتها أمام أنطونيو . ولذا ، فقد سارعت ، فى اليوم التالى إلى توجيه دعوتها إليه مرة ثانية . ولقد بلغت فخامة وأبهة المأدبة فى هذا اليوم درجة لايكاد يتصورها العقل ؛ بل ولم يعد ضيوفها يتذكرون مارأوه فى اليوم السابق . وأخذت الملكة توزع هدايا قيمة على جميع مدعويها . وأخبرتهم ، أنهم يستطيعون أن يأخذوا معهم الأرائك الذهبية المزخرفة التى استرخوا عليها بعد العشاء ، وكذلك الكؤوس الفاخرة التى احتسوا فيها النبيذ ، والجرار البديعة الشكل بكل حمالاتها ومستلزماتها . بل لقد قدمت الملكة للكثيرين منهم بعض الجياد والسروج الذهبية .

وهنا ، قال لها أنطونيو وهو ينصرف :

« عليّ الدور الآن أن أقدم مايماثل كل هذه العظمة والفخامة » .

وحقيقة أن القائد الرومانى قد بذل أقصى مافى وسعه من أجل إعداد مأدبة تماثل مأدبة الملكة فى روعتها وبهائها ، ولكن لسوء الحظ لم يوفق فى ذلك . ولم يسعه سوى أن يقول متأسياً :

« لست سوى جندى سوقى وأخرق من عامة الشعب » .

وعلى مايبدو أن أنطونيو لم يعرف حتى ذلك الحين سوى نساء أقل منزلة وقدراً من كليوباترا . فعلى سبيل المثال ، كانت زوجته الأولى ابنة لأحد العبيد المعتقين . أما زوجته الثانية ، الجميلة «فولفى» ، فهى من أسرة متوسطة الحال . وعن مغامراته الغرامية ، فكانت بطلاتها ، على مايبدو ، بعض عاهرات حوارى روما وأزقتها .

وحتى لاتفقده اتجاهاته وأهدافه ، رأت كليوباترا أن تتقبل أنطونيو ، كما هو ، على علاته بل لقد اقتبست هى نفسها ، أسلوبه وطريقته فى التحدث .

ومرة أخرى ، وجهت إليه الدعوة هو وقادة جيشه . وأعدت المأدبة الفاخرة فى قاعة الاحتفالات الكبرى التى غطيت أرضيتها بأكملها بطبقة كثيفة من براعم الزهور الزكية الفواحة . وهنا ، وجد هؤلاء الضباط أنفسهم يغوصون تقريبا فى هذه الأرضية الوردية العطرية ، وهم مبتهجون وفرحون مقدماً ، لما سوف يتذوقونه من ألذ أصناف وأنواع الطعام . ويبدو أن أنطونيو قد سحر لبه تماماً بكل مايحيط به ، فقال للملكة :

« ماذا عساك تفعلين من أجل تحقيق كل هذا السحر والإبهار ؟ بل كيف عساى أصل إلى مثل هذا الكمال والامتياز فى فن وأسلوب إعداد المآدب التى أود إقامتها لتكريمك ؟ » .

عندئذ ، شعرت كليوباترا بالرضاء والفخر ، وهى ترى أنطونيو يكاد يركع عند قدميها ، فأجابته وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة غامضة : «إنك لم تر شيئا بعد ... فإننى أستطيع أن أنفق ثروة بأكملها من أجل دعوتك واستقبالك على الغذاء ، فلنقل مثلاً .... » .

وذكرت الملكة مبلغاً هائلاً من المال . وعندئذ ، لم يستطع أنطونيو أن يصدقها ، وهنا ، قالت له وهى تضحك فى سرور بالغ :

« حسنا ، سوف أثبت لك أن ملكة مصر تستطيع أن تفعل كل ماتريده . وهاهو «بلانكوس» سيكون شاهدا على ماقلته الآن . ولنحدد ذلك بداية من تاريخ هذا اليوم » .

واعتقد أنطونيو أنه هو الذى سوف يكسب الرهان . فقبل التحدى بحماس شديد وكأنه فتى مراهق . فهو يميل إلى مثل هذه التحديات . وعموما ، وفى كافة الأحوال ، فهو سيستمتع بوجبة لذيذة وشهية .

* * *

ووفقاً لاتفاقهما معا ، فبعد بضعة أيام ، انطلق أنطونيو إلى سفينة كليوباترا . وهناك استقبلته الملكة بترحيب وإقبال لم يعهده منها من قبل . ولم يلاحظ أن هناك مظاهر فخامة وأبهة أكثر مما رآه فى المأدبتين السابقتين . وبذا ، فقد أخذ يحدث نفسه قائلاً :

« قطعا سوف أكسب رهانى معها » .

ولكن الملكة كانت تبدو واثقة تماماً من موقفها . وقالت له :

« هأنت تنظر حولك برضاء واضح ؛ وتعتقد أنك قد كسبت الرهان » .

وحاول القائد الرومانى أن يسيطر على سروره البالغ . وعندئذ ، طلبت كليوباترا من أحد الخدم أن يحضر إليها كأسا مليئة بالخل . وانتزعت . حبة لؤلؤ من القلادة التى تتحلى بها . وقالت لأنطونيو :

« هل ترى هذه اللؤلؤة ؟ ... إن ثمنها يعادل نصف المبلغ الذى تحدثنا عنه خلال زيارتك السابقة » .

وحينئذ ، أسقطت الملكة اللؤلؤة فى الكأس المليئة بالخل . وحالما ذابت اللؤلؤة تماماً فى الخل ، رفعت كليوباترا الكأس وشربت هذا المزيج بأكمله . ثم أمرت الخادم بإحضار كأس أخرى مليئة بالخل . وهنا ، طلب منها «بلانكوس» أن تتوقف . وقال لها إنه لا ضرورة مطلقا لتكملة هذا العرض . فقد بينت تماماً عن مدى ضخامة وعظمة ثرائها .

بدا أنطونيو مبهوراً لما يراه وسلب لبه إنفاق كليوباترا لثروتها بكل هذه السهولة . بل وأذهله وسحره أيضا ذكاؤها ودهاؤها الفائق . ولم يكن يشك أبدا فى أن كليوباترا كانت تعتبر كل هذه المآدب الفاخرة ، وتلك الهدايا النفيسة ، وهذا الإنفاق الفائق الحد ، بمثابة ضرورات لسياسة مهمة . بل لقد تيقن تماماً أنها تريد استمالته وهو القائد الرومانى القدير ؛ وترنو إلى التحالف مع الرومانيين ، بل هى ترغب فى تنفيذ خطتها السابقة التى كانت قد أعدتها ورسختها مع قيصر من قبل . فهذه كانت بعض أهدافها . وقالت الملكة لأنطونيو :

« حقيقة أننى لم أستطع أن أحضر معى كل ثروتى وكنوزى . ولكنك ، عندما تحضر إلى الإسكندرية ، سوف أطلعك على كل ماأملك . تعال معى إلى مصر » . وقبل أنطونيو عرضها هذا على الفور . وقال لها :

– « سوف ألحق بك ، حالما أتمكن من ذلك . وسأستمع لكل رغباتك » .

وهنا وجدت كليوباترا أن اللحظة مواتية من أجل أن تعبر له عن بعض هذه الرغبات المتأججة فقالت له :

– « لقد كانت أختى أرسنوى ضمن الأسرى الذين استعرضهم قيصر فى روما . ولكنها الآن انتقلت إلى مدينة إفيس . وقد قيل إنه قد يصدر العفو عنها إذا دخلت معبد أرتميس » .

فأجابها أنطونيو :

– « ماذا تودين ؟ » .

فقالت له الملكة :

– « أريد أن يرغمها جنودك على الخروج من معبد «أرتيميس» ثم يقتلونها . إنها لاتستحق الحياة بعد ما ارتكبته من خيانة » .

ووعدها أنطونيو بتنفيذ مطلبها . وأضافت كليوباترا قائلة ، وقد اجتاحتها رغبة الانتقام :

– « هناك أيضاً من لايستحق العفو أو الرحمة . إنه سيرانيون ، حاكم قبرص ، الذى ساعد كاسيوس ضد دولابيلا . وليكن الموت عقاباً له على فعلته هذه » . وأومأ أنطونيو إليها رأسه موافقاً :

– « ألديك خونة آخرون يستحقون العقاب ؟! » .

فأجابته كليوباترا :

– « ليس فى الوقت الحاضر . ولكن ، متى عساك سوف تلحق بى فى مصر ؟ » .

وفى الوقت الذى كان الخدم يروحون ويجيئون حولهما ، والموسيقى الناعمة تهدهد حواسهما ، أجابها أنطونيو وهو ينظر فى أعمق أعماق عينيها :

– « سوف أنهى سريعا بعض المشاكل القائمة بسوريا ، أى مجرد أن أنتهى من جبى الضرائب وفض المنازعات » .

– « سوف أجعلك من أكثر الرومانيين تشبعا بالمشرق » .

– « هذا هو أكثر ما أبتغيه » .

وبعد مضى نحو أربعة عشر يوما من وصولها إلى تارس ، غادرت الملكة ميناء صقلية . وها هى إذن قد انتصرت فى أكثر من معركة . ولقد اكتسحت قلب أنطونيو ، أكثر الرجال قوة ونفوذا وجسارة فى إيطاليا قاطبة .

* * *

- ٢ -

وصل أنطونيو إلى مصر ، خلال فصل الشتاء ، ٤١ - ٤٢ . وسرعان ماغاب العاشقان معا فى حياة مفعمة بالمتع الجارفة الجامحة ، تغنى بها الفنانون والشعراء بعد ذلك لسنوات عديدة .

وترك أنطونيو نفسه لكليوباترا تماما تعلمه وتلقنه فنون ولذات الشرق ونعيمه . وبدأ يرتدى ثيابه على النمط الإغريقى المكون من معطف أبيض وخف أبيض اللون . وأخذ يرتاد المعاهد الرياضية ، ويحضر المحاضرات التى يلقيها بعض كبار الفلاسفة . بل ومارس كل فنون اللهو والترفيه ، بداية من صيد الأسماك ، وصيد الصحارى وقنصه ، وحتى ارتياد الملاهى الليلية . وكانت كليوباترا تقيم من أجله الحفلات الصاخبة ، ولاتتركه ليلا أو نهارا . وفى أحد الأيام سألته قائلة :

- « ألم تسمع عن فئة «المتميزين» ؟ إنهم مجموعة من الإغريق الذين يستمتعون بمباهج الحياة ومتعها . فلماذا لانفعل مثلهم ، ونجعل من كل ساعات الليل والنهار لهوا واستمتاعا وبهجة ؟ » .

وسارع أنطونيو بموافقتها على اقتراحها هذا . بعد ذلك ، كان يستمتع حقا بمباهج رحلات الفروسية الطويلة الأمد ، وسباقات السباحة ، والمصارعة ، وسباقات العدو . وكانت كليوباترا تنظر إليه دائما باعتباره رجلا كريم الخلق ، متوهج الحيوية ، ولكنه ، فى مجال تحقيق المصالح السياسية لا يعتمد عليه كثيرا . ولقد توج زواج سماوى ارتباطهما وحبهما القوى . وأثمر هذا الزواج طفلين هما : «ألكسندر هليوس» و «كليوباترا سيلينية» .

وبعد فترة من الانطلاق والمتع والابتهاج ، رأت كليوباترا أن الوقت قد حان للعمل الجاد . وقالت لأنطونيو :

- « لا تجعل الإسكندرية تنسيك واجبك وعملك . إن غيابك عن روما قد استمر لفترة طويلة . وعندئذ ، لاشك أن أوكتافيوس يجد الفرصة مواتية لتثبيت قواعده وموقفه» .

وأرادت كليوباترا ألا تشعر أنطونيو بأنها تدفعه دفعاً إلى ماتريده ، فعملت على مرافقته ومصاحبته فى رحلات الصيد التى كان يقوم بها . وفى أحد الأيام ، وجد أنطونيو أنه لم يحظ بسمكة واحدة من صيده ، فطلب من أحد خدمه أن يغوص فى الماء ويشبك العديد من الأسماك فى طرف سنارته . ولاحظت كليوباترا هذه الخدعة ؛ ولكنها هتفت له إعجابا وتهنئة . وفى اليوم التالى دعت العديد من الأصدقاء من أجل أن يشاهدوا براعة أنطونيو فى صيد الأسماك . وعندئذ أمرت كليوباترا أحد العبيد أن يغوص فى الماء ويشبك فى طرف سنارة أنطونيو سمكة مدخنة من أسماك البحر الأسود ، المستوردة . وبالقطع ، شعر أنطونيو بالخجل الشديد . وطلب منها تعليلا لما فعلته . فقالت له :

- « عليك أن تترك مجال الصيد فى «فاروس» و «كانوب» . ووجه اهتماماتك إلى المدن والدول والامبراطوريات ، فأنت بارع للغاية فى هذا المجال » .

فى شهر فبراير عام ٤٠ ، تلقى أنطونيو أحد التقارير لما يحدث فى روما . ووفقا لما توقعته كليوباترا ، كان أوكتافيوس ، على مايبدو ، يعمل من أجل الاستحواذ بمفرده على السلطة ، وإزاحة شريكيه بعيدا . وتبين أيضا ، أن «فولفى» زوجة أنطونيو ، ولوسيوس ، أخاه قد حاولا خلع أوكتافيوس من منصبه ؛ ولكنهما فشلا فى ذلك . واضطرا إلى الهروب خارج روما .

بل لقد عرف أنطونيو أيضا ، أن السوريين قد ازدادوا تقاربا من البارثيين ، وأن هؤلاء البارثيين قد أبعدوا «ديميوس ساكتا» من أنتيوفوس والذى كان أنطونيو قد قام بنفسه بتعيينه حاكما لها . وقد حل مكانه الرومانى «لابيونوس» .

وبعد أن طرد البارثيين «هيرود» سرعان ماتوجه إلى الإسكندرية فى فصل الربيع . ولجأ إلى أنطونيو من أجل مساعدته . وهنا قال أنطونيو لكليوباترا :

- « مستحيل أن أمكث ساكنا أكثر من ذلك . علىّ أن أرحل إلى «صور» فهذا الميناء لم يقع بعد فى أيدى الأعداء » .

وشعرت كليوباترا بقشعريرة تجتاح جسدها . وحقيقة أنها تعرف أن الضرورة تحتم وجود أنطونيو فى روما ، ولكنها بالرغم من ذلك كانت تخشى ألا تراه ثانية .

فإن صفاته المتقلبة التى لاتبقى على حال تملؤها رعبا وخوفا . فهل سيبقى على عهده معها ، مثلما فعل قيصر ؟ ولذا ، فقد اجتاحت بدنها رجفة عارمة وهى تشاهد سفينة أنطونيو أثناء مغادرتها لميناء الإسكندرية .

* * *

ووصل أنطونيو إلى مدينة صور . وهناك ، علم أن أخاه لوسيوس قد أودع بأحد السجون فى مدينة بيروس ، وأن زوجته تحاول اللحاق به . ورأى أنطونيو أن الفرصة غير مواتية لكى يخلع لابينوس عن الحكم ، والذى كان قد تمركز فى مدينة صور وخلع على نفسه لقب «إمبراطور» . وعلى هذا فقد توجه أنطونيو إلى أثينا حيث كانت قد لجأت «فولفى» وأمها .

وفى أثينا التقى بزوجته فولفى وقد اجتاحتها ثورة عارمة . واستقبلته بكل مظاهر الغضب والحنق . بل ووجهت إليه الكثير من الانتقادات والتوبيخات الحادة . وعندئذ تبين أنطونيو أن زوجته قد قامت بتدبير مؤامرة ضد أوكتافيوس لكى تجعله يغادر مصر ومليكتها ويحضر إلى روما . ولكن على مايبدو أن فولفى لم تجد الوقت الكافى من أجل تنفيذ انتقامها من غريمتها كليوباترا . فقد باغتها الموت فجأة . وهكذا تركت الفرصة أمام أنطونيو ليفكر فى التصالح مع أوكتافيوس . وعلى هذا فقد أعد لقاء بين الاثنين بمدينة «بريند» فى شهر سبتمبر . وعندئذ قال أنطونيو لأوكتافيوس :

– « إن فولفى هى المسئولة عن حدوث الخلافات بيننا . والآن ، هاهى قد انتقلت إلى العالم الآخر . وعلينا إذن ، أن نتباحث فى جو يفيض بالود والتفاهم » .

ووافق أوكتافيوس على اقتراح أنطونيو . وقرر الاثنان أن يضعا قائمة بالمناطق التى سوف يهيمن عليها كل منهما . ولقد احتفظ أوكتافيوس بإيطاليا وأوروبا بالإضافة إلى «دالماتى» «وجيلرى» . أما أنطونيو ، فقد احتفظ بالمشرق . وحينئذ ، قال أوكتافيوس لأنطونيو :

– « من أجل توثيق وتدعيم اتفاقنا هذا ، فإننى أقدم لك أختى أوكتافيا زوجة لك » .

وهنا وجد أنطونيو نفسه مضطرا لقبول هـــذا العرض ، الذى على ما يبدو ، كان يروق كثيرا للرومانيين . وبذا ، ساعد هذا الزواج على وضع حد للخلافات بين الرجلين .

وبدأت كليوباترا تتعجب من تأخر أنطونيو فى روما . وسرعان ماعلمت بخبر زواجه من أوكتافيا . وذكر لها بعض مبعوثيها وصفا مفصلا عن مظاهر الاحتفالات الكبرى التى أقيمت بمناسبة هذا الزواج . وأضاف أحد المبعوثين قائلا لكليوباترا :

– « والآن ، يستعد الزوجان للسفر إلى أثينا . فعلى مايبدو أن أنطونيو يريد أن يحيا من جديد بمصاحبة عروسه ، نفس المباهج والمتع التى عرفها فى مصر . فهو يريد أن يرتاد معاهد التربية الرياضية حيث يتألق ويطلق عليه ثانية لقب دينيسوس » .

لقد نزلت هذه المعلومة على كليوباترا نزول الصاعقة . وكانت تشعر وكأنها تتمزق بين مشاعر مختلفة ومتباينة : ثورتها المتأججة تجاه الرجل الذى أودعت فيه ، بغبائها وسذاجتها كل ثقتها ؛ وغيرتها المشتعلة ضد أوكتافيا ، الجميلة ، المتحفظة اليانعة الصبا والشباب والقادرة تماما على منح أنطونيو مايحتاجه من توازن عائلى واستقرار . لقد أحست كليوباترا عندئذ ، أنها قد أهينت وجرحت مشاعرها .

أما أنطونيو ، فإنه خلال هذا الوقت كان يستمتع بشعبية كبيرة فى اليونان . بل وكان يوزع الممالك المختلفة على بعض الأفراد . فعلى سبيل المثال ، نصَّب «هيرود» ملكا على جوديا ؛ أما داريوس ، ابن فارناس فقد أعطاه عرش بونت ، وأنعم على «بوليمون» بعرش «ليومى» . ولقد غمره السرور والرضا عندما علم أن أحد ضباطه المدعو «فاينديوس داسوس» قد انتصر على البارثيين وقتل قائدهم «لابينوس» .

وقد أمضى أنطونيو فصل الشتاء فى أثينا مع أوكتافيا . وفى فصل الربيع سافرا معا إلى برندس ؛ والتقيا بأوكتافيوس . وعندئـذ ، قـال أنطونيو لزوجته أوكتافيا :

– « إننى أملك قدراً هائلا من المال ، بل أكثر من حاجتى . ولكنى أحتاج للمزيد من الرجال . وها أنا أحضر إلى أخيك أكثر من مائة سفينة . فربما قد يوافق على إمدادى بالجنود فى مقابل ذلك » .

ولم يبد على أوكتافيا أنها توافقه الرأى . فهى تعرف طبيعة أخيها حق المعرفة . وقالت له :

– « ألا تذكر أنـك رفضـت مسـاعدته فى العـام المـاضى ، عندما بعث إليك بـ «ميسين» طالبا النجدة ؟ » .

وبالفعل لم يوافق أوكتافيوس على أية مبادلة . وقال لأنطونيو إنه لديه كفايته من السفن .

وتوجه أنطونيو إلى تارنت وقد اجتاحه غضب عارم . ولذا ، فقد قررت أوكتافيا أن تتدخل بين أخيها وأنطونيو حتى لايحدث بينهما خلاف جديد . وفى نهاية الأمر ، وصل الرجلان إلى اتفاق ما . وحقيقة أن أنطونيو قد احترم نصوص الاتفاقية ؛ ولكن أوكتافيوس رفض فى نهاية الأمر تقديم الفرق العسكرية المتفق عليها . واعتبر أنطونيو أن زوجته هى المسئولة عما حدث . وقال لها فى حدة وانفعال واضح :

– « كيف يحدث هذا ؟! هاهو مجلس «السينات» يجدد حكم الثلاثة (تريمفيرا) لخمس سنوات أخرى ! ولقد أحرزت لتوى نصرا كبيرا فى موقعة سوموسات . والإغريق يعتبروننى إلهاً . وبالرغم من ذلك فإن أخاك هذا المغرور المتعجرف يجرؤ على عدم الوفاء بعهوده ! » .

وسافر أنطونيو بمصاحبة أوكتافيا وأولادهما إلى «كورفو» . ولكن ، عند وصولهم إلى هذه الجزيرة سرعان مابعث بهم إلى ايطاليا . وقد قال لزوجته :

– « لا يجب أن تأتوا معى إلى سوريا . فالأحوال هناك فائقة الخطورة » .

وفى حقيقة الأمر أن أنطونيو كان قد بدأ يشعر بالملل من أوكتافيا الفاضلة الصالحة للغاية . وبدأ يفكر ثانية فى كليوباترا . إنه لم يرها منذ أربع سنوات . فلماذا لا تأتى هى لزيارته فى «أنتيوخوس» ؟ . وعلى الفور ، أرسل أحد ضباطه ويدعى «فونيوس كايتو» إلى الإسكندرية .

ودهشت كليوباترا دهشة بالغة عند تلقيها رسالة أنطونيو . وفى بداية الأمر ، قررت عدم الرد عليها . ولكنها بعد ذلك سرعان ماتراجعت . إنها تشعر بنوع من الجاذبية الغامرة تشدها ناحية أنطونيو ، حتى إذا لم تكن تستطيع أن تقر لنفسها

بذلك . كما أنها خلال غيبته قد تيقنت تماما من أهميته البالغة بالنسبة لتحقيق أهدافها . وخلاف ذلك فإن الضرورة تحتم أن تقوم بإعادة تنظيم سلاحها البحرى وجيشها .

وعلى هذا ، فقد توجهت كليوباترا إلى أنتيوخوس . ولم توجه لعاشقها السابق أى لوم أو تأنيب . ولكن عملت على أن تتسم معاملتها معه بالبرود والحسم . فقالت له :

– « إذا أردت أن نعيش معا كما كنا من قبل ، عليك أن تتزوجنى رسميا » .
وتملك أنطونيو ذهول بالغ . وقال لها إنها تعلم جيدا أنه متزوج فعلا . فأجابته كليوباترا :

– « إنك متزوج من زوجة رومانية ، وليست مصرية » .

– « ولكن القانون الرومانى لايسمح بتعدد الزوجات : فإننى من أجل أن أتزوجك ، يجب أن أطلق أوكتافيا . ولن يغفر لى أوكتافيوس أبدا مثل هذا العمل » .

– « لا يهم مطلقا كل هذه الشكليات . إذا تزوجتنى رسميا فى مصر ، فسوف أصبح زوجتك فعلا . وكل مايحدث أو سبق أن حدث خارج مصر لا صلة له مطلقا بارتباطنا معا » .

فأجابها أنطونيو أملا فى أن يقبل اليونان مثل هذا الزواج :

– « فى هذه الحال ، فلنتزوج وفقا للقوانين المصرية » .

ولم تمانع كليوباترا فى ذلك مطلقا ، خاصة أن أنطونيو كان على أهبة الاستعداد لغزو بلاد المشرق وفقا لما كان قيصر قد أزمعه فى الماضى ؛ وأن يمنحها الجزيرة العربية ، ومدينة بيترا وصقلية ولبنان وسوريا وقبرص والأردن وجزء من كريت . وبالإضافة لكل ذلك ، أن يكون قيصرون هو الوريث الأساسى .

وبعد سلسلة لا نهائية من المباحثات والمفاوضات بينهما ، دامت عدة أيام ، قالت له الملكة :

– « فى مقابل ذلك ، فإننى أضع كل ثرواتى وكنوزى طوع أمرك » .

كان أنطونيو يشعر بشئ من الغيظ والضيق لما تبديه الملكة نحوه من برود وتباعد

واضح . وقد حاول لمرات عديدة التقرب منها وتقبيلها . فإنه منذ أن وقعت عيناه عليها ثانية ، أحس باشتعال نيران حبه وغرامه بها . وحاول أن يقنعها بتأجيل مباحثاتهما ومفاوضاتهما إلى وقت آخر ، لينعما بلحظات من السعادة معا ، بعد لقائهما من جديد . ولكن ، هيهات . فقد رفضت كليوباترا محاولاته هذه رفضا باتا . وأصرت ، قبل أى شئ ، أن يبرما اتفاقياتهما معا .

وتم عقد زواجهما فى فصل الشتاء عام ٣٧ . واتخذ أنطونيو وكليوباترا مقرهما فى منطقة «دوفن» بمدينة «انتيوخوس» الراقية . ولكن سرعان مابدأت كليوباترا تلح على زوجها أنطونيو بأن ينفذ بنود اتفاقيتهما ثم يسافر لمحاربة البارثيين . وبدأ أنطونيو التنفيذ ، فأصدر أوامره باغتيال بعض الملوك . وهكذا حازت كليوباترا على كل من سوريا وجزيرة قبرص . بل وحصلت أيضا على مملكتى كريت وجيولى . بعد ذلك أخذت تحفز أنطونيو من أجل الإسراع بتعبئته واستعداداته للحرب .

وانطلق أنطونيو فى غزواته فى شهر مارس عام ٣٦ . وصاحبته كليوباترا حتى مدينة «أبامى» . ثم تابعت طريقها لزيارة جيوفو . ولكن ، هاهو طبيبها الخاص ينصحها بالتوجه إلى الإسكندرية فقد كانت تنتظر وليدها الرابع ، وهو بطلميوس فيلادلف المقبل . ورجعت كليوباترا آسفة إلى مصر . وحقيقة أن أنطونيو قد أكد لها أنه سوف يحقق نصرا خاطفا وسريعا ، ولكنه ، على مايبدو قد لاقى أشد الصعوبات وأقساها فى غزوته هذه ضد البارثيين . ومع ذلك ، فقد تراءى تماما أن القائد الرومانى سوف يحقق النصر النهائى . فجيشه الذى يتكون مما يزيد عن ثمانين ألفا من الجنود المشاة وحوالى خمسة وثلاثين ألفا من الفرسان ، استطاعوا من قبل أن يقلقلوا أركان قارة آسيا . ولكن لسوء الحظ أن كبير ضباطه المكلف بإحضار العتاد اللازم من أجل الحصار قد تعرض لهجوم مباغت . أما حليفه بطلميون ، ملك بونت فقد وقع أسيرا فى أيدى الأعداء . وعن حليفه الآخر أرتافاسد ملك أرمينيا ، فقد فر هاربا من المعركة . وسرعان ماأندفعت جحافل جيوش البارثيين من كل صوب وحدب . وعندئذ ، اضطر أنطونيو أن يولى الأدبار ، فى ظروف صعبة وقاسية للغاية . وسقط جنوده صرعى طعنات البارثيين ، بل وشدة صقيع الشتاء القارص بين سفوح الجبال ؛ وأيضا من قسوة الجوع والعطش . وحاول أنطونيو أن يبذل أقصى استطاعته لمساعدتهم . وأخيرا ، وبعد حوالى خمسة وعشرين يوما ، بذل أنطونيو خلالها

كل طاقته وشجاعته ، وصلت البقية الباقية من الجيش الرومانى إلى ساحل أراكس . وتبين لأنطونيو أنه قد فقد حوالى أربعين ألفا من الفرسان ، ومازال مضطرا أن يقطع مالايقل عن سبعمائة كيلو متر وسط العواصف الثلجية القاسية الرهيبة . ولاشك أن عبور نهر الأراكس قد كلفه خسائر فادحة فى الأرواح . لقد كان جنوده يتساقطون صرعى بالعشرات فى ثلوج النهر المتجمد .

وعندما تيسر له ذلك . قام أنطونيو بإرسال خطاب إلى كليوباترا . وانتاب الملكة قلق شديد . وانطلقت مسرعة حتى حدود مدينة صيدا ومعها كميات ضخمة من الملابس والمؤن الغذائية . وأخذت تتوسل إلى أنطونيو أن يرجع معها إلى الإسكندرية . ولكن أنطونيو رفض الاستسلام لمثل هذه الهزيمة المهينة . فقالت له كليوباترا :

– « اترك آسيا جانبا الآن . عليك بالأحرى أن تلتفت ناحية أوكتافيوس . فلقد قضى على «سكتوس بومبى» واستحوذ على صقلية وطرد حاكمها «ليبيد» . إنه الآن سيد الغرب غير المنازع ! .. إن أوكتافيوس هذا لم يعد أبدا المقاتل البسيط الذى كنت تصفه لى » .

ولكن أنطونيو لم يصغ إليها مطلقا . وفى ربيع عام ٣٥ ، علمت شعوب الميديين بتأهب أنطونيو لمحاربة البارثيين . وبذا ، فقد حضر إليه مليكهم وتوسل إليه أن يساعده فى مهاجمة البارثيين . ووجد أنطونيو أن الفرصة مواتية تماما أمامه بالرغم من تحذيرات كليوباترا الشديدة له . واندفع إلى «أنتيوخوس» من أجل ملاقاة جيشه الجديد . وفى نفس الحين ، أبلغه أحد مراسليه أن أوكتافيا قد وصلت إلى أثينا على رأس جيش مكون من ألفى جندى . وهنا ، قالت له كليوباترا فى خوف ويأس واضح :

– « لا تذهب لملاقاتها » .

ولم يكن أنطونيو يريد أن يفعل ذلك . وبعث إلى أوكتافيا يطلب منها الانصراف . وهكذا ، وبشكل غير مباشر وجه إهانة لأخيها أوكتافيوس . ثم اصطحب كليوباترا إلى الإسكندرية .

وحتى لايرجع أنطونيو عن قراره ، ضاعفت كليوباترا من إبداء مظاهر حبها وهيامها . فامتنعت تقريبا عن الطعام ، وجعلت دموعها تنهال مدرارا فوق وجنتيها ،

وأخذت تنظر إليه بنظرات يملؤها الانبهار والإعجاب ، بل كانت تتصنع أنها فقدت الوعى كلما غادر حجرتها أو تركها لبعض شؤونه . وأوعزت إلى بعض أعوانها بأن يسروا إليه بمدى حبها وهيامها به ، وإنها لاتقوى أبدا على فراقــه أو على ابتعاده عنها .

وعلى مايبدو أن مثل هذا الأسلوب الذى انتهجته الملكة قد أثقل كثيرا على كاهل أنطونيو . أو ربما أنه قد تبين أن أعمالها هذه تتسم ببعض المكر والدهاء . ولذا ، فقد أبدى ضيقه وتأففه مما تفعله . وبالرغم من توسلها وابتهالها إليه ، أخبرها أنطونيو أنه سوف يرحل لمحاربة ملك أرمينيا . وقال لها :

- « لا تخشى شيئا مطلقا . لقد علمت أن «أرتافاسد» يحاول تدبير مؤامرة ضدى . ولكنى أنا الذى سوف أنصب له شركا . فسأبلغه بأننى أود مقابلتــه من أجل أن نعد معا خطة لمجابهة البارثيين .

وبعد فترة وجيزة ، وصل أنطونيو إلى مدينة «نيفولوبولس» بأرمينيا . وهناك رفض مليكها مقابلته . وعندئذ ، هاجم أنطونيو مدينة «أنتالساتا» عاصمة أرمينيا واحتلها . ثم خاض معركة ضد ابن «أرتافاسد» ، الذى سارع بالهروب إلى البارثيين . وقام أنطونيو بعدة مفاوضات مع ملك ميديا ، انتهت بزواج ابنه «ألكسندر - هليوس» من الأميرة «لوتابا» . ثم عاد أنطونيو إلى الإسكندرية بغنائم وثروات هائلة ، والعديد من أسرى الحرب ، من ضمنهم الملك أرتافاسد وأفراد عائلته .

واستقبلته كليوباترا بفرح غامر وسعادة دافقة . فهاهو قد عاد إليها منتصرا ظافرا ! وكان عليها أن تحيى مناسبة هذا النصر بالشكل اللائق به ؛ وبما يضارع الاحتفالات التى ستقام من أجله فى روما !

وعندما علم الرومانيون بذلك ، أصابهم الذهول والدهشة . فكيف عساه يقيم احتفالات انتصاراته فى الإسكندرية ؟!

ولكن أنطونيو القائد الرومانى كان قد قرر ذلك تماما .

وبذا ، فبعد مرور بضعة أيام ، خرج موكب مهيب من القصر الملكى ، وبدأ مسيرته من الشارع الرئيسى بمدينة الإسكندرية وكان يتكون من كتائب عسكرية ،

ومركبة أنطونيو الحربية تجرها جياد شهباء ، ومن ورائها «أرتافاسد» وأفراد أسرته ، وهو مكبل بالحديد ؛ ويتبع ذلك بعض العربات الحربية المحملة بتلال من أسلحة الأعداء التى اغتنمت فى المعارك ؛ ثم هناك بعد ذلك عدد من مبعوثى الدول الموالية لمصر . وتابع الموكب الضخم مسيرته ، وعبر قلب الميدان المترامى الأطراف وسط هتافات أفراد الشعب المصرى . ثم وصل أمام «السيما» ، أى مقبرة الإسكندر الأكبر الواقعة أمام المتحف . بعد ذلك ، تابع سيره حتى وصل إلى معبد «سيرابيس» وهناك كانت كليوباترا تنتظر أنطونيو وهى جالسة فوق عرش من الذهب الخالص .

وقام أنطونيو بتقديم بعض القرابين لإله المعبد ؛ ثم جلس بجوار كليوباترا . ووجه كلامه لأرتافاسد آمرا :

– « والآن ، اركع على ركبتيك أمام كليوباترا » .

ولكن على مايبدو أن ملك أرمينيا رفض تنفيذ هذا الأمر . واكتفى بتحية الملكة المصرية وكأنه يحيى أية مواطنة عادية . وعندئذ ، استشاط أنطونيو غضبا وقال له :

– « وهذا أدعى لقتلك هذا المساء . فهكذا يحتم العرف الرومانى ، بالنسبة لأسرى الحرب الذين يمثلون خلال استعراضات النصر » .

ويبدو أن كليوباترا قد تأثرت كثيرا بما أبداه «أرتافاسد» من شجاعة وجرأة ، فقالت لأنطونيو مدافعة عنه :

– « فلتحتفظ به أسيرا فى الإسكندرية » .

وأعقب هذا الموكب الضخم مآدب هائلة ، ضمت خيار القوم وكبار موظفى الدولة وأفراد الشعب السكندرى الذى غمرته مشاعر البهجة والفرح والانطلاق .

بعد عدة أيام ، وفى ساعة الغسق توجه أنطونيو وكليوباترا إلى مضمار السباق ، حيث كانت قد أعدت منصة كبيرة ثبتت فوقها ستة عروش من الذهب الخالص ، وجلس كل من أنطونيو وكليوباترا فوق العرشين الأكبر حجما . وكانت كليوباترا ترتدى عندئذ رداء شبيها بما ترتديه الربة إيزيس . وفوق العروش الأقل حجما ، جلس قيصرون ، ثم «ألكسندر – هليوس» ، بلباس شبيه بملابس الميديين ، ثم «بطلميوس فيلادلف» ، وقد ارتدى ثيابا على نمط الملوك المقدونيين ، وحلى رأسه بالتاج المعروف باسم الكوسيا ؛ ثم فى النهاية كليوباترا – سيلينية آخر أبناء كليوباترا .

وبعد أن استمع أنطونيو إلى بعض كلمات المديح والإطراء ، قام من مقعده وأعلن قائلا :

- « من الآن فصاعدا ، تحمل كليوباترا لقب «ملكة الملكات» . ويخلع على قيصرون لقب «ملك الملوك» . أما ألكسندر فسوف يحمل لقب «ملك أرمينيا» والبارثيين العظيم . وعن بطلميوس فيلادفيا ، فسوف يتوج ملكا على فينقيا ، وصقلية وسوريا . وبالنسبة لكليوباترا سيلينية ، فستكون ملكة على قورنيه وليبيا » .

بعد ذلك ، قام الأبناء بتحية وتهنئة أبويهم المؤلهين . وهنا شعرت كليوباترا بأنها قد حصلت بالفعل على كل ماكانت تتمناه وترغبه . ومنذ هذه اللحظة ، سوف تحمل لقب «إيزيس الجديدة» . ولقد تم سك عملات ذهبية جديدة بالإسكندرية تمثلها بمصاحبة أنطونيو ، وقد اعتلى رأسه التاج الخاص بملوك أرمينيا .

وقام أنطونيو ، على الفور ببعث رسالة إلى «السينات» الروماني ، من أجل الحصول على تصديق على هذه القرارات التي اتخذها لتوه . ولكن «السناتورات» سرعان ماثاروا معترضين على قراراته هذه . وأخذوا يتساءلون عما إذا كان أنطونيو «قد أصابه الخبل والجنون ، ليعطى لكليوباترا بعض المناطق التي كان يجب أن تكون تحت السيطرة اليونانية ؟! هاهو إذن قد أصبح عربيدا فاسقا أفقدته الخمر صوابه ، يترك قياده تماما لعشيقته تفعل به ماتريد ، هذه العاهرة التي تقوده إلى أسوأ الموبقات» . ولذا ، فقد أخذ «السيناتورات» - أعضاء مجلس الشيوخ - يتوسلون إلى أوكتافيوس من أجل القيام بوضع حد لكل هـذه المساخر ؛ والقضاء تماما على أنطونيو .

ولم يول أنطونيو أى اهتمام لما يحدث فى روما وأخذ ينعم بحياته فى أجواء قصره الفخم ذى الأسقف المزخرفة بزخارف بديعة ، والدعامات المذهبة والأعمدة الرخامية التى تتناسق مع الجدران المطعمة بالعقيق ، والأرضيات المصنوعة من أحجار اليشب النفيسة المتعددة الألوان والمرمر ، والأبواب المطعمة بالأصداف المستوردة من الهند والزمرد ، والمقاعد المزينة بمختلف الأحجار الكريمة . وكان يتناول الزبيب فى كؤوس من الذهب الخالص موضوعة فوق مناضد من خشب الأبنوس النادر ومن العاج المطعم بأحجار الجاسب النفيسة والكورتالين . وينام على أسرة مفروشة بالحرير الناعم

الملمس ، المزخرف بأشكال النجوم ، المستورد خصيصا من سوريا . وفى نفس الوقت ، يقوم عدد من العبيد الضخام الأجسام المفتولى العضلات ، وبعض الجرمانيين الذين يتسمون بالوسامة الفائقة بخدمة الملكة وتلبية طلباتها ؛ وقد ارتدوا ثيابا فاخرة على الطراز الإغريقى . وكان أنطونيو يمضى معظم لياليه وقد زين رأسه بإكليل من ورق الغار وغاب فى عالم الخيال والأحلام بتأثير ماتجرعه من خمر بكميات وافرة .

وبدأت كليوباترا تشعر بقلق وحزن لما يبديه الرومانيون من حقد وتحد ضد أنطونيو ، ولكن أنطونيو ، من ناحيته كان ينظر لهذا الأمر ببساطة وازدراء . فهاهو يقول لكليوباترا متهكما :

– « هل تعرفين بماذا أجابنى أوكتافيوس عندما طالبته بإرجاع المناطق الخاصة بى ؟! لقد كتب إلى قائلا إنه سوف يعطينى الأقاليم الأفريقية التى أستحقها إذا تنازلت له عن نصف أراضى مصر وأرمينيا !! فأجابته كليوباترا قائلة :

– « فلنسافر معا إلى إفييس ومعنا مائتا سفينة ومبلغ قيمته عشرون ألف «تالن» (عملة نقدية يونانية) ، فى أواخر العام الحالى . وعليك أن تأخذ من خزائنى كل ماتريده من أموال . بل وسنحمل معنا كميات هائلة من الغلال والحبوب ، والملابس والأسلحة . فلنبلغ إذن ملوك المشرق بذلك ، لكى يكونوا فى انتظارك هناك » .

وتم تنفيذ كل ما أرادته كليوباترا . وسرعان ماتجمعت فى إفييس العديد من الجيوش الوافدة من مختلف البقاع . وامتلأت شوارع هذه المدينة بالجنود الجرمانيين ، والماريين والمصريين والميديين والأرمن والإغريق والليبيين والسوريين بملابسهم المتباينة المختلفة الأشكال ، وهم يتحدثون بلغات متغايرة ومتعددة .

وعندئذ ، وصل بعض «السيناتورات» إلى إفييس . وطلبوا مقابلة أنطونيو . وتم اقتيادهم إلى خيمة كليوباترا ، حتى يعرفوا تماما من الذى يدير دفة العمليات فى هذا المكان . وبالقطع ، انتابهم الذهول لما يرونه . بل وأخذوا يتساءلون عن مدى مايتمتع به أنطونيو من أهلية ونفوذ فى هذا المجال .

بعد ذلك ، انتقل أنطونيو وكليوباترا إلى مدينة ساموس ، ثم إلى أثينا خلال خريف عام ٣٢ .

وفى أحد الأيام ، قالت كليوباترا لأنطونيو :

- « ها قد آن الأوان من أجل الإطاحة بأوكتافيوس » . وسرعان مابدأ أنطونيو ينفذ ماتريده . وبعث إلى أوكتافيوس برسالة ، وتسلمتها زوجته لعدم تواجده حينئذ ، وهنا ثار جميع الرومانيين ضد أنطونيو . وعلى مايبدو أن بعضهم قد أرسل إليه من يحذره ويبلغه بما يدبر ضده . وأبلغه هذا المراسل السرى ، أن الضرورة تحتم عليه توخى الحرص الشديد فيما يفعله ومايصرح به ؛ فسوف يصدر قرار رسمى ضده باعتباره عدو روما . ولكن أنطونيو اعتقد أن هذا المراسل السرى ماهو إلا أحد جواسيس أوكتافيوس . وبالتالى ، لم يعبأ بتحذيراته ولم يولها أدنى اهتمام .

وسرعان ماتوتر الأمر فى روما أكثر من ذى قبل . وقام أوكتافيوس بالاستيلاء عنوة على وصية أنطونيو التى كانت تقع تحت حماية الڤستالية (١) ؛ وأخذ يقرؤها على مجلس «السينات» ويقول :

- «انظروا ماذا يقول أنطونيو فى وصيته : إنه يمنح أبناء كليوباترا ممتلكات شاسعة ومترامية الأطراف ، وهاهو يوصى بأن يدفن جثمانه فى الإسكندرية بجوار كليوباترا» .

ولاشك أن هذه المعلومات قد عملت على تصاعد موجات الغضب والحنق فى روما . وعلى الفور ، صدر قرار بخلع أنطونيو عن كافة وظائفه . وتوجه أوكتافيوس إلى معبد بلون ، حيث قام بتسديد الرمح المقدس ناحية الشرق . ويعنى بذلك ، إعلان الحرب على مصر . ومع ذلك ، فإن هذا القائد الرومانى لم يكن يملك كفايته من الأموال من أجل خوض الحرب . وبالتالى ، كان لزاما عليه أن يضاعف من قيمة الضرائب على الشعب . وهنا ، وجد أنطونيو الفرصة مواتية من أجل أن يعمل على تكذيب مزاعم وإدعاءات أوكتافيوس ؛ وأيضا ، من أجل إغداق الأموال والهبات على الرومانيين ، ومع ذلك ، فإنه ، بالرغم من أن الضرورة كانت تحتم توجهه إلى روما ، فإنه قد تردد وأضاع بعض الوقت . وفى نهاية الأمر ، انطلق إلى مدينة باتراس على رأس جيش مكون من مائة ألف جندى مشاة ، وخمسة عشر ألفا من الفرسان . ومع ذلك ، فإنه لم يستعن بكافة كتائبه وفرقه العسكرية . فقد كان يعتقد أن السفن المصرية تكفى تماما لقمع هجمات أوكتافيوس ، الذى كان قد عسكر بقواته أمام مدينة «أكتيوم» . ولذا ، فقد قال أنطونيو لكليوباترا فى إحدى رسائله إليها :

(١) ڤستالية : كاهنة الإله «ڤستا» فى روما القديمة .

- « فلنتركه يأتى هنا . إنه فى حاجة ماسة إلى المال . وليس من المستبعد أبدا أن يتمرد جنوده عليه . إننا الآن سادة البحار ونملك تماما زمامها . بل إن الوقت فى صالحنا نحن ولسنا مضطرين لخوض القتال .

إن أوكتافيوس يحاول جذبى ناحية إيطاليا باستفزازى وإثارتى حتى ينهى هذه الحرب فى أقصر فترة ممكنة . ولكننى لن أقع فى هذا الفخ . وحقيقة أن مرض الملاريا قد قضى على عدد كبير من جنودى ؛ ولكن ، من الممكن أن يحل محلهم الفلاحون القائمون هنا» .

وفى نهاية الأمر ، قرر أنطونيو أن يعسكر بجيشه عند نتوء جبل «أكتيوم» المطل على البحر وفى مواجهة معسكر أوكتافيوس . وذهبت كليوباترا هناك لملاقاته . وسرعان ماتبين أنطونيو ، أن سفنه الفائقة العدد ، الضخمة الحجم ، لن تستطيع أن تعمل وتناور فى مثل هذا المجال الضيق المحدود . كما أن أوكتافيوس ، فى موقعه هـذا ، قد سد عليه طريق المرور . ووجد أنطونيو ، أنه لو مكث طويلا فى هذا المكان ، فسوف يتعرض لنقص المؤن والعتاد ، وبالتالى ، قرر خوض القتال فورا .

وأخبر كليوباترا بقراره هذا قائلا :

- « سوف أجذب أوكتافيوس ناحية البر ، حيث أشن عليه القتال » .

فأجابته كليوباترا :

- « لا . لا تفعل ذلك . علينا أن نخوض معركة بحرية فإننى أريد أن أشرك سلاحى البحرى فى المعركة . وحالما يتم القضاء على أوكتافيوس ، سوف نحاصر أسطوله وتنطلق أنت إلى روما » .

ولكن بعض الرومانيين الذين مكثوا بجوار أنطونيو ، لم يقتنعوا بهذا الرأى . وقالوا له :

- « لا تدخل مطلقا إلى روما وأنت متأبط ذراع هذه المرأة الأجنبية . بل حاول إرجاعها إلى الإسكندرية » .

ولذا ، فقد حاول أنطونيو أن يتناول هذا الأمر مع كليوباترا ولكنها قالت له :

– « إن هذه الأخبار تبدو سيئة للغاية ، وأنا على يقين من ذلك . فلقد توالت الأحداث السيئة خلال هذه الأيام الأخيرة :

وكان أنطونيو يشعر بحرج شديد من البوح لها بسبب زيارته لها . وعلى هذا ، فقد أضافت الملكة قائلة له :

– « ولكنك ، على أية حال ، قد وعدت الرومانيين بأنك عند رجوعك ظافرا إلى روما سوف تطبق القوانين الجمهورية ! وعموما ، فإننى لن أغادر هذا الموقع قبل أن أشاهد بعينى سلاحى البحرى وهو يتأهب لخوض القتال » .

وهنا ، غضب أنطونيو واحتد عليها وطلب منها مغادرة الموقع على الفور . ولكنه سرعان ما اعتذر لها أسفا . وقال :

– « حسنا ، سوف أخوض معركة بحرية . ولكن حالما أحقق النصر فيها ، عليك أن تتوجهى إلى الإسكندرية . وسوف أتوجه أنا إلى روما » .

ورفضت كليوباترا أن تنصت لكلامه هذا . بل لقد اعتكفت فى جناحها الخاص ورفضت تماما المناقشة معه . وبالقطع ، أصاب أنطونيو ضيق وحزن شديد ؛ لدرجة أنه لم يغمض له جفن وجافاه النوم تماما . بل لقد ساوره الخوف من أن تقضى كليوباترا على حياته .

وفى أحد الأيام ، قدمت له الملكة البقية الباقية من كأس الخمر التى شربت منها قدرا قليلا . واعتقد أنطونيو ، أنها تحاول بذلك التصالح معه ، فأخذها متلهفا وهم برفعها إلى شفتيه . ولكن كليوباترا أوقفته قائلة :

– « هل أنت على يقين أن هذه الخمر ليست مسمومة ؟ فربما إننى قد شربت منها ، ثم أضفت إليها ، بعد ذلك بعض السم قبل أن أقدمها لك » .

وعندئذ أحس أنطونيو بيأس وانزعاج بالغ . وأصدر قراره النهائى هذا إلى قادته العسكريين : سوف يخوض معركة بحرية . وهنا ، اجتاح الحنق والغضب الكثيرين من الرومان المصاحبين له ؛ وتخلوا عنه ؛ بعد أن أطلقوا عليه هذه العبارة :

– « إنه مجرد رجل يترك قياده لامرأة » .

وبدأ أنطونيو يتأهب لخوض المعركة البحرية التى سيتقرر من خلالها مصيره ومصير كليوباترا ؛ وهو فى حالة نفسية سيئة .

استمرت العواصف والرياح العاتية على مدى أربعة أيام متتالية فى أكتيوم . وبالتالى ، كان من المستحيل خوض المعركة . وبذا ، فقد أصاب الجنود بعض التوتر والضيق . خاصة أنهم كانوا يريدون الانتهاء من هذه المعركة . أما عن أنطونيو ، فإنه لم يكن ليستطيع أن ينسى أبدا عبارات الازدراء التى كانت كليوباترا وجهتها إليه جهرا وصراحة منذ عدة أيام . ولكنه ، بالرغم من ذلك ، كان على يقين أن الملكة المصرية ، سوف تسارع إلى طلب العفو والمغفرة حالما يرجع إليها منتصرا من هذه المعركة الحاسمة .

وبدت المائة والسبعين سفينة الخاصة بأنطونيو ، وقد اصطفت صفا واحدا .

وحالما تقدم الجناح البحرى الأيمن ثم من بعده الجناح الأيسر ، قام أوكتافيوس بتسديد هجومه ناحية الوسط . وتحولت المعركة إلى قتال وحشى دموى ومرير . واستمرت على مدى ساعتين كاملتين . وعندما شاهدت كليوباترا سفن أنطونيو وهى متأججة بالنيران ، والرياح العاتية تهب عاصفة مزمجرة من جديد ، قررت الرجوع إلى الإسكندرية وتركت أنطونيو يعانى مرارة الهزيمة .

ومن خلال ألسنة النيران وسحب الدخان الكثيف المتصاعدة ، شاهد أنطونيو سفينة كليوباترا وهى تتلمس طريقها عبر الأمواج الصاخبة والحطام المتناثر . ولم يصدق عينيه . فهاهى الملكة تتخلى عنه وتتركه فى أصعب وأمر أزماته !

وفى نفس الحين . كان جنود أوكتافيوس يلقون بشعلات حارقة فوق سفن أنطونيو . وبذا ، فسرعان ما ابتلع اليم العديد من جنوده . والبعض الآخر منهم التهمته النيران المتأججة ، أو وقعوا صرعى ضربات المجاديف القاضية . وحينئذ ، لم يكن أنطونيو ليرى أمام عينيه ، سوى سفينة كليوباترا وهى تنطلق بعيدا . وهنا ، صعد أنطونيو إلى أحد قواربه ، ولحق بالملكة . وحقيقة أنها قد سمحت له بالصعود إلى سفينتها الخاصة ، ولكنها رفضت تماما أن تتبادل معه أى حديث . وعلى ما يبدو ، أن أنطونيو قد

أحس فجأة ، أنه قد فر هاربا من حومة القتال ، بأسلوب يفتقر إلى الشجاعة والإقدام ، بل وتخلى عن مساندة ومساعدة جنوده فى أحلك لحظاتهم . فجلس فوق سطح السفينة ، وقد اكتنفه صمت رهيب . وبدا واضحا أنه يعانى من حالة انهيار بسبب ما اقترفه . إن فعلته الخسيسة هذه ، لايمكن أن يمحوها أبدا أى نصر . إنها فعلة غير جديرة مطلقا بقائد عظيم مثله .

* * *

طوال ثلاثة أيام متتالية ، كان أنطونيو يعانى من اليأس وخيبة الأمل . ويبدو أن «فورميون» و «إيراس» وصيفتى الملكة ، قد لاحظتا شدة يأسه وقنوطه ، فتوسلتا إلى الملكة أن تدعوه معها إلى الغذاء . وعندئذ ، قال لها أنطونيو فى حزن مرير :

– « سوف أنزل إلى مدينة «باريتونيوم» وهناك سأعمل على استعادة تنظيم بعض الكتائب . فمن حسن الحظ أننى لم أصطحبها جميعا إلى أكتيوم » .

وحقيقة أن كليوباترا كانت قد انتابها بعض البرود نحوه ، ولكنها ، بالرغم من ذلك شعرت بشئ من العطف والشفقة عليه . وقالت له :

– « من الأفضل ألا تدخل معى إلى مصر ؛ فإن شعبى لايجب أن يعلم بخبر هذه الهزيمة . إننى أريد وأنا أدخل العاصمة المصرية ، أن تحيط بى مظاهر الانتصار ؛ وكأنك قد حققت النصر فى هذه المعركة » .

ووفقا لاتفاقهما معا ، غادر أنطونيو سفينة الملكة ، فى موقع غير بعيد من الإسكندرية ، بإحدى القرى الصحراوية التى تتميز خاصة بكثرة أشجار النخيل . ولم يكن بصاحبه وقتئذ ، سوى حارسه المخلص لوسيليوس ؛ وكان يعمل من قبل حارسا لبروتوس . وهناك ، قال لوسيليوس لأنطونيو :

– « عندما علم جنودك بأمر هروبك ، أصابهم الإحباط وخيبة الأمل . بل هم يرفضون تماما المشاركة فى أية معركة تقودها !

وازداد أنطونيو انهياراً وقنوطاً .

وبعد عدة أيام جاء إلى أنطونيو بعض الهاربين من أثينا ، وقالوا له : إن جنود كتائبه لم يصدقوا فى بداية الأمر خبر هروبه من القتال . ولكنهم ، فى النهاية ، استسلموا لأوكتافيوس ومعهم أسطوله البحرى . ولقد استسلمت كافة المدن الإغريقية لأوكتافيوس ، باستثناء كورينثه . ولقد أمر أوكتافيوس بقتل جميع من يوالون لأنطونيو .

وعندئذ ، لم يستطع أنطونيو أن يتحمل أكثر من ذلك ، فانقض على سيفه لينهى به حياته . ولكن لوسيليوس منعه من ذلك . وهنا ، سارع العالم اللغوى أريسطوقراطس الذى كان يصاحبه هو أيضا ، بتأييد موقف لوسيليوس ، قائلا لأنطونيو :

– « تريد أن تنتحر بعد هروبك من المعركة ؟!

.. هكذا سوف توصف على صفحات التاريخ باعتبارك جبانا رعديدا ! .. الأحرى بك أن تذهب لملاقاة كليوباترا بالإسكندرية !

* * *

حقيقة أن كليوباترا قد وصلت إلى مقرها مرفوعة الرأس موفورة الكرامة ، ولكنها ، بالرغم من ذلك ، لم تستطع إخفاء الهزيمة المنكرة التى لحقت بأنطونيو . وعندما علم الشعب بذلك ، اجتاحه غضب شديد لإحساسه بأنه قد خُدع وغرر به . وعندئذ ، قالت كليوباترا لمستشاريها :

– « ليس فى يدى أى خيار . فليقتل كل من يحاول معارضتى جهرا وعلانية . إننى فى حاجة ماسة إلى المال . فلنستولِ على أموال السكندريين الواسعى الثراء وممتلكاتهم . ولنأخذ مافى خزائن المعابد . فربما تستدعى الضرورة لجوئى إلى بلد آخر . ولكن فى الوقت الحاضر ، على السكندريين أن يتيقنوا تماما ، أننى سوف أحارب حتى آخر رمق فى حياتى لكى تبقى مصر حرة مستقلة ! » .

واعتكفت الملكة تماما فى جناحها الخاص ، لتتمكن من التفكير فى كل مايحيط بها . ثم قامت بإرسال بعض سفرائها إلى كل من ميديا وبارثى . بعد ذلك ، أمرت بإعدام أرتافاسد ؛ لأنه حاول أثناء فترة غيابها ، أن يتحالف مع أوكتافيوس . ثم أمرت بأن تنقل البقية الباقية من أسطولها البحرى من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر .

حالما وصل أنطونيو إلى الإسكندرية ، سارع إلى مقابلة كليوباترا . وقال لها معترضا :

– « هل جننت ؟ ! كيف تفكرين فى محاولة مجابهة أوكتافيوس ؟! . فلنعمل بالأحرى ، على جمع كافة الكتائب الرومانية المعسكرة فى قونيه ، وسوريا ومصر وننتظر أوكتافيوس على أرض ثابتة ! » .

وبالقطع ، كانت فكرة أنطونيو هذه ، كمثل ماقررته كليوباترا ، تتسم بالخيال الجامح . فلقد استسلمت كافة الكتائب العسكرية التابعة لأنطونيو إلى القائد المنتصر أوكتافيوس . ولم تعد هناك أية بارقة أمل . وعندئذ ، قالت كليوباترا لأنطونيو فى أسى ومرارة بالغة :

– « فلنحاول إذن أن نحتفل ببلوغ قيصرون سن الرشد ؛ وكذلك الأمر بالنسبة لإبنك «أنتيلوس» الذى يعيش حاليا بالإسكندرية . ولكننى لن أهرب أبدا . ولا أريد أن يقع قيصرون أسيرا بين يدى هذا القائد الرومانى . ولذلك ، فبعد الاحتفالات ببلوغه سن الرشد ، سوف أبعث به إلى قفط هو ومعلمه . وربما إذا حتمت الضرورة ذلك ، يمكن أن يغادر قفط ويلجأ إلى برينيس ، أو أبعد منها . بل قد يستطيع أن يوفق فى تكوين التحالف الشرقى الذى لم أتمكن من تكوينه . ويستطيع ، فى يوما ما ، أن يحضر هنا ليحرر مصر من محتليها . عموما ، سوف أمنحه قدرا كبيرا من المال ، حتى يستقبلوه فى آسيا استقبالا كريما !!

وبالفعل ، تم إقامة مأدبة فاخرة إحياء لمناسبة بلوغ قيصرون سن الرشد . ووقتئذ ، كانت الملكة تستعلم عن نتائج بعض التجارب التى كانت قد أمرت ، قبل ذلك ، بإجرائها : كانت قد أصدرت أمرها بدس أنواع متباينة من السموم لبعض الأسرى ، لكى تتبين ، بدقة متناهية ، مدى تأثير كل منها . وفى نهاية الأمر ، قررت أن لدغة ثعبان الأصلة سوف تكون ، بالنسبة لها ، أنسب الحلول ، لو ضاع الأمل تماما .

وبالرغم مما كان يعتصرها من ألم بالغ ، فقد قامت فى عشية الاحتفال بابنها قيصرون بحثه على الإسراع بمغادرة مصر . وبعد يومين اثنين ، أى فى شهر يوليو عام ٣٠ ، وصل أوكتافيوس إلى أبواب الإسكندرية .

* * *

خلال تلك الآونة المأساوية ، كانت مشاعر كليوباترا تجاه أنطونيو تجيش بالإزدراء والحب فى آن واحد . ومع ذلك ، فقد بعثت إلى أوكتافيوس برسالة تخبره من خلالها أنها على أتم استعداد للتفاوض معه . ولكن هذا القائد الرومانى أجابها قائلا فى رسالته إليها ، إنه حقيقة معجب بشجاعتها وجسارتها ، ولكنه ، مع ذلك ، يرفض أى تباحث أو تفاوض . وبدأ جيشه يحاصر مدينة الإسكندرية . وهنا ، قالت كليوباترا لأنطونيو :

– « لم يتبق لدينا سوى أربع كتائب رومانية وعدد من الجنود المصريين والمقدونيين لمجابهة أوكتافيوس !! » .

وعندئذ ، بدا أن أنطونيو قد استعاد شجاعته السابقة . وقال لها :

– « سوف أتولى قيادتهم . وسنقاتل حتى النهاية ! » .

– « ربما أننا لم نفقد كل شيء . فلاشك أن جنود أوكتافيوس قد أرهقوا تماما . والإسكندرية تتميز بأسوارها المنيعة . وأسطولى البحرى لم يدمر تماما » .

وبالفعل ، استطاع أنطونيو أن يحرز بعض النصر على أوكتافيوس ؛ ورجع إلى القصر الملكى راضيا عما فعله . وهناك ، أرسل إلى خصمه برسالة يخبره فيها أن يحضر إليه لكى يتصارعا وجها لوجه . ولكن أوكتافيوس رد عليه قائلا فى رسالته إليه ، إنه يفضل اختيار أسلوب آخر للموت .

وعندئذ ، قال أنطونيو لكليوباترا :

– « إذن ، مادام الأمر كذلك ، فسوف نستمر فى القتال . ولكن ، قبل ذلك ، علينا أن نحتفل معا بانتصارنا » .

ولكن لسوء الحظ أن انتصارات أنطونيو لم تمنع البحرية المصرية من الوقوع فى أيدى الأعداء ، عندما اندفعت لاقتحام جبهة سفن أوكتافيوس الحربية ، وفقا لما تلقته من أوامر .

وهنا ، انتاب أنطونيو غضب شديد ، معتقدا أن كليوباترا قد غدرت به وأوقعته فى هذا المأزق . وترك مجال المعركة الدائرة على أشدها ، واندفع إلى القصر الملكى ، طالبا مقابلة كليوباترا . وفى هذه اللحظة ، تقدم منه أحد الضباط وقال له :

- « لقد سجنت كليوباترا نفسها هى ووصيفاتها بداخل ضريحها الذى يتضمن تابوتها ، ثم أنهت حياتها !! » .

وعندئذ ، انهار أنطونيو ، وسقط مترنحا على الأرض . وحالما استعاد وعيه ثانية ، طلب استدعاء عبده الأسود إيروس وقال له آمرا :

- « أتتذكر الوعد الذى أخذته عليك ؟ » .

فأجابه إيروس قائلا :

- « نعم ياسيدى : أن أقتلك عندما تطلب منى ذلك » .

- « حسنا . أنا الآن أطالبك بأن تقتلنى » .

وهنا ، سحب إيروس سيفه من غمده وقتل نفسه ، بدلا من أنطونيو .

فانقض القائد الرومانى على السيف وأخذه وطعن به نفسه . واستقرت الطعنة فى أمعائه ، ولكنها ، بالرغم من ذلك ، لم تقض عليه . واندفع بعض المصريين نحوه لمعرفة ماحدث . وأخذ أنطونيو يستعطفهم ويتوسل إليهم من أجل أن يقضوا تماما على حياته . ولكنهم ولوا الأدبار جميعا وهربوا . وفى نفس هذه اللحظة ، حضر ديوجين السكرتير الخاص لكليوباترا . وقال لأنطونيو وهو يحاول مساعدته :

- « كليوباترا تستدعيك وتنتظرك بمقبرتها . كيف يمكننى مساعدتك ؟ » .

عندئذ ، صاح أنطونيو صارخا :

- « إذن ، هى لم تمت ! خذنى سريعا إليها » .

وحرصت كليوباترا ألا تفتح الباب الحجرى الضخم الثقيل الوزن الذى يقفل باب مقبرتها ، خوفا من أن ينتهز جند أوكتافيوس ذلك ويقتحموها . ولذلك ، فقد قامت الملكة بتدلية بعض الحبال القوية من خلال إحدى نوافذ المقبرة ، من أجل أن يربط بها جسم أنطونيو ، ثم يتم رفعه إلى أعلى . وعندئذ ، كان أنطونيو يتلوى من آلامه المبرحة ، ويكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ولكنه ، بالرغم من ذلك ، بدا وهو يرفع إليها ذراعيه متوسلا . وبالرغم من يأسها البالغ وفقدانها لكل أمل ، بذلت الملكة أقصى مافى طاقتها من أجل المساعدة فى جذب جسد حبيبها أنطونيو لرفعه إليها لمصاحبته فى آخر

لحظات حياته . وأخيرا ، تمكنت من ذلك ؛ وعملت على إرقاد جسده الملطخ تماما بالدماء فوق أحد الأسرة ؛ وأخذت تمزق ملابسها ؛ وتبكى فى لوعة وأسى ، وتنادى على أنطونيو بكافة الأسماء الرقيقة المحببة .

وهنا ، تمكن أنطونيو من أن يهمس إليها قائلا :

– « أريد بعض الخمر ؛ وأن تستمعى إلى نصائحى . لقد عرفت طوال حياتى انتصارات باهرة ، ومررت بلحظات سعادة غامرة . ولست فى حاجة إلى الشفقة والتأسى . وأرجوك ألا تقترفى أى عمل ينال من كرامتك وهيبتك . وبالنسبة للرجال الذين يصاحبون أوكتافيوس ، يمكنك الثقة فى بروكيليوس » .

ثم سرعان ما أسلم الروح بين ذراعيها .

بعد ذلك ، لم تجد كليوباترا فى الدنيا كلها شيئا يمكن أن يواسيها عن فقدانها لأنطونيو . بل لم تعد تشعر بأية ضرورة لحياتها . وربما أن الشئ الوحيد الذى جعلها تصمد إلى حد ما ، هو قلقها على مصير ابنها قيصرون . ولذا ، فقد قامت ببعث رسالة ثانية إلى أوكتافيوس . وأرسل إليها هذا القائد الرومانى بالضابط بروكيليوس وألقت كليوباترا عليه بمطالبها : إنها تريد أن يحتفظ أبناؤها بعرش مصر . ولكن أوكتافيوس رفض تلبية مطلبها هذا . وعلى ما يبدو ، أنه كان يريد أسرها وهى على قيد الحياة . ولذلك ، فقد بعث إليها بمراسل آخر ، ووضع خطة من أجل تنفيذ غرضه هذا . فخلال انشغال الملكة بالتباحث مع هذا المبعوث الجديد ، أمر أوكتافيوس بعض رجاله بالتسلل خلسة إلى مقبرتها ، عبر نافذتها الوحيدة . واعتقدت كليوباترا أنها قد وقعت تماما فى الفخ ؛ وبذا ، سارعت إلى قتل نفسها بطعنة خنجر . ولكنها لم تفلح فى ذلك . وعندئذ ، وضعها أوكتافيوس تحت حراسة أحد الضباط . واستولى على العاصمة المصرية . وقتل أنتيلوس .

وعندما علم أوكتافيوس ، أن كليوباترا تعانى من آلام الحمى الشديدة بسبب جرحها ، وأنها ترفض تناول أى غذاء ، حاول أن يقوم بابتزازها ؛ فأخبرها ، بأن من مصلحتها التداوى وتناول بعض الطعام ، إذا كانت تريده أن يصدر عفوا عن أبنائها . ثم جاء إليها بمقبرتها .

وعندما رأته كليوباترا ، وهى مرتدية ثوبا بسيطا للغاية ، يكشف عن جرحها الغائر ارتمت على قدميه متوسلة مستعطفة . وكانت تبدو عندئذ شعثاء الشعر ، مرتعشة الصوت ، مرتجفة النبرات . كانت كليوباترا تأمل ، بالرغم من أنها قد ناهزت التاسعة والثلاثين من عمرها ، أن تسحر هذا الرجل وتخلب لبه ، بالرغم من أنها كانت ، فى قرارة مشاعرها تنأى بنفسها عن ذلك .

ولكن أوكتافيوس لم يحرك ساكنا ، ولم يبد عليه أنه قد تأثر بما تقوله أو تفعله .

وعندئذ ، أخرجت كليوباترا بعض رسائل قيصر وصوره ، وقدمتها إليه متوسلة :

- « إن أباك نفسه هو الذى سمح لى بالبقاء على عرش مصر . خذ . اقرأ رسائله إلىّ :

وفى حقيقة الأمر أن أوكتافيوس لم يكن يرى فى كليوباترا وقتئذ ، سوى امرأة منهكة ومكدودة القسمات ؛ فلم يأبه لبكائها أو توسلاتها .

وعندئذ ، قالت له كليوباترا فى يأس :

- « إذن ، قل لضابطك هذا أن يتوقف عن مراقبتى فى كل تحركاتى وأفعالى . فماذا عساك تخشى ؟! إننى لم أعد أملك أى سلاح الآن ! » .

وانصرف أوكتافيوس من مقبرتها . ووقتئذ ، حاولت كليوباترا أن تستدر عطف وشفقة الضابط الرومانى كورنليوس ودلابيلا المكلف بحراستها فقالت له مستعطفة :

- « أرجوك أن تخبرنى . ما مصيرى المنتظر ؟ » .

فأجابها :

- « سوف يدخل أوكتافيوس روما ، بعد مروره بسوريا . وبعد بضعة أيام ، سوف يقيم احتفالات ومراسم انتصاره » .

- « وعندئذ ، سوف أسحب أنا وأبنائى كأسرى حرب أمام عربته ! » .

وأومأ دولابيلا موافقا على ما ذكرته .

وبعد وقت وجيز ، طلبت كليوباترا من حارسها السماح لها بالقيام بتقديم بعض المراسم الجنازية من أجل أنطونيو . ورجعت إلى قصرها الملكى ، وأخذت حماما ، وجلست لتناول عشائها أمام مائدة فاخرة . وخلال تناولها الغذاء ، ووفقا للطريقة المصرية ، تقدم إليها أحد المصريين بسلة مليئة بثمار التين . وعندما رأته الملكة ، سارعت بختم رسالة كانت قد كتبتها خلال إقامتها بالمقبرة . وطلبت من الضابط المكلف بمراقبتها ، بتوصيلها توا إلى أوكتافيوس . ثم أقفلت الباب عليها هى ووصيفتيها : إيراس وفورميون .

وحالما تلقى أوكتافيوس رسالة كليوباترا ، التى تذكر من خلالها ، آخر رغباتها ، سارع مندفعا إلى جناحها الخاص . وفى نهاية الأمر ، عندما تمكن من اقتحام بابها عنوة ، وجد الملكة المصرية ، راقدة على سرير من الذهب الخالص ، وهى مرتدية ملابسها الرسمية الفائقة الفخامة ، وقد فارقت الحياة . وشاهد وصيفتها إيراس وهى صريعة تحت قدميها ، أما فورميون فكانت تلفظ آخر أنفاسها . وهنا ، لم يسع أحد الضباط ، وهو يشاهد هذا المشهد سوى أن يصيح قائلا :

- « هذا رائع !! » .

ولكن فورميون أجابته فى نهاية احتضارها :

- « بل هذا جدير بسليلة العديد من الملوك العظام » .

لقد أسلمت كليوباترا الروح فى ٢٩ أغسطس عام ٣٠ ووفقا لما طلبته فى وصيتها ، تم دفنها بجوار أنطونيو ، حبيبها .

* * *

يدعى بعض المؤرخين أن كليوباترا قد لقيت مصرعها بداخل ضريحها الخاص . وفى واقع الأمر ، أن نهاية كليوباترا المأساوية قد اكتنفها الغموض والإبهام . فلم يلاحظ على جثمانها آثار أى سموم . بل ولم يعثر فى مكانها هذا على أى ثعابين أو حيات . ولكن البعض يرون أن الثقب الدقيق بذراعها ، قد يثبت أنها قد أصيبت بوخزة إبرة مسممة ، أو لدغها أحد الثعابين (الأصلة) . والجدير بالذكر فى هذا الصدد ، أن أوكتافيوس ، خلال الاستعراضات الخاصة بانتصاراته ، قد استعاض عن وجود

كليوباترا شخصيا ، بتمثال يمثلها ، وقد أحاط ثعبان ضخم بإحدى ذراعيها . ولكن ، بعض الروايات الأخرى ، تقول إن كليوباترا قد لقيت مصرعها بسبب لدغة ثعبان سام في ثدييها .

ولم يستطع أحد أن يبين الطريقة المؤكدة التي توضح كيفية وصول الثعبان السام إلى كليوباترا . فإن سلة ثمار التين التي يعتقد البعض أنه قد أخفي بداخلها ، كانت قد تم تفتيشها قبل وصولها إلى الملكة . بل ليس من المعتقد أيضا ، أن كليوباترا ووصيفتيها إيراس وفورميون ، قد لاقين ثلاثتهن مصرعهن مرة واحدة ، بلدغة ثعبان واحد ، ومن المعروف أن الثعبان السام الوحيد الدارج في نطاق مصر ، الذي لا يلاحظ أي آثار للدغته ، هو المسمى بالثعبان الملكي أي الكوبرا ؛ وقد يتسبب في بعض التورم الطفيف ولكن الكوبرا تتميز بضخامة حجمها ؛ وبالتالي ، يصعب إخفاءها بداخل سلة التين دون أن يلاحظ الحراس وجودها . وبالإضافة لذلك ، يمكن أن يستبعد وصول أي أنواع أخرى من الثعابين إلى الملكة . فإن مصر تتضمن حقيقة نوعين آخرين من الثعابين السامة ، هما : الحية المقرنة ، والحية غير المقرنة . وتتسم لدغة كل منهما بالتورم الشديد الذي تخلفه وراءها .

وهنا ، قد نستطيع أن نقدم هذا الرأي الذي لا يتسم بأي رومانسية أو شاعرية . ولكنه ، على أية حال ، يبدو منطقيا إلى حد ما ؛ لقد لقيت النساء الثلاث مصرعهن بسبب ماتناولنه من سم .

* * *

بعد مصرع كليوباترا بعدة أيام ، عاد قيصرون ابنها إلى الإسكندرية . وكان معلمه «رودون» الذي انحاز إلى جانب أوكتافيوس قد نصحه بذلك . ولكنه سرعان ما قتل خنقا .

ولقد عفا أوكتافيوس عن بقية أبناء أنطونيو وكليوباترا . وكان أوكتافيوس قد استعرضهم خلال الاحتفالات بانتصاراته في روما . ثم أوكل بهم إلى أوكتافيا لرعايتهم والعناية بهم . وعملت أوكتافيا على ضمهم إلى أبنائها وتربيتهم معهم . ولقد توفي كل من إسكندر هليوس ، وبطلميوس فيلادلف وهما في ميعة الصبا . وتزوجت «كليوباترا

سيلينيه» من «جوبا» ابن ملك نوميديا الذى أصبح فيما بعد ، ملكا على مقدونيا . وكانت «كليوباترا سيليتيه» تشعر دائما بالفخر والاعتداد بجنسيتها وأصولها الرفيعة الشأن ؛ ولذلك ، عملت على أن تصبح ملكة معظمة ، وأن تسك عملات نقدية تحمل صورتها . ولقد رزق الاثنان بابنين هما بطلميوس ، الذى راح ضحية مؤامرة حاكها ضده الامبراطور الرومانى كاليجولا الذى لم يكن يرتاح أبدا لطموحاته وتطلعاته ؛ ثم هناك أيضا «دروسيلا» التى تزوجت من أحد أتباع الإمبراطور «كلود» المحررين .

بعد مصرع كليوباترا ، فرضت روما سيادتها ونفوذها الكامل على مصر ، ولم يستطع أى امبراطور رومانى أن يحقق ويبلور تلك الوحدة بين الغرب والشرق التى مهد لها كل من قيصر وكليوباترا .

وربما أن الإمبراطور «جوليان» وكذلك سفيرس (١٩٣-٢٣٥) ، قد حاولا ذلك ، بزواجهما من أميرات سوريات . ولكنهما ، بالرغم من ذلك ، لم يستطيعا ، فعلا ، تحقيق هذه الوحدة بين الشرق والغرب .

الفهرس

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومي
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرا متي	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ –نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ –الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقل الكسندر وقنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير في البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديڤيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت : مجموعة من المترجمين
١٦٤ – شامپوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد

(تحت الطبع)

الجانب الدينى للفلسفة
الولاية
مختارات من الشعر اليونانى الحديث
العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل
چان كوكتو على شاشة السينما
الأرضة
نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة
العنف والنبوءة
العمى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر)
وضع حد
التليفزيون فى الحياة اليومية
أنطوان تشيخوف
تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع)
حكايات ثعلب
الإسلام فى السودان
العربى فى الأدب الإسرائيلى
ضحايا التنمية
المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر
فن الرواية
ما بعد المعلومات
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
المهلة الأخيرة
الهيولية تصنع علماً جديداً
مختارات من النقد الأنجلو – أمريكى
النقد الأدبى الأمريكى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٣٨١٠ / ١٩٩٩

LES HISTOIRES D'AMOUR DES PHARAONS

VIOLAINE VANOYEKE

لا شك أنه من العسير كتابة قصص وحكايات الحب التى عاشها الملوك الفراعنة . ولا ريب أن مثل هذا العمل يتطلب قدراً وافياً من إعادة الترتيب التاريخى الذى قد يكون افتراضا فى معظم الأحيان .

أما الكتب الموجودة فى مكتبات باريس عن مصر الفرعونية فهى كتب علم وحب وإعجاب لا حدود له . فإذا كان الفرنسيون لا يملون الكتابة عن نابليون ، فهم لا يملون الكتابة عن الفراعنة كذلك ، وها هى الأستاذة « فيولين فاتويك » تكتب عن « غراميات الفراعنة » ، وقد اختارت غرام نفرتيتى لإخناتون ، وولع نفرتارى برمسيس الثانى ، وهيام تايبى برمسيس الثالث ، ثم جنون قيصر بكليوباترا ، وهوس أنطونيو بكليوباترة ثم انتحارها فى النهاية .

هذه - إذن - قصص حب عارمة وملتهبة ، عابرة وخاطفة ، مؤثرة وعاتية ، مدبرة أحيانا ، وتحيط بها العراقيل غالبا . ووقعت فى إطار حقبات تاريخية غير عادية . ومع ذلك ، فإن بضعة أسطر بالكتابة الهيراطيقية أو الهيروغلي على إحدى البرديات ، أو لمحة ما على وجه ما من خلال التماثيل ، كل ذلك يجعلنا نسترسل قليلا فى أحلامنا ، ويفتح أمامنا المجال واسعا لنتطلع ونته على بعض المشاعر والأحاسيس التى ترنو إلى استعادة حياتها عبر آلاف السنين